اللغة العربية

مجلة نصف سنوية محكّمة تعنى بالقضايا الثقافية والعلمية للّغة العربية
تصدر عن المجلس الأعلى للغة العربية



العدد الثامن والعشرون - السداسي الأول 2012

اللغة العربية

مجلة نصف سنوية مُحكمة تعنى بالقضايا الثقافية والعلمية للغة العربية

العربية

العدد الثامن والعشرون

اللُّغَةُ العَرَبِيَّةُ

مجلة نصف سنوية محكّمة تعنى بالقضايا الثقافية والعلمية للّغة العربية.

هيئة التحرير

مجلة اللغة العربية

دورية تعنى بقضايا اللغة العربية وترقيتها

يصدرها المجلس الأعلى للغة العربية.

المجلة منبر حر، وليس كل ما ينشر فيها معبرّا بالضرورة عن موقف المجلس.

قواعد النشر

- ✓ التقيد بالمعايير العلمية والأكاديمية المتعارف عليها : كالتوثيق..
- ✓ أن تكون الأعمال أصيلة لم يسبق نشرها من قبل.
- ✓ ترسل النصوص مرفقة بقرص مسجل باسم رئيس المجلس أو رئيس التحرير على العنوان المذكور أدناه.
- ✓ أن توضع الهوامش والمراجع في آخر المقالة.
- ✓ المقالات التي ترد إلى المجلة لا تردّ إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر.

التحرير والمراسلة

المجلس الأعلى للغة العربية

شارع فرنكلين روزفلت الجزائر

ص.ب . 575 ديدوش مراد – الجزائر

الهاتف: 24/25 07 23 21 (00213)

الناسوخ:07 07 23 21 (00213)

الترقيم الدولي الموحّد للمجلاّت (ر.د.م.م) :1112 ـ 3575

الإيداع القانوني:02 7/20

محتويات العدد

كلمة رئيس التحرير

أ. د/ مختار نويوات

خمسون سنة مرّت على تحرير الجزائر من احتلال غاشم قبض عليها بيد من حديد ورام أن يطمس هويّتها بالقضاء على مقوّماتها وبالنيل من مقدّساتها: الدّين والمعرفة والأرض. أمّا الدّين فاستعصى عليه بل زاد رسوخا في النفوس، وأمّا الأرض فاستُرجِعت بكفاح مرير ما وَهَنَ وما انقطع، وأمّا المعرفةُ فكانت المجال الخصب الذي أُطلِقت فيها يدُه بلا رحمة ولا هوادة.

لم تَحْظَ الجزائر في عهد الاحتلال التركيّ، وفيما نعلم، بمدارس تعليميّة عصريّة أو غير عصريّة لا بالعربيّة ولا باللّغة التركيّة. فلمّا احتلّها الفرنسيّون وقبضوها بالحديد والنّار اتّبعوا فيها سياسة التّجهيل فحظروا على الشعب تعلّم اللّغة الفرنسيّة إلاّ بما يسمح بتسيير إدارتهم في بعض مرافق الحياة، لا سيّما فيما يُخوِّل لهم الاتصال بمن احتلّوا. فإن سمحوا بتعلّمها فبمقدارٍ وفي مؤسّسات يدعونها المدارس الأهليّة وبشهادات خاصّة "بالأهالي" ولا قيمة لها في الإدارة الفرنسيّة لأنّ حامليها، ممّن سُمِحَ لهم بالتعليم في هذه المدارس الأهليّة، لم يكونوا موظّفين كغيرهم من الفرنسّيين الأصليّين أو الأوروبيّين بل كانوا يُدْعَوْنَ "مساعدين أهليّين". ودام ذلك إلى أواخر الحرب العالميّة الثانية، إلى سنة 1945 بالضبط. في تلك السنة قرّرت الإدارة الفرنسيّة تعليم اللّغة العربيّة بالمرحلتين الابتدائيّة والإعداديّة بمعدَّل ساعة في الأسبوع، ووحّدت الشهادات المدرسيّة وسوّت المعلّمين والأساتذة الجزائريّين بغيرهم من الغربيّين في الوضعيّة

والرّاتب. كان ذلك بأثر من الحرب الهنديّة الصينيّة ومن الحركات السياسيّة الصّاعدة.

ومِمّا يدلُّ على سياسة المحتلّ في تجهيل الشعب الجزائريّ أنّ الجامعة المركزيّة، وكانت المؤسّسة الوحيدة للتعليم العالي لمِ يكن بها من الطلبة الجزائريّين، قُبَيْلَ حرب التحرير، إلاّ زُهاء المائتين (من ثمانية ملايين ساكن) مقابل خمسة آلاف فرنسيّ (من مليون أوروبّيّ).أمّا طلبة اللّغة العربيّة وآدابها فلم يكونوا يتجاوزون العشرة.

تحرّرت الجزائر من ربقة الاستعمار فغادرها المعلّمون والأساتذة الفرنسيّون ، وكانوا الأغلب، فبقيت المدارس الجزائريّة بدون إطارات بشريّة ذات كفاءة عالية. فواجهت الدّولة أوّل مشكلة وأعوصها في ميدان التعليم. وكانت ثانيةُ المشاكل حقّ الطفل الجزائريّ في التعليم؛ وكان محروما منه حرمانا يمكن أن نصفه بالتّامّ؛ وثالثتُها البنى التحتيّة من مدارس وتجهيزات في كامل القطر مدنه وأريافه؛ ورابعتها تعريب التعليم الابتدائيّ فالثّانويّ بطريقة منهجيّة منطقيّة لا تُدخِل الضيم على أحد.

وجدنا أنفسنا وجها لوجه أمام المثل الشعبيّ "تدخّن ولا طافية"، ووجدنا أنفسنا كذلك مضطرّين إلى العمل به و"بالضرورة المبيحة للمحظورات"، فتابعنا عمليّة التعليم بمن وجدنا من إطارات بشريّة جزائريّة وكانوا أقلَّ من القليل للأسباب التي ذكراها، وبمن عاد من الفرنسيّين خائفا حذرا لا يكاد يصدّق ما وجد من طمأنينة وترحيب في بلاد غادرها بعد ما فعل الأفاعيل بشعبها، لكنّه الدّرهم يسعى إليه الإنسان حيثما وجده، ولكنّها المعرفة يضحّي من أجلها الْحُرُّ بكلّ غال.

وطلبنا المساعدة من الأقطار الشقيقة فأعانونا بما توفّر لديهم من معلّمي المرحلة الأساسيّة وأساتذة الثانويّ والعالي. ولم يكن ذلك كافيا لمشروع طموح واسع المجال بعيد المرامي، متعدّد الجوانب، فاضطُررنا اضطرارا إلى الاستعانة بحاملي الشهادة الابتدائيّة من مواطنينا العاطلين عن العمل أو بمن هم " في مستواها "، وبمن يرقى مستواه الثقافيّ إلى الشهادة الأهليّة في واقع الأمر أو بالتقدير، وبخرّيجي جامعتي الزيتونة والقرويّين أو جامعات الشرق الأوسط والغرب من بعثات جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريّين.

مزيج بل أخلاط من الإطارات البشريّة في تكوّنها الحقيقيّ وفي تكوينها الفعليّ وفي نجاعة عملها، مع انعدام من يوجّهها في المجالين التربويّ والثقافيّ ومع قلّة الوسائل التعليميّة وما أكثرها ! ونقص فادح في عدد المؤسّسات التعليميّة، وعدد كبير من الأطفال البالغين سنّ الدراسة.

كان على المسؤولين أن يجدوا الحلول العاجلة لهذه المشاكل الملحّة، فشيّدوا المدارس الابتدائيّة بالمدن والأرياف، ودورَ المعلّمين بكُبْرَيات المدن، ومركز تكوين لمفتّشي التعليم الابتدائيّ، بالعاصمة ونظّموا مسابقة سنويّة للتخرّج منه، وفترات تدريب مهنيّ للمعلّمين وللمفتّشين، كما شيّدوا مراكز جامعيّة تحوّلت بالتدرّج إلى جامعات. وأنشأوا مركزا تربويّا لتأليف الكتب المدرسيّة وتوزيعها، ولجأوا إلى " نظام الدَّوامَيْن " لاستيعاب العدد الهائل من التلاميذ، وتساهلوا في التوظيف وفي بعض المسؤوليّات.

وكان عليهم كذلك أن يُحِلّوا اللّغة الوطنيّة محلّها من التعليم. فقرّروا تعريب هذا التعليم بالمرحلتين الابتدائيّة والثانويّة وتعريبَ بعض التخصّصات في الجامعة. ولم يكن ذلك بالأمر الهيّن لنقص كبير في الإطارات ولما أحدث

التعريب – وما أحوجنا إليه ! - من مشاكل راجعة إلى أسباب مختلفة. لكنّ المسؤولين مضوا قُدُما فحقّقوا ما أرادوا ولو ببعض الهنات.

وتفتّح التعليم على العالم الخارجيّ والثقافات العالميّة فتقرّر تعليم أهمّ اللّغات المعاصرة والتمكين لها في المراحل الثلاث. وفُتِحَ بالمراحل الأساسيّة والثانويّة والعليا العديدُ من الأقسام لتعليم اللّغات الأوروبيّة لا سيّما الفرنسيّة منها والإنجليزية. وأنشئت الجامعات ودور المعلّمين العليا ومعاهد الفنون الجميلة ومراكز التكوين المختلفة وعرفت - ولا جهلتْهُ !- النموّ والازدهار.

وأقيمت مراكز البحث الجامعي وغير الجامعيّ ووُفِّرَت وسائلُه ورُصِدَتْ له الاعتمادات الماليّة الكفيلة بإنجاحه. وتعدّدت البعثات إلى الخارج فكانت خيرَ مَعينٍ للرّفع من المستوى المعرفيّ وتحسين الأداء. ولولا أنّ بعض أعضاء البعثات لم يعد إلى وطنه لكانت العمليّة من أنجح سياسات التعليم والتعاون الثقافيّ.

وكانت المرأة الجزائريّةُ مستضعفة رهينة المنزل فتحرّرت وبرزت إلى الوجود ودخلت معترك الحياة فهي اليوم شريكة الرّجل سواءً بسواء أو تكاد. ومهما يكن من أمر فالمدارس حافلة بالتلميذات والطالبات، بل لا نكاد نجد في بعض أقسام جامعاتنا وفي بعض الأحيان إلا البنت.

خمسون سنة مضت، وها نحن أولاء نحتفل بها وبمن بذل حياته لبعث الجزائر من جديد، آملين بأن نكون خير خلف لخير سلف، وبأنّ الأجيال الصاعدة تُنشِد مفتخرة صادقة راسخة في إيمانها :

" ورثنا المْجد عن آباء صِدْقٍ ونورِثُه إذا متنا بَنينا ".

اللغة العربية في أوطانها وخارجها(*)
"مؤهلات ورهانات"

أ.د. محمد العربي ولد خليفة
(جامعي- رئيس المجلس الشعبي الوطني)

* ألقيت في المؤتمر الدولي بعنوان العربية لغة عالمية بإشراف اليونسكو "بيروت" مارس 2012

1- العربية بين ماضيها وحاضرها

تحتل اللغة العربية - حسب ترتيب اليونسكو- المرتبة السادسة بين اللغات التي تستعملها نصف البشرية بعد الصينية والانكليزية والهندية والاسبانية والروسية وتأتي قبل اللغة الفرنسية وتتفوق ذخيرتها المعجمية والتراثية المدونة حتى القرن الرابع عشر ميلادي على مجموع ما أنتجته الحضارة الهيلنية باليونانية القديمة والرومانية باللاتينية وهما من اللغات البائدة، ويحتاج المتوفر من تراثها إلى ترجمة إلى اللغات الأروبية المتداولة حاليا، على العكس من تراث العربية الذي يمكن الأُطلاع مباشرة على تراثه من العصر الجاهلي و إلى اليوم.

ضاع الكثير من ذلك التراث العلمي والأدبي والديني لأسباب كثيرة من بينها الدمار الذي لحق بعواصم المعرفة في العالم العربي الإسلامي بعد هجمات جحافل من التتار والمغول والفتن الداخلية، وكذلك لاُقتصار العرب والمسلمين على النسخ وتأخر ظهور الطباعة حتى 1880، بينما بدأت في أروبا بعد اختراع غوتنبرغ J.Gutenberg المطبعة سنة 1447، وبين ثقافة النسخ اليدوي Culture du Manuscrit وثقافة المطبوع Culture de l'imprimé أكثر من ثلاثة قرون، ونظرا لما تتطلبه الكتابة اليدوية من جهد ووقت، وإتقان، فإنها جعلت الخط العربي من الفنون الجميلة المتميزة بأنواعها الخمسة الشهيرة، وهي الحجازي والكوفي والنسخي والديواني والمغربي.

لقد اُرتبطت اللغة العربية بالقرآن وعلومه، وتم بفضل آي الذكر الحكيم توحيد لهجاتها في فصحى واحدة وموحّدة للناطقين بها، لغة أولى في أوطانها الممتدة بين المحيطين الهندي والأطلسي، أو لغة ثانية في أعماق إفريقيا وآسيا وبين الملايين من المسلمين في بلاد المهجر، وهي من أولى اللغات التي اُكتمل تقعيدها وإحكام قوانين نحوها وصرفها في زمن مبكر يزيد على 1200عام.

لم تتمكن العربية من مواصلة تقدمها الحضاري وتحقيق التراكم العلمي والإبداعي في أوطانها واُنتشارها خارج حدودها الثقافية، بعد أن كانت لغة العلم والتعليم في كثير من الجامعات والمعاهد في جنوب أروبا، حيث كانت تتصدر مكتباتها مراجع في الطب والصيدلة والرياضيات والفلك بالعربية، فقد تحالفت ضدها ثلاثة عوامل عطلت تقدمها وأضعفت إشعاعها، **أولها** ما حاق بأهلها من تخلف وجمود وفتن، و**العامل الثاني** يرجع إلى المد الكولونيالي الذي

اُجتاح المنطقة مشرقا ومغربا، واستفاد من حالة الضعف والتأخر السائدة فيها، فعمل على دفعها نحو مزيد من التفكك وغرس عقدة النقص والإحساس بالدونية بين شرائح من شعوبها ونخبها، ومنعها من بناء قدراتها الذاتية والمشاركة في حداثة العصر بلسانها، بل تثبيتها في حالة أدنى من الوضعية السابقة المتخلفة أصلا قبل الصدمة الكولونيالية في أوائل القرن الثامن عشر.

أما **ثالث العوامل** فهو تخاذل أهلها وغفلة الكثير من نخبها وأولي الأمر في أوطانها عن تحريك النهضة وتوفير الشروط التي تمكّن بلداننا من اللّحاق بموكب المقدمة، ومن الثابت في تجارب الأمم القديمة والمعاصرة أن تحقيق التنمية والتقدم العلمي والتكنولوجي والحد من التبعية يتطلب استيعاب المعرفة وتوطينها باللغة الوطنية.

تحالفت العوامل الثلاثة السابقة ضد العربية، وفي فترات طويلة من تاريخها كان الإسلام عقيدة وتراثا الملجأ الأخير للفصحى، إما بسبب الاضطهاد والإقصاء، وإما بسبب تهاون الناطقين بها وتخليهم عنها، والجدير بالذكر أن المسيحيين العرب في المشرق ساهموا بجهد كبير في خدمة العربية بمنتوجهم الفكري والأدبي وبالسبق في وضع القواميس الأولى، وبالترجمة من اللغات الأجنبية وتأسيس الصحافة الحديثة، فقد كان لهم مع معاصريهم من المسلمين دور بارز في إطلاق إرهاصات النهضة في القرن التاسع عشر وما بعده، كما قدم علماء **الاستشراق** خدمات كثيرة للعربية وتراثها بعضها لأهداف علمية وبعضها الآخر لأغراض أخرى.

لقد أوصت اليونسكو بالاحتفاء بلغة الأم في 21 فيفري كما أقرّت مؤخرا إعلان يوم 18 ديسمبر يوما عالميا للغة العربيّة من كل سنة، فالعربية هي إما لغة الأم و إما اللغة الأم أي الجامعة لمئات الملايين من الناطقين بها وغير معرضة للاُنقراض كما حدث ويحدث بالنسبة لمئات من لغات الأم التي تتوقّع منظّمة اليونسكو أن يندثر النصف من 6500 لغة المتداولة في العالم، وخاصة في إفريقيا وشمال وجنوب أمريكا حيث توفيت آخر مسنّة في نهاية السنة الماضية تتحدث بلغة إحدى قبائل الهنود الحمر في الولايات المتحدة، والعربيّة و إن كانت غير مهدّدة بالاُنقراض، فإنّ التهجين والتلويث ينهش متنها و يشوّه خصائصها و يسلبها جمالياتها.

2- العربية في الجزائر: تركة ثقيلة ومستقبل واعد

إنّ اللّغة ظاهرة اُجتماعية، لابدّ لفهم وضعها الراهن من التعرّف على سياقها التاريخي فتغيّر الواقع من وضعيّة لأخرى، لا ينفي أن الماضي القريب والبعيد حاضر ومؤثر بدرجات مختلفة في جوانب من الواقع الجديد، فما هي ملامح الواقع اللساني في جزائر اليوم؟.

قد يكون من المفيد في البداية التذكير بإيجاز بذلك الماضي، فالجزائر هي البلد المغاربي الأول الذي تعرّض لعدوان دمّر كيانه وحلّ كلّ مؤسساته وجعل منه ملحقة استيطانيّة، وقد قرّرت الدولة الفرنسيّة إقصاء العربية واعتبارها لغة أجنبية أقل من عقدين من الاحتلال، وجعلت الفرنسيّة لغة رسميّة، وهي لغة الأقليّة من المستوطنين، وفرضت اُستعمالها لوحدها في الإدارة والتجارة والتعليم والإعلام والإعلان، وبهدف استبعاد الفصحى من التداول عملت على تعليم

العاميات في المدارس إلى جانب نظام المدرسة المخصّص للترجمة مع الأهالي ولشؤون الدين والوظائف الدنيا، والملاحظ أن نظام المدرسة الذي اُشتهر بكتابته بالحروف اللاتينية Médersa تخرجت منه نخبة متميزة ممن يتقنون العربية وآدابها بالإضافة إلى الفرنسية.

والحقيقة أنه لولا جهود الزوايا والكتاتيب والمعمرات التي كانت عبارة عن قلاع أو مخابئ للإسلام والعربيّة، ثمّ نضالات الحركة الوطنيّة المتمثّلة في نجم شمال إفريقيا ثم حزب الشعب وصورته الأخيرة الانتصار وجمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين، لما بقي في الجزائر سوى عاميات مشوهة من نوع الكريولية المتداولة في جزر الكراييب، وحسب دراسات موثقة نشرها أجرون Ch.R.Ageron سنة 1964 وجاك بيرك J.Berque سنة 1972 فإن عدد المتعلمين لم يتجاوز في الجزائر سنة 1954 12.4 % من مجموع سكان الأهالي ثلاثة أرباعهم لم يتجاوزوا مرحلة التعليم الابتدائي.

لقد اُستعادت اللّغة العربيّة بعد الاستقلال عددا من مواقعها الطبيعيّة، فهي لغة التعليم في كلّ مراحل نظام التربية والتكوين وبعض الكليّات، وهي اللّغة الرسميّة في غرفتي البرلمان وفي القضاء، وبدرجة أقل في الإدارة العمومية فهي دائما مرفقة بالفرنسية، ولكن التوقيع الرسمي لا يكون إلاّ على الوثائق المحرّرة بالعربيّة، وفي الوسط الاجتماعي، فإنّ الفرنسية أكثر اُستعمالا بين البورجوازية الناشئة التي ترى في لغة موليير علامة على التميز والحظوة (Préstige).

وإن كنت شخصيا لا أحبّذ اُستعمال كلمة تعريب بالمعنى العرقي للكلمة، لأنّ العربيّة هي لسان واُنتماء لثقافة وحضارة، وليست عرقا أو سلالة، وقد عبّر الإمام ابن باديس عن هذه الحقيقة بمقولته الشهيرة نحن أمازيغ عرّبنا الإسلام، ولذلك فإنّ العربيّة هيّ اللّغة الأم، وليست لغة الأم لكلّ الجزائريين، فالعربيّة هي لغتنا الجامعة والمشتركة إلى جانب الأمازيغية بمختلف لهجاتها التي تمّت دسترتها سنة 2002 في البند الثالث مكرر من الدستور، بمبادرة من السيد رئيس الجمهورية عبد العزيز بوتفليقة، وهي تدرس في كل مناطق الجزائر وتستعملها وسائل الإعلام المسموعة والمرئية وتنشطها المحافظة السامية للأمازيغية.

يتّم التعليم في كل مراحل منظومة التربية والتعليم بالعربية وفي كل الموادّ الدراسية، وهي إلزامية في المدارس الخاصة، القليلة نسبيا في الجزائر، فهناك ثمانية ملايين أي ربع السكان يدرسون بالعربية وحدها من بين 34 مليون ساكنة بما فيها سكان أقصى الجنوب في بلد مساحته مليونيْن وثلث مليون كلم مربع، ويحظى الجميع بمجانية الكتاب المدرسي والمنح، كما تؤمن الدائرة الوزارية المعنية ومتطلبات الجزائر في بلدان المهجر معلّمين للأطفال وقد وصل تعميم التعليم سنة 2011 إلى 87 % بين الأطفال ما بين 6 و18 سنة وتتركّز الأمية في فئات العمر الأكثر من 55 سنة لقد راهنت الجزائر على الاستثمار في التعليم والتكوين والبحث العلمي وربطه بمشاريع التنمية، فالإنسان هو الذي يضع الثروة والهدف في الأمد المنظور هو تأسيس مجتمع المعرفة وتدارك الفجوة التي تفصلنا عن ركب المقدمة.

3- منهجية العمل في المجلس الأعلى للغة العربية

يعمل المجلس وفق منهجية تجمع بين العمل الميداني لترقية ونشر العربية في المجتمع ومؤسسات الدولة، وبين الاعتماد على الخبراء من النخبة الجزائرية ومن الأقطار الشقيقة وحتى الأجنبية في ندواته وحلقاته الدراسية ومنابره المخصصة للحوار بين أهل الفكر والمختصين في التكنولوجيا والعلوم الدقيقة، بهدف تصحيح بعض المفاهيم والأحكام المسبقة على لغة الضاد التي تعاني من تخلف أهلها، فالتقدم والتخلُّف من صفات أوطانها، وليست اللغة سوى المرآة التي تعكس الأوضاع كما هي في الواقع، والعربية بحكم رصيدها التاريخي وقدرتها على استيعاب المعرفة والتقانة بالإمكان أن تلتحق بركب التقدم وتتبوأ المرتبة التي تستحقها بين أهم اللغات الناقلة والمنتجة للإبداع في العلوم والفنون والآداب.

لقد أولى المجلس عناية كبيرة للجوانب العلمية والتكنولوجية، وعقد عددا من الندوات الوطنية والدولية لتكنولوجيا المعلومات والعربية في الإدارة الالكترونية وقد أصدر في بداية 2012 دليلا مفصلا للمعلوماتية بثلاث لغات (العربية الانكليزية والفرنسية) بالتعاون مع المعاهد المتخصصة ووزارة تكنولوجيات الاتصال موجّه للمستعملين وللباحثين والمتكونين في هذا الميدان، وهناك دليل آخر للمصطلحات والمفاهيم الخاصة بعلوم الطبيعة والفيزياء والكيمياء بثلاث لغات أيضا بهدف توحيد المصطلحات والمفاهيم في نظامنا التربوي في مرحلتي التعليم الإعدادي والثانوي وذلك بالتعاون مع وزارة التربية الوطنية وبالرجوع إلى ما اُتفقت عليه المجامع المختصّة ومكتب تنسيق التعريب في الرباط، وسوف يكون جاهزا في نهاية الشهر القادم، يضاف كل

ذلك إلى خمسة أدلّة أخرى متعلّقة بمصطلحات الإعلام والاتصال والإدارة والماليّة والمحاسبة والمحادثة الطبيّة والوسائل العامّة، بعد جلسات دورية متعددة للاستماع والتشاور مع القطاعات الحكومية المعنية، شارك فيها أعضاء من الحكومة ومن الأمناء العامين للوزارات في القطاعات الأكثر تعاملا مع الجمهور.

أصدر المجلس بالإضافة إلى عمله الميداني 136 مدونة وثّقت مختلف نشاطاته ويستعد في شهر أبريل القادم للاحتفاء بتوزيع جائزة اللغة العربية التي تنظم كل سنتين في عدة مجالات من بينها الطب والصيدلة وعلوم العربية والاقتصاد والبرمجيات والتاريخ، وبالإضافة إلى المكافأة المادية يتكفل المجلس بنشر الأعمال الفائزة كما أن للمجلس مجلة نصف سنويّة محكمة بعنوان "**اللّغة العربية**" وصلت إلى 27 عددا، وسيصدر خلال الشهر القادم (أبريل 2012) العدد الخامس من مجلته "**معالم**" المتخصصة في ترجمة مستجدات الفكر والعلوم والإبداع من مختلف اللغات العالمية، وقد أصدر المجلس دليله الثالث للتعريف بإصداراته حتى 2011.

4- اللغة بين الوضع والاستعمال:

يرجع اُهتمام علماء اللغة في الحضارة العربية الإسلامية بمسألة الوضع والاُستعمال إلى بداية القرن الأول الهجري الثامن ميلادي فعدم الاُستعمال يميت الوضع، بل اللغة أصلا ويحوّلها إلى ركام لفظي أشبه بعملة بلا قيمة ولا سوق، ومن الواضح أنّ الاُستعمال بلا وضع أي بلا تنمية للثروة المعجمية وبلا مساهمة في رأس المال الإبداعي في العلوم والفنون والآداب، يؤدي إلى عجز اللّغة عن

الأداء في مستجدات الحداثة وألفاظ الحضارة التي يزداد تراكمها كما وكيفا في كل يوم، بل في كلّ ساعة في القسم المتقدّم من العالم.

وفي هذا السّياق ينبغي التنبيه إلى أنّه لا توجد لغة متقدّمة أو متخلفة لذاتها، إنّ التقدّم والتخلّف من صفات أهلها والحقيقة أنّ اتّهام العربية بالعجز والتخلّف موجّه أكثر لوضعيتنا في الركب الحضاري، إنّ العربيّة مثل الإسلام مظلومة من المنتسبين إليها، بقدر ما هي مظلومة من غيرهم.

ولا شكّ أنّ اْزدهار الوضع والاْستعمال ينبغي أن يشمل المجالات الثلاثة التي حدّدها الباحث المرحوم محمد أركون فيما سماه الدالات الثلاثة دين- دنيا- دولة، وهذا الثلاثي هو الذي يحدّد وظيفتها الأولى باْعتبارها اللّغة الجامعة والمشتركة بين الأغلبيّة من سكان المنطقة العربية، فهي تجمع بين مواطني دولة واحدة، وتساعد على تعزيز الوحدة الوطنيّة بدون أن تقصي أو تعادي اللّغة أو اللّغات الوطنيّة الأصليّة.

وبالنسبة لمنطقتنا ما بين المحيط والخليج، فإن اللغة العربيّة هي تقريبا آخر عوامل التقارب والتفاهم، وخاصة إذا تعلّق الأمر بتراثها المشترك من العلوم والفنون والآداب، يقول محمد عابد الجابري 1987: "إن عصر التدوين-القرن الثاني الهجري- مثّل الإطار المرجعي الذي تعود إليه جميع فروع الثقافة (...) وينظّم مختلف تموجاتها اللاّحقة إلى يومنا هذا".

أما أدبياتها الحديثة فلولا وسائط الاتصال الالكترونية وخاصة الشابكة أو الأنترنيت، ومعارض الكتاب الموسمية، لما تعرّف شباب البلدان العربية على

ما يصدر من آثار علمية و إبداعية إلا بالتنقّل إلى عين المكـان، والوضـع عـلى أي حال في هذه المسألة أفضل من الاتحاد الأروبي الذي يحتاج قادته في بروكسـل إلى جيش من التراجمة في كلّ لقاءاتـه الرسـمية وتكـاد الانكليزيـة أن تصـبح لغـة التعامل شبه الرسمية الوحيدة في وثائقه ومداولاته، ويخصص ما يزيد على مليـار أورو لجيش من التراجمة.

والملاحظ أن توصية الجامعة العربية سـنة 1964 بتفعيـل ميثـاق الوحـدة الثقافية العربية التي نصّت عـلى "أن تكـون العربيـة لغـة التعلـيم والدراسـات والبحث في كل مراحل التعليم"، بقيت بوجه عام في باب النوايا الحسنة.

5- العلاقة بين اللغة والتنمية والنهضة:

يشـير تقريـر الأمـم المتحـدة للتنميـة UNDP لسـنة 2009 في خلاصـته إلى الملاحظة التالية:

ربطت معظم الدول العربية هيئات البحث العلمي بنظام التعلـيم العـالي بدلا من ربطها بنظم التصنيع والخدمات، ممـا سـاهم في خلـق فجـوة بـين نظـم التعليم والبحث من جهة والحاجات الاقتصادية والاجتماعية مـن جهـة أخـرى كما أن سياسات العلوم والتقانة في كلّ البلاد العربيّة في حاجة إلى بيئات ثقافيـة واجتماعية واقتصادية مواتية للوصول إلى اُقتصاد تنافسي مبنيـة عـلى مخرجـات العلوم وبحوثها، فذلك هو ما يحقق التكاملية بين الاختراع والإبـداع والتنميـة، حيث يغذي الإبداع التنمية ويكون مصـدرا للتجديـد والتقـدّم، بيـنما تحتضـن التنمية بدورها الإبداع وتعمل على تحفيزه واُستثمار نتائجـه" يمكـن القـول بـأن اللغة جزء من حل مشكلة التنمية وليست من عوائقها يقول عبد القادر الفـاسي

الفهري: "إنّ تعميم اللغة الوطنيـة في التعامـل المجتمعـي والتبـادل الاقتصـادي، أكثر اُنتاجية، وأقل تكلفة من التعامل بلغة دخيلـة" (تقـارير ووثـائق رقـم-6- الرباط).

6- اللغات الأجنبية نافذة أم بديل؟

نطرح هذه المسألة في صورة تساؤلات على النحـو التـالي: هـل توجـد في الجزائر وربما في البلاد العربية الأخرى سياسة لتعليم اللّغات الأجنبيّة؟ مـا هـو الهدف من هذا التعليم؟ وأيّ اللّغات يمكن أن تحظـى بالعنايـة أكـثر؟ هـل هـي لغات القوس اللاّتيني L'arc latin مثل الإسبانية والفرنسـية والإيطاليـة؟ أم هـي الانكليزية لغة الحداثة وعصر العولمة؟ وهل من المفيد الآن تعلّـم لغـات القـوّة الثالثة الصاعدة في جنوب شرقـي آسـيا مثـل اليابانيـة والصـينيّة، ونضـيف إليهـا العبرية؟ وهل من المفيد تعلّم لغات العـالم الإسـلامي مثـل التركيـة والفارسـية؟ وكيف توظّف تلك اللّغات لخدمة التنمية والتواصل مع العالم الذي لم يعد محيطا بنا بل هو فينا أفرادا ومجتمعات؟.

إنّ تحديد تلك الوظائف يبدأ من إصلاح تعليم اللّغة العربيّة الجامعة مـن ناحية المضامين والتعليميات لإتقان أساسياتها في نهاية التعليم الأساسي أي بعد 9 سـنوات مـن التمـدرس، والتـدريب عـلى اُسـتعمالها في الإدارة وشـؤون الحيـاة اليومية، فقد لاحظنا أن المتحصلين على شهادة نهاية التعليم الثانوي لا يستطيعون مـلء اُسـتمارة في بلديـة أو تحريـر طلـب بالعربيـة، بـدون أخطـاء في الإمـلاء والقواعد.

كما أنّ المناهج والوسائل التعليمية كفيلة بتعلّم لغة أخرى، سواء في المرحلة الاُبتدائية أم بعدها، فقد حقّقت التقنيات التعليمية تقدّما كبيرا، إذ يمكن تعلّم أساسيات الانكليزية أو الألمانية أو الفرنسية أو الروسية أو غيرها بعد أقل من سنتين، تسمح فيما بعد بالتخصّص في الترجمة وحاجات البحث العلمي والتواصل المفيد لتلبية عدة حاجات مثل مجالات التجارة والدبلوماسية والإرشاد السياحي ونقل التكنولوجيا وتوطينها، ونلاحظ أنّه ليس من الضروري أن يكون المبدع في العلوم والآداب متمكّنا من لغة أجنبيّة، كما أنّه ليس كل متمكّن من لغة أجنبيّة مبدعا.

إذا كان القرآن الكريم قد حفظ العربية وأضفى عليها القدسيّة بين ما يزيد على مليار من المسلمين في شتى أنحاء العالم، فإنها تواجه اليوم تحديات كبيرة وتتطلب من قادة البلاد العربية ونخبها ومؤسساتها حالة من التعبئة العامة لتأخذ لغتنا الجامعة مكانتها في سوق المنافسة العالمية لسانيا وثقافيا في عصر العولمة وما أتى في سياقها من قولبة أو نمذجة أثارت ردود فعل زادت من صراع الهويات والمطالبة بحماية الخصوصيات والتنوع الثقافي واللغوي.

من بين التحديات التي تواجه العربية منافسة اللغات الأجنبية المعتمدة في كثير من البلدان العربية لتعليم العلوم والتكنولوجيات، حيث تتفرد تلك اللغات بعدد من التخصصات الجامعية وقسم كبير من البحث العلمي في داخل أوطانها ومن طلبة الدراسات العليا في أقطارها وفي الخارج وتفضيل بعض العلماء والأدباء اُستخدام الانكليزية أو الفرنسية في كتابة نصوصهم ونشرها في الخارج، وليس ذلك مأخذا إذا ساهموا أيضا في إثراء لغتهم الجامعة، كما يفعل

مبدعون بلغات لا يتجاوز مستعملوها بضعة ملايين، فالإبداع باللغة هو أيضا إبداع في اللغة.

وفيما يخص استيعاب المعرفة ونقل التقانة عن طريق الترجمة وهي الأكسجين الذي ينعش اللغة ويثري رصيدها ويحيّن ثروتها الفكرية والإبداعية، فإن الوضع غير مرض، فحسب مؤشر اليونسكو حول الترجمة في العالم فإن ما ترجم إلى العربية ما بين 1970 و2005 أي خلال 35 عاما هو أقل مما ترجم في بلدان أخرى أقل سكانا وإمكانيات مثل اليونان وإسرائيل التي تنتج حوالي 13000 عنوانا بين الترجمة والتأليف، والملاحظ أن ضعف وتيرة الترجمة والتأليف في العلوم الأساسية Sciences Fondamentales هو من أسباب استمرار تدريسها في الجامعات بالانكليزية أو الفرنسية، وقد أصبح ذلك النقص عائقا، وأحيانا حجة لبقاء الحال على ما هو عليه.

لا يستهدف التوصيف السابق والمقارنات مع بلدان أخرى اتّهام العربية بالقصور أو الاستهانة بالجهود التي تبذلها نخب توصف بأنّها تسبح ضدّ تيار جارف، ولا التقليل من عمل المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في تونس ومديرها العام ومكتبها لتنسيق التعريب الذي أصدر منذ تأسيسه سلسلة من المعاجم ثلاثية اللغة في العلوم الدقيقة والإنسانية لتوحيد المصطلحات، وقد وصل عددها إلى ثلاثين معجما، كما يقوم المركز العربي للتعريب والترجمة والنشر في دمشق بتعريب بعض المراجع الأكاديمية المتخصصة الموجهة لأساتذة وطلبة التعليم العالي والمركز العربي للترجمة التابع للأمانة العامة للجامعة

العربية ومقره في الجزائر ومن ٱختصاصه التكوين العلمي والمهني للمترجمين من عدّة لغات أجنبية.

بالإضافة إلى تلك المؤسسات هناك أيضا معهد في الخرطوم متخصص في تعليم العربية لغير الناطقين بها، فقد تزايد ٱهتمام الباحثين في شؤون المنطقة العربية والدبلوماسيين والإعلاميين بإتقان العربية الفصحى، فهناك منذ أمد بعيد العديد من الإذاعات وظهرت في العقدين الأخيرين القنوات الفضائية التي تبثّ من أوربا والأمريكيّتين وآسيا بالعربية المشتركة بين 22 بلدا عربيا وجالياتها المقيمة في الخارج، كما أنّ هناك جهودا متفرّقة لتعليم العربيّة لأبناء المهاجرين في بعض البلدان الأروبية والأمريكيّة.

أيا كانت تلك الجهود المبذولة على المستوى القطري وعلى مستوى مردودها داخل المنطقة وخارجها في المدى المنظور، فإن المنطلق والرهان الحقيقي لتمكين اللغة العربية في الألسنة والعقول، يتمثل في رأينا في المرحلة الاُبتدائية والإعدادية من التعليم التي ينبغي أن تحظى بالأولوية في كل مشروع للإصلاح في المضامين والمناهج التربوية، وذلك بالنظر في تحيينها والإعداد الجيد للمعلمين والرفع المستمر من كفاءاتهم المهنية التربوية والثقافية.

وعلى أي حال نعرف بأنّنا في حاجة إلى لغات العالم المتقدّم أكثر من حاجتها هي للّغة العربية، إلا في الإعلام والتسويق وأمور أخرى، ومن غير المفيد التخويف من الاُستغراب والغزو الثقافي، فمن تعلّم لغة قوم أمن شرهم، ويمكن أن نضيف، واُستفاد من خيرهم أيضا، فقد كانت النخبة العالمة في عصر

الأنوار الإسلامي من ثنائي أو ثلاثي اللغة، فقد نقلوا التراث اليوناني من السوريانية والعبرية ونقلوا الآداب والعلوم من الفارسية والهندية وصاغوها ضمن حضارة الإسلام، فقد كانت دولتهم في ذلك العصر دولة تقود الحداثة والتقدّم بثقة في النفس وتسامح كبير، وذلك هو الطريق الصحيح للتخلّص من التخلّف والتبعيّة والخوف من الآخر.

7- خلاصة

- العربية هي اللغة الأولى بين العرب المسلمين وغير المسلمين، وهي لغة أولى أو ثانية عند الكثير من المسلمين في مختلف القارات من المهاجرين والسكان الأصليين، غير أن هذا الانتشار الواسع لا تسانده سياسة لغوية يمكن أن تنطلق أساسا من دول المنطقة وجامعتها العربية التي أصدرت سنة 1964 لائحة ميثاق الوحدة الثقافية التي بقيت بعد حوالي نصف قرن في حدها الأدنى وهو الاُتفاقات الثنائية ومناسبات عواصم الثقافة العربية.

- من المفيد تأسيس منظمة للمستعربين أي الناطقين بالعربية لغة أولى أو ثانية، وهم يعدّون بمئات الملايين بهدف تعزيز انتشار العربية وأدبياتها وفنونها بمنأى عن السياسات والإيديولوجيات القطرية.

- إن العناية باللغة بهدف تهيئتها ونشرها، لا يكون فقط عن طريق مراسيم وقوانين بما فيها دستور الدولة، على أهمية تلك القوانين في فتح الباب والتعريف بالطريق الصحيح الذي يعلن عن إحدى العلامات المميزة في البطاقة الشخصية للشعب والأمة.

- إن الرهان الحقيقي ينبغي أن يكون على تحديث اللغة، وخاصة في مجالات المعرفة والتكنولوجيا، إن الكثير من النخب التي تكونت في تلك المجالات في نصف القرن الأخير في داخل أوطانها أو خارجها، تكونت باللغات الأجنبية وخاصة الانكليزية والفرنسية وهم في أغلب الأحيان يعملون أو يُعلّمون بها، وهو ما أدى إلى اُنشطار بين قسم كبير من النخب وعامة الشعب واُنحسار المعرفة وعدم اُنتشارها بين سكان المدن والأرياف.

- العربية هي اللغة الموحّدة وليس الواحدة في بعض الأقطار العربية، ولكي تقوم بدور التوحيد الثقافي للثقافات والألسنة الفرعية، فإنه من المفيد لها أن تكون جاذبة وليس طاردة، فاللغات الأخرى تعبر عن التنوع والخصوصية الثقافية المحلية، ولها صلات وثيقة بالتراث العربي الإسلامي ولم تعرف في عصور الازدهار الإسلامي في بغداد والقاهرة وفاس وبجاية الحمادية والقيروان أيّ إقصاء.

- ينبغي التأكيد على أهمية الجهود التي تبذلها منظمة اليونسكو للمحافظة على لغة الأم غير المكتوبة وقليلة الانتشار عن طريق تعلّمها وإحياء تراثها في مشروعها لتعليم اللغات المهددة بالاندثار Schooling in indigenous langages إن ضياع لغة كما يقول نيلسون مانديلا هو خسارة كبيرة لجزء من تاريخ الإنسانية وتراثها.

- يتضمن إحياء العربية إصلاح تعليمها وربطها بالحياة العملية للمتعلم وبالاحتياجات الاُقتصادية والفنية (أشكال الترفيه الحديثة) ثم توطين المعرفة بها، ولا شك أن الترجمة من المداخل المفضلة لنقل الرأسمال المعرفي

والتكنولوجي إليها، وهو ما يتطلب إتقان شرائح من النخبة للغات التي تعتبر منابع للمعرفة، ولا شك أن التغلب التدريجي على الفجوة العلمية والتكنولوجية ينبغي أن يسبقه أو يتزامن معه تحديث اللغة والتغلب على الفجوة اللسانية، في عالم يعيش عولمة فوقية أدت إلى مزيد من تهميش الثقافات المحلية وألسنتها وإضعاف وحدتها الوطنيّة وإشعال حرب الهويات القاتلة في تعبير المبدع اللبناني أمين معلوف.

إن مستقبل اللغة العربية وثيق الصلة بالدالات الثلاثة التي أشار إليها الفيلسوف محمد أركون وهي أن تكون لغة دين ودولة ودنيا، وهي مسؤولية تقع على عاتق النخب العالمة والسياسية وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

إحـــــــالات

1- الجابري: محمد عابد: إشكاليات الفكر العربي المعاصر

مركز دراسات الوحدة العربية- بيروت- .1989

2- الفاسي (عبد القادر الفهري): تقارير ووثائق رقم-6- الرباط.

3- غنيم كارم: اللغة العربية والنهضة العلمية المنشودة، عالم الفكر مجلد 19-1989.

4- كولماس ف.: اللغة والاقتصاد: ترجمة أحمد عوض عالم المعرفة –الكويت-.2000

5- علي (نبيل): ثقافة المعلومات والثقافة، رؤية عربية القاهرة 2006

6- Berque (J): L'Islam veilleur de la nuit coloniale N.O. dossier N° 9, Paris.

7- Ferguson and others = Langage problems of developing nations.

8- Hagege (C): Le souffle de la langue Odile, Paris 1994.

9- Hagege (C): La guerre des langues et la politique linguistique, Hachette, Paris 1999.

10- Leclerc (J): Langue et société, Laval Mondial, Canada1992

11- Spolsky (B): Langage policy, oxf Press 2004.

خصائص المدرسة النحوية الأندلسية

أ. سميرة جداين
جامعة - تلمسان-

بدأ النحو في الأندلس كوفي النزعة ، بسبب اشتهار كتاب الكسائي فيها أولا واهتمام أهلها به، وبقي الحال كذلك حتى أواخر القرن الثالث الهجري عندما جاء الأفشنيق إليها الذي كان قد رحل إلى المشرق ودرس كتاب سيبو يه في مصر وحمله معه إلى الأندلس ونشره فيها فتأثّر النحو الأندلسي تأثرا بالغا بالنحو البصري لدرجة أنه طغى على النحو الكوفي الذي سبق ظهوره هناك. [1]

وبذلك أصبح النحو في الأندلس ذا اتجاهين: أحدهما بصري والآخر كوفي وبقي الأمر هكذا حتى أواخر القرن الخامس الهجري عندما وصل إليها النحو البغدادي ، والذي كان له أكبر الأثر في الدراسات النحو ية هناك.

وعندما جاء القرن السادس الهجري أو قبله بقليل ظهر في الأندلس نحاة استقلوا عن المشرق ونحوه وأظهروا شخصية للنحو الأندلسي لا تقل عن شخصيته في المشرق، وتظهر ملامح هذه الشخصية في المنهج الذي تميزت به المدرسة النحو ية في بلاد الأندلس و يتمثل هذا المنهج فيما يأتي:

1- اتجاههم إلى تيسير النحو:

اكتمل تأليف النحو العربي على يد **سيبويه** الذي لم تفته فائتة فيما يخص هذا العلم، فألّف لنا كتابا سجّل فيه آراءه وآراء أستاذه **الخليل**[2]،

ولعظمة هذا الكتاب وأهميته انكبّ العلماء الذين جاؤوا بعد سيبويه عليه بالدراسة والشرح والتعليق، ولكن بعضا من هؤلاء العلماء أوغلوا في تعقيد النحو العربي وأمسك زمام أمر هذا العلم أناس صعب عليهم أن يضيفوا شيئا جديدا إلى قواعده ، فأصبح علم النحو صعبا على الكثيرين؛ لذلك كان لا بد من التيسير والتقريب لأذهان المتعلمين، وقد اتخذ هذا التيسير عدّة أشكال وصور أهمها:[3]

1-1: وضع المتون (تأليف الكتب النحوية المختصرة):

لقد أكثر نحاة الأندلس وبخاصة نحاة القرن السابع الهجري[4] من وضع المتون النحوية المتنوّعة: المنثور منها والمنظوم؛ التي جمعت قواعد النحو العربي. وعلى ما يبدو فإن ما دفع هؤلاء النحاة إلى هذا الاتجاه فضلا عن محاولتهم تيسير النحو العربي هو خوفهم على أصول اللغة العربية من الضياع[5].

وعلماء النحو في المشرق والمغرب، بخاصة في الأندلس اتّبعوا طرقا عدة من أجل تقديم النحو العربي بقالب جديد مخفف يصلح لمواكبة الحياة، وبخاصة الأندلسية المترفة، وكانت أوّل تلك الطرق وضع الخطط والمناهج الميسرة، وتصنيف الكتب العلمية المختصرة؛ التي تسهّل على القارئ والمتعلم الوصول إلى هدفه بيسر وسهولة، دون الحاجة إلى المرور بتعقيدات النحو التي لا حاجة للطالب منها[6]، ومن هذه المؤلفات :

- **المقدمة الجزولية:** وهي من تأليف أبي موسى **عيسى** بن عبد العزيز الجزولي البربري النحوي (ت607 هـ)7 ، وقد ألّفها ليسهل على الطلاب الإلمام بالقواعد النحوية، وعرفت بـ: "قانون النحو"[8].

- **الذرة الألفية في علم العربية:** من نظم العلامة زين الدين أبو زكريا يحيى بن عبد المعط بن عبد النور الزواوي الجزائري النحوي المعروف بابن معط (ت 628 هـ)[9]، وتعرف بألفية ابن معط [10]، وقد حظيت هذه المنظومة باهتمام كبير خلال القرنين: السابع والثامن الهجريين؛ إذ تناولها نحاة كثيرون بالدراسة والشرح[11].

- **غاية الإحسان في علم اللسان:** وهي للعلامة بن حيان الأندلسي، أثير الدين أبي حيان محمود بن يوسف بن علي الجياني النفزي (ت 745 هـ)[12]، وقد ضم هذا الكتاب أبواب النحو والصرف جميعها، مع أنّ حديثه عن تلك الأبواب كان موجزا كل الإيجاز[13]، وقد لفتت هذه المقدّمة أنظار النحاة المعاصرين، فألّفوا كتبا بنفس الاسم وقاموا بنظم المقدمة كما أن مؤلفها قد قام بشرحها أيضا[14].

1 - 2: اهتمامهم بكتب النحو المشرقية:

ومن الأساليب الأخرى التي اتبعها نحاة الأندلس شرحهم للكتب النحوية المشرقية المليئة بالتعقيد والتعليل والتأويل، وقد جاء هذا الشرح على قسمين اثنين: [15]

- **شرح الكتب المشرقية:** ويعدّ هذا النوع من الشروحات الأشهر والأكثر تداولا بين العلماء في الأندلس، وهو الذي ساعد على تطوير النحو العربي

وانتشاره بهذه البلاد، وتسهيله وتيسيره؛ وذلك لأنه لامس أشهر كتب النحو التي ألّفت مثل كتاب سيبويه، وكتاب الجمل، وغيرهما.

– **شرح الكتب الأندلسية المعاصرة في بلادهم:** هذا النوع من الشروح وُجد في الأندلس، ولكنّه كان أقل انتشارا من سابقه من الشروحات، ونجد من بين العلماء الذين اهتموا به: أبو علي الشلوبين؛ الذي شرح الجزولية **بشرحين**، وشرح الشربشي للذرّة الألفية.

ومن بين الكتب المشرقية التي دخلت بلاد الأندلس وحظيت بكثير من العناية والاهتمام والشرح والتفصيل، وكلّ ذلك من أجل تسهيل حفظها وفهمها وإدراك معانيها، أو حتى تصويب أخطائها أو توضيح شواهدها[16]: **كتاب سيبويه،** وكتاب **الجمل** للزجاجي وكتاب **الإيضاح** لأبي علي الفارسي، ولم يمنعهم ذلك الاهتمام بهذه الكتب من الرد على بعض هؤلاء النحاة والتعقيب على بعض آرائهم، وترجيح آراء بعضهم على بعض[17]، ولم يكن شرح علماء الأندلس لهذه الكتب المشرقية بدافع التسلية أو إضاعة الوقت، بل كان هذا الشرح و ذلك التوضيح ذا قيمة عظيمة، فهم رأوا أنّ هذه الكتب فيها من الصعوبة والتعقيد ما يكفي لتعسير فهمها على ناشئة الأندلس وطلابهم؛ لأنّهم حديثو العهد بهذا العلم؛ لذلك وقفوا عاجزين أمام لغة هذه الكتب النحوية القديمة المعقّدة وطريقتها الملتوية، مع أنّ هذه المتون لا أحد يستطيع إنكار فضلها وعظمة شأنها في علم النحو، فهي مناسبة لأهل البصرة والكوفة؛ لأنهم كانوا قريبين من العلماء الذين وضعوها؛ فيرجعون إليهم كلّما استصعب عليهم أي أمر فيسألونهم ويناقشونهم في مواضيع هذه المتون، ولكن لما انتقلت هذه اللغة إلى الأندلس ظهرت صعوبتها؛ لذلك كان لا بد لعلماء هذه البلاد أن يشمّروا عن سواعدهم ليُزيلوا عنها غبار التعقيد[18].

ومن أشهر الكتب النحوية المشرقية التي انكب عليها الأندلسيون:

– **شرح كتاب سيبويه** : انكبّ عدد كبير من النحاة على دراسته، فمنهم من قام بشرحه، ومنهم من قام باختصاره، ولم يكن هذا الجهد المبذول من طرف العلماء في سبيل فهم الكتاب أو تيسيره لمريديه مقصورا على جهة دون أخرى، بل نجد أنّ العلماء من مختلف الأمصار:مشارقة ومصريون ومغاربة وأندلسيون قد اهتموا به[19]، ومن أهم علماء الأندلس الذين اهتموا بشرح كتاب سيبويه:

– **الأعلم الشنتمري:** هو يوسف بن سليمان (ت 476 هـ)، له على كتاب سيبويه شرح الشواهد، وله أيضا النكت في كتاب سيبويه، وهما مطبوعان ومتداولان[20].

– **أبو القاسم الصفار** (ت 630 هـ)، ذكر شرحه للكتاب عدد من العلماء[21]، من بينهم السيوطي في قوله: "شرح كتاب سيبويه شرحا حسنا، يُقال عنه أنه من أحسن ما وضع عليه"[22].

– **أبو علي الشلوبين:** أبو علي عمر بن محمد الإشبيلي المعروف بالشلوبين الكبير (ت 645 هـ) ذكر شرحه للكتاب القفطي بقوله: "قيل إنه صنف شرحا لكتاب سيبويه"[23]، وأكّد السيوطي أيضا أنّ للشلوبين تعليقا على كتاب سيبويه[24].

وقام بشرح الكتاب علماء أندلسيون آخرون ، منهم: الشلوبين الصغير (ت 660هـ) وابن عصفور(ت 669 هـ)، وابن الضائع(ت 680 هـ)، وأبو حيان(ت 745 هـ) وابن خروف (ت 609 هـ)، وربما هناك شروحات أخرى لعلماء آخرين قد غابت عن الباحثين فلم يذكروها، وهذه الشروحات الكثيرة تبين لنا مدى اهتمام نحاة الأندلس بكتاب سيبويه[25].

– **شرح كتاب الجمل للزجاجي:** لقد اهتم نحاة الأندلس بكتاب الجمل للزجاجي شأنهم في ذلك شأن من سبقهم من النحاة، فقد قاموا بشرحه والتعليق عليه، وفي هذا دليل على أنه كان من الكتب التي انتفع بها طلاب هذه البلاد، ومن بين العلماء الذين قاموا بشرح هذا الكتاب:

– **ابن الدقاق** (ت 605 هـ): هو علي بن قاسم المعروف بالدقاق، وقد أشار السيوطي إلى شرحه لكتاب الجمل[26].

– **ابن معط النحوي** (ت 628 هـ): أشار السيوطي إلى شرحه.[27]

– **الأبدي** (ت 680 هـ)، هو علي بن محمد بن عبد الرحمن الخشني المعروف بالأبدي وقد أشار إلى شرحه له الفيروزآبادي[28].

– **ابن أبي الربيع**(ت 688 هـ): قال عنه السيوطي إنه شرح الجمل في عشرة مجلدات.

– **اللبلي** (ت 691 هـ)، وهو أبو العباس أحمد بن يوسف اللبلي، وأشار السيوطي إلى شرحه لكتاب الجمل[29].

– **المالقي:** هو أحمد بن عبد النور بن رشيد المالقي أبو جعفر النحوي، له شرح على كتاب الجمل للزجاجي في النحو[30].

و بالإضافة إلى من ذكرنا ، يوجد نحاة أندلسيون آخرون قاموا بشرح هذا الكتاب، أمثال: القيذاري (ت 630 هـ)، والأعلم (ت 637 هـ)، والخفاف (ت 657هـ) وابن عصفور (ت 669 هـ)، وابن الناظر (ت 679 هـ)[31].

– **الإيضاح لأبي علي الفارسي:** يُعدّ كتاب الإيضاح للفارسي من بين الكتب التي نالت إعجاب واهتمام نحاة الأندلس، وخير دليل على ذلك كثرة الشروحات والتعليقات التي وضعت عليه، ومن بين النحاة الأندلسيين الذين اهتموا بهذا الكتاب :

– **الزهري** (ت 617 هـ): وهو محمد بن أحمد بن سليمان الزهري، أشار المقرّي إلى شرحه لكتاب الإيضاح ، كما أشار إليه السيوطي[32].

– **ابن معزوز القيسي** (ت 625 هـ): وهو أبو الحجاج يوسف بن معزوز القيسي، وقد أشار إلى شرحه لكتاب الإيضاح كل من: ابن الأبار والسيوطي، وغيرهما[33].

– **ابن هشام الخضراوي** (ت 646 هـ): أثبت المؤرخون أن ابن هشام الخضراوي كان من المهتمين بكتاب الإيضاح للفارسي، وقد ألَّف في ذلك كتابين هما: "الإفصاح في فوائد الإيضاح"، و"الاقتراح في تلخيص الإيضاح"[34].

– **ابن الحاج** (ت 651 هـ) : أشار إلى شرحه لكتاب الإيضاح كل من أصحاب كشف الظنون والبلغة والبغية[35].

– **أبو بكر الخفاف** (ت 657 هـ): وقد أشار السيوطي إلى شرحه لكتاب الإيضاح[36].

– **ابن الضائع** (ت 680 هـ): أشار إلى شرحه لكتاب الإيضاح السيوطي بقوله: "أملى علي إيضاح الفارسي، وردّ اعتراضات ابن الطراوة علي الفارسي"[37].

– **ابن أبي الربيع** (ت 688 هـ): أشار السيوطي لشرح ابن أبي الربيع لكتاب الإيضاح . وشرح ابن الربيع هذا هو الوحيد من شروح الإيضاح السابقة الموجود منه جزء في دار الكتب المصرية، أما بقية الشروح فلم يبق منها إلا الاسم فقط[38].

إذاً كانت تلك بعض مجهودات علماء الأندلس في شرح الكتب النحوية المشرقية المختلفة؛ التي طبع شرحها بسمة واضحة ومميزة لعلماء الأندلس وقتئذ؛ وهي سمة التسهيل والتيسير والميل إلى الأسلوب التعليمي، فهم لم يؤلّفوا أو يشرحوا شيئا إلا وكان التسهيل والتيسير السمة الغالبة على مؤلفاتهم[39].

2–: نفورهم من التعليل :

ومن مميزات المدرسة الأندلسية النحوية المستقلة: نفور أعلامها من كثرة التعليل، والابتعاد عن فلسفة النحو وتعقيده، واتجاههم إلى تيسيره وتقريبه من دارسيه ومتلقيه، وتذليل الصعاب أمامهم بهذا الخصوص[40]، وذلك على مستوى الأدلة والتعليلات الكثيرة لتبسيط مفاهيمه لطالبيه في أسلوب يمكّنهم من فهمه وإدراكه والتفاعل معه، فعلى مستوى الدلالة والتعليل نلاحظ توجّههم إلى رفض التعليلات الكثيرة والمعقّدة، بل رفض عملية العامل التي تعدّ ركنا أساسا في علم النحو. فالأندلسيون نفروا من التعليل وثاروا ضده حتى أن ثورتهم تلك أُعتبرت من أهم مميزات اتجاههم في الدرس اللغوي النحوي في بعض مراحله، خاصة في القرنين السابع والثامن وأواخر القرن السادس، وقد ارتبطت هذه الثورة بابن مضاء القرطبي (ت 592 هـ)[41] صاحب كتاب "الرد على النحاة"؛ الذي نال شهرة كبيرة لما فيه من ثورة عارمة أشعلها عندما طالب في هذا الكتاب بإلغاء نظرية العامل وإلغاء العلل

الثواني والثوالث، وإبطال القياس وترك المسائل النظرية، وإسقاط كل ما لا يفيد في النطق[42].

ولقد اعتبر بعض الباحثين صنع ابن مضاء خطوة هامة في تطوير النحو العربي وتحريره من التعليل والتأويل[43]، لما له من دور كبير في عمليّة تيسير النحو وتقريبه من مريديه ومستعمليه[44]، وقد قام ابن مضاء في كتابه هذا بهجوم أراد به أن يلغي نظرية العامل إلغاءً ويهدمها هدمًا، وهي التي تعدّ الأساس والركن الركين الذي بنى عليه النحاة القاعدة النحوية[45].

ولعلّ الغاية التي كان ابن مضاء يريد الوصول إليها عندما دعا إلى إلغاء نظرية العامل والأقيسة هو التنويه بالحركة الإعرابية وما لها من دور وفضل في توجيه المعنى، وكلّ ما عدا ذلك فحَشْوٌ يمكن للقارئ والمتكلم أن يستغني عنه؛ لأنّ العلامة الإعرابية من عمل المتكلّم، وليست أثرا من آثار العوامل[46]؛ لذلك نجد ابن مضاء يقول في مفتتح الفصل الأول من كتابه: "قصدي في هذا الكتاب أن أحذف من النحو ما يستغني النحوي عنه، وأنبّه على ما أجمعوا على الخطأ فيه، فمن ذلك: ادعاؤهم أنّ النصب والخفض والجزم لا يكون إلا بعامل لفظي، وأنّ الرفع منها يكون بعامل لفظي وبعامل معنوي[47]، وعبّروا عن ذلك بعبارات تُوهم في قولنا (ضربَ زيدٌ عمراً) أنّ الرفع الذي في زيد والنصب الذي في عمرو إنما أحدثه ضرب، ألا ترى أنّ سيبويه قال في صدر كتابه[48]: وإنما ذكرت ثمانية مجارٍ[49]، لا فرق بين ما يدخله ضرب من هذه الأربعة لما يحدثه فيه العامل، وليس شيء منها إلا وهو يزول عنه[50]، وبين ما يبنى عليه الحرف بناء لا يزول عنه لغير شيء أحدث ذلك[51] فيه؟" فظاهر هذا أنّ العامل أحدث الإعراب، وذلك بيّن الفساد[52].

إذا فابن مضاء القرطبي سعى إلى بيان الأسباب التي عقّدت النّحو وجرت على إثقال كاهله، يحدوه في ذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لذا لا يتردد في انتقاد النحاة؛ لأنهم التزموا في صناعتهم – على حد تعبيره – "ما يلزمهم وتجاوزوا فيها القدر الكافي في ما أرادوه منها، فتوعّرت مسالكها ووهنت مبانيها، وانحطت عن الإقناع حجَجُها".[53]

ولم ير ابن مضاء في مساعيهم محاولة في النفاذ إلى أسرار ما يسمى اليوم بنظام اللغة، ولا حرصا على الفوز بمنهج تفسيريّ متكامل، ولكنه عدّ كل ما ليس قواعد بسيطة تكلّفا في علم هو – حسب عبارته – "من أوضح العلوم بُرهانا، وأرجح المعارف عند الامتحان ميزانا، ولم يشتمل إلا على يقين أو ما قاربه من الظنون"[54].

ويرى عبد العال سالم مكرم أنّ في دعوة ابن مضاء طرافة و تجديدا، أمّا طرافتها فهي أنها دعوة لم يألفها النحاة السابقون أو المعاصرون، وأما تجديدها فإنها أخذت على عاتقها هدم النحو القديم وبناء نحو جديد يقوم على أساسٍ جديد[55].

2 – 1: إلغاء نظرية العلل الثواني والثوالث:

ذهب ابن مضاء يطلب إلغاء العلل في النحو، ولكنه لم يتشبّث بإلغائها جملة، بل رأى أن فيها قدرا لا يمكن إلغاؤه، وهو العلل الأُوَل؛ لما لها من فائدة تعليمية[56]؛ وهو ما يتوضّح في قوله: "ومما يجب أن يسقط من النحو العلل الثواني والثوالث، وذلك مثل سؤال السائل عن (زيد) من قولنا: (قام زيد) لم رُفِعَ؟ فيُقال: لأنه فاعل، وكل فاعل مرفوع، فيقول: ولِمَ رُفِعَ الفاعل:؟ فالصواب أن يقال له: كذا نطقت به العرب"[57].

وذلك لأنّ العلل الثواني والثوالث لا تفيدنا في شيء **ولا يضرنا** جهلها في شيء، كذلك ولو أجبت السائل عن سؤاله (لِمَ رُفِعَ الفاعل؟) بأن تقول له للفرق بين الفاعل والمفعول، فلم يقنعه، وقال: فلم لم تعكس القضية بنصب الفاعل ورفع المفعول؟ قلنا

له: لأن الفاعل قليل والمفعولات كثيرة؛ فأعطي الأثقل؛ الذي هو الرفع للفاعل، وأُعطي الأخف؛ الذي هو النصب للمفعول؛ ليقلّ في كلامهم ما يستثقلون ويكثر في كلامهم ما يستخفون[58]، فلا يزيدنا ذلك علما بأن الفاعل مرفوع[59]، ثم يضيف ابن مضاء قائلا: وهذه العلل الثواني على ثلاثة أقسام: قسم مقطوع به، وقسم فيه إقناع، وقسم مقطوع بفساده، وهذه الأقسام موجودة في كتب النحويين، والفرق بين العلل الأُوَل والعلل الثواني والثوالث، أنّ العلل الأُول بمعرفتها تحصل لنا المعرفة بالنطق بكلام العرب، والعلل الثواني هي المستغنى عنها في ذلك[60].

فابن مضاء برأيه هذا خالف النحاة القدماء الذين كانت العلل عندهم على ثلاثة أضرب: علل تعليمية، وعلل قياسية، وعلل جدلية نظرية، وإنما قسّموا العلل ليولوا العلة التعليمية الاهتمام الأول[61].

لقد اختلفت دعوة نحاة الأندلس إلى ترك التعليل، فنجدها عمليّة عند بعضهم، ونظريّة عند بعض آخر، فابن مضاء مثلا والزبيدي وغيرهما كانت دعوتهم عملية؛ حيث حاولوا تطبيقها قولا وفعلا، فهم قد جانبوا التعليل والعلل الفلسفية والمنطقية، وهي دعوة نظرية عند السهيلي وابن الطراوة اللذين دعيا بصراحة إلى ترك التعليل، ومع ذلك فقد أخذا به، ورغم ذلك فلا أحد يستطيع أن ينكر الدور العظيم الذي قام به علماء الأندلس لتخليص النحو العربي من بعض علله، فالدعوة النظرية قد تؤتي أكلها بشكل واضح وبيّن، حتى ولو لم يفعل بها صاحبها، فكم من سامع أوعى ممن بلغه نصحه، فنصيحة العلماء الأندلسيين بترك التعليل لا يُمكن إغفالها أو الانتقاص من أثرها، وليس أدلّ على ذلك من هذا الصدى الذي أحدثته هذه الدعوة عند العلماء المحدثين فظهر من نادى بتطبيق رأي ابن مضاء[62] وإعادة تشكيل النحو من جديد[63].

3- الاستشهاد بالحديث النبوي الشريف:خالفت المدرسة النحوية الأندلسية غيرها من المدارس النحوية في قضية الاستشهاداللغوي، حيث أكثرت من الاستشهاد بالحديث وذلك راجع إلى عدة أسباب وهي:

- **التحديد الزمني للاستشهاد بكلام العرب:** فبعد أن تطوّرت الدراسات النحوية في الأندلس وبدأ نحاة هذا المصر يحاولون تكوين مدرسة خاصة بهم، كان لا بد أن يضعوا منهجا لهذه المدرسة، وبالتالي كان لا بدّ لهم أن يحدّدوا المادة اللغوية التي ينهلون منها، فأرادوا أن ينهلوا من العرب الأقحاح، فلم تتح لهم الفرصة؛ وذلك لكون فترة الاستشهاد بكلام العرب (شعرا ونثرا) قد حدّدت بنهاية القرن الثاني للهجرة بالنسبة للحضر، وبنهاية القرن الرابع بالنسبة للبدو[64]، وبذلك انقطع عن نحاة الأندلس منهج لا عوض لهم عنه في الاستشهاد، وهو كلام العرب[65].

- **عدم تمكنهم من مشافهة الأعراب:** وذلك نتيجة لتوقف الاستشهاد بكلام العرب وتحديده في فترة زمنية معينة، ولبُعد نحاة الأندلس عن مناطق الأعراب؛ الذين كان نحاة المشرق القدماء يأخذون عنهم اللغة.[66]

- **انتشار الحديث في الأندلس:** وذلك لكونه منبعا من منابع الثقافة للعالم الإسلامي، وبخاصة لأهل المغرب والأندلس، فقد كان أهل الأندلس يرتحلون إلى المدينة المنورة لزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم،وفي الوقت نفسه كانوا يأخذون العلم عن أهلها فمدرستا الحجاز في مكّة والمدينة من أكثر المصادر، و بخاصة فيما يتعلق بالحديث، وما ينبني عليه من فقه، وما يتّصل بذلك من أخبار وسير، وذلك طبيعي؛ لأن مكّة منشأ النبي صلى الله عليه وسلم، والمدينة مُهاجَرُه[67]، واقتصر أهل الأندلس على الأخذ عن أهل المدينة منذ أن كان شيخها الإمام **مالك بن**

أنس(ت179هـ)؛ الذي قلّدوه في مذهبه الفقهي، وبذلك كان الحديث واسع الانتشار في بلاد الأندلس[68].

- **انتشار المذهب المالكي في الأندلس:** حاول الموحّدون فرض مذهب أهل الظاهر في الأندلس، لكنّ كثيرين تمسّكوا بمذهب الإمام مالك، وكان هذا المذهب يعتمد اعتمادا كبيرا الحديث النبوي الشريف، حتّى لقّب بمذهب أهل الحديث .[69]

يتبين مما تقدّم أنّ الأندلسيين قد استحدثوا إلى جانب مذهب البصريين والكوفيين والبغداديين مذهبا رابعا في النحو ، وتمثلت دعامة هذا المذهب في الآراء النحوية التي أبداها علماؤهم في بعض المسائل كقضية إكثارهم من الاستشهاد بالحديث النبوي الشريف ونفورهم من التعليل، وكذلك اتجاههم إلى تيسير النحو وذلك بتأليف الكتب النحوية المختصرة وشرحهم لكتب النحو المشرقية .

قائمة المصادر والمراجع

1 - عبد القادررحيم الهيتي "خصائص مذهب الأندلس النحوي خلال القرن السابع الهجري" ، منشورات جامعة قار يونس،ط1993،2م ،ص36،37.

2- الطنطاوي، محمد: "نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة"، دار المعارف، مصر، (دط)، (دت) ص44،43.

3 - فادي صقر، أحمد عصيدة: "جهود نحاة الأندلس في تيسير النحو العربي"، إشراف وائل أبو صالح، أطروحة ماجستير في اللغة العربية وآدابها، 2006، جامعة النجاح الوطنية، كلية الدراسات العليا، نابلس، فلسطين. ص: 20.

4 - ركزت على القرن السابع؛ لأنه في هذا القرن عرف المذهب النحوي **الأندلسي** تطورا كبيرا واكتملت شخصيته وظهرت سماته.

5 - يقول ابن منظور(ت735هـ) : "فلم أقصد سوى حفظ هذه اللغة النبوية وحفظ فضلها؛ إذ عليها مدار أحكام العزيز والسنة النبوية، ولأن العالم بغوا مطها يعلم ما توافق فيه النية اللسان ويخالف فيه اللسان النية، وذلك لما رأيته قد غلب في هذا الأوان من اختلاف الألسنة والألوان، حتى لقد أصبح اللحن في الكلام يعد لحنا مردودا"."لسان العرب"، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، (1/ 08).

6 - يُنظر: فادي صقر أحمد عصيدة، "جهود نحاة الأندلس في تيسير النحو العربي"، ص: 36.

7 - ينظر: الزركلي، الأعلام،104/5،و ينظر: "، القفطي جمال الدين أبو الحسن (ت 624 هـ):"انباه الرواة على أنباه النحاة"، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا، بيروت، ط1، 1424 هـ، 2004 مـ. 378/2، وينظر: ، الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب

(ت 817 هـ): "البلغة في تاريخ أئمة اللغة"، اعتنى به بركات يوسف هبود، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط1، 1422 هـ، 2001 مـ. ص:136،

8 - الزركلي، الأعلام،104/5، ، وينظر: القفطي،"إنباه الرواة على أنباه النحاة"،379/2(الهامش) .

9 - السيوطي، "بغية الوعاة في طبقات اللغويين و النحاة" تحقيق: مصطفى عبد القاهر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1425 هـ/ 2004 مـ.، 239/2.

10 - عبد القادر رحيم الهيتي، "خصائص مذهب الأندلس النحوي "، ص: 216.

11 - عبد القادر رحيم الهيتي " المصدر نفسه "، ص: 213.

12 - عبد القادر رحيم الهيتي " المصدر نفسه "، ص:215.

13 - عبد القادر رحيم الهيتي، "خصائص مذهب الأندلس النحوي "، ص: 217.

14 - عبد القادر رحيم الهيتي، " المصدر نفسه "، ص: 217.

15 - يُنظر: فادي صقر أحمد عصيدة، "جهود نحاة الأندلس في تيسير النحو العربي"، ص: 78.

16 - يُنظر: فادي صقر أحمد عصيدة، "المصدر نفسه "، ص: 78 ـ 79 .

17 - فادي صقر أحمد عصيدة، "جهود نحاة الأندلس في تيسير النحو العربي "، ص: 79 .

18 - يُنظر: فادي صقر أحمد عصيدة، "المصدر نفسه"، ص: 79 ـ 80 .

19 - ينظر: " سيبويه، عمرو بن عثمان بن قنبر: "الكتاب"، علق عليه ووقع حواشيه وفهارسه: إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1420 هـ، 1999 مـ.، 1/ 23، والصفحات: 24 ـ 25ـ26ـ27ـ28 ـ 29 .

20 - فادي صقر أحمد عصيدة، "جهود نحاة الأندلس في تيسير النحو العربي"ص: 81.

21 - فادي صقر أحمد عصيدة، " المصدر نفسه "، ص: 81.

22 - الفيروزآبادي، "البلغة في تاريخ أئمة اللغة"، ص: 142 ـ 143 .

23 - القفطي، "انباه الرواة على أنباه النحاة"، 2 /233 ، مـ.

24 - السيوطي، "بغية الوعاة في طبقات اللغويين و النحاة "، 2/ 235.

25 - يُنظر: فادي صقر أحمد عصيدة، "جهود نحاة الأندلس في تيسير النحو العربي"، ص:82- 83.

26 - السيوطي، "بغية الوعاة في طبقات اللغويين و النحاة"، 201/2.

27 - السيوطي، " المصدر نفسه "، 2/ 239.

28 -الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب (ت 817 هـ): "البلغة في تاريخ أئمة اللغة"، اعتنى به بركات يوسف هبود، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط1، 1422 هـ، 2001 ص: 130.

29 - "بغية الوعاة في طبقات اللغويين و النحاة"، 1/ 331.

30 - ينظر: "البلغة في تاريخ أئمة اللغة"، ص: 43.

31 - عبد القادر رحيم الهيتي، "خصائص مذهب الأندلس النحوي "ص: 227 – 228.

32 - المقري، أحمد بن محمد التلمساني:"نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب"، تحقيق: يوسف الشيخ محمد البقاعي، إشراف: مكتب البحوث والدراسات في دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع. 1/ 413، والسيوطي،"بغية الوعاة في طبقات اللغويين و النحاة"، 1/ 28.

33 - السيوطي، "بغية الوعاة في طبقات اللغويين و النحاة" ، 2/ 353، والزركلي ،"الأعلام" 9/ 334.

34 - السيوطي "بغية الوعاة في طبقات اللغويين و النحاة "، 244/2.

35 ـ الفيروزآبادي، "البلغة في تاريخ أئمة اللغة"،ص: 46، و السيوطي،" بغية الوعاة في طبقات اللغويين و النحاة"،296/1.

36 - السيوطي ، "بغية الوعاة في طبقات اللغويين و النحاة"، 12/ 473.

37 - السيوطي، " بغية الوعاة في طبقات اللغويين و النحاة "، 2/ 217.

38 - السيوطي، " المصدر نفسه "، 2/ 125.

39 - فادي صقر أحمد عصيدة، "جهود نحاة الأندلس في تيسير النحو العربي"، ص: 108.

40 - مصطفاوي، عمار: "الجهود اللغوية في المغرب الأوسط من القرن السادس إلى القرن التاسع الهجريين"، رسالة دكتوراه في اللغة، جامعة تلمسان، أبو بكر بلقايد، 2007 مـ. ص: .58

41 - مصطفاوي عمار، "المصدر نفسه"،ص53.

42 - يُنظر: ابن مضاء القرطبي، "الرد على النحاة"، ، تحقيق: شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ط3،(دت)،ص8 ـ 9 .

43 - يُنظر: أحمد أمين، "ظهر الإسلام"، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان ، ط1428،2/ 2007، 3/ .73

44 - يُنظر: مصطفاوي عمار، "الجهود اللغوية في المغرب الأوسط من القرن السادس إلى القرن التاسع الهجريين"، ص: 54.

45 - يُنظر: بكري عبد الكريم، "ابن مضاء وموقفه من أصول النحو العربي"، رسالة تقدّم بها الطالب لنيل شهادة الدكتراة، جامعة وهران، 1982، ص: 125.

46 - ابن مضاء، "الرد على النحاة"، ص: 76- 77.

47 - يُشير ابن مضاء إلى رأي البصريين الذين يجعلون الفاعل مرفوعا بالفعل، والخبر مرفوعا بالمبتدأ، في حين يجعلون المبتدأ مرفوعا بالابتداء، يُنظر: الأنباري، الإنصاف في مسائل الخلاف، 56/1 ـ 82.

48 ـ ينظر: سيبويه، " الكتاب "، 1/ 41 .

49 - يريد سيبويه بالمجاري حركات أواخر الكلم، وقد اعترض عليه بأن الحركات تجري والمجاري يُجرى فيهن.

50 - يقصد سيبويه بالحركات الأربع التي يُحدثها العامل: النصب والرفع والجر والجزم.

51 - يقصد سيبويه هنا الحركات الأربع الأخرى الخاصة بالبناء، وهي: الفتح والكسر والضم والوقف أو السكون.

52 - ابن مضاء القرطبي، "الرد على النحاة"، ص: 77.

53 - يُنظر: عبد القادر المهيري، "نظرات في التراث اللغوي العربي"، دار الغرب الإسلامي، بـيروت، لبنان، د.ط، د.ت، ص: 138.

54 - عبد القادر المهيري، " المرجع نفسه "، ص: 138.

55 - عبد العال سالم مكرم، "القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحويـة" ، دار المعـارف، مصـر، (دط)، (دت).، ص: 170 – 180.

56 - بكري عبد الكريم، "ابن مضاء وموقفه من أصول النحو العربي"، ص: 71.

57 - ابن مضاء، "الرد على النحاة"،ص: 130.

58 - "ا ابـن جـني أبـو الفـتح عـثمان (ت 392 هــ): "الخصـائص"، تحقيـق: الشر-بيني شريـدة، دار الحديث، القاهرة، (د.ط)، 1428 هـ، 2007 مـ. ، 1/ 95.

59 - ابن مضاء، "الرد على النحاة" ،ص: 130 – 131.

60 - ابن مضاء، "الرد على النحاة"، ص: 131.

61 - بكري عبد الكريم، "ابن مضاء وموقفه من أصول النحو العربي"، ص: 72.

62 - يُنظر: فادي صقر أحمد عصيدة، "جهود نحاة الأندلس في تيسير النحو العربي"، ص: 142.

63 - ابن مضاء القرطبي، "الرد على النحاة"، ص: 46.

64 - عبد القادر الهيتي، "خصائص مذهب الأندلس النحوي"، ص: 176.

65 - عبد القادر الهيتي، "المصدر نفسه"، ص: 176.

66 - عبد القادر الهيتي، "المصدر نفسه"، ص: 177.

67 - يُنظر: أحمد أمين، "ضحى الإسلام " ، (1295 هـ / 1373 هــ)، دار الكتـاب العـربي، بـيروت، لبنان، ط10.(دت).، 2/ 75.

68 - يُنظر: عبد القادر رحيم الهيتي، "خصائص مذهب الأندلس النحوي"، ص: 177.

69 - يُنظر: المراكشي، عبد الواحد ، "المعجب في تلخيص أخبار المغرب"، ص: 231 – 232.

تيسير الدرس النحوي

أ.بوخاتمي زهراء.
ج. الجيلالي اليابس .
سيدي بلعباس.

تمهيد:

لا مراء في أن الدرس النحوي قد نشأ في ظروف واتت ذيوع اللحن، بغية علاجه، خشية على اللغة والقرآن،فالنحو "**علم الإعراب الذي يعصم الألسنة من الخطأ في الإستعمال**"[1] ،فقد ارتكز في مفهومه الأولي على البحث في أواخر الكلم ،يغدو هذا التعريف قاصرا لوجهين ،أما أولهما فمعني بتحديد النحو وتضييق بحثه،و ثانيهما باقتصار النحو على الطريق اللفظية[2].إلا أن عبد القاهر الجرجاني شق سبيلا آخر متوخيا المعنى من النحو،فقد"**رد الجرجاني للنحو اعتباره ،مؤكدا أنه ليس قيدا ،وأنه على العكس تحرير للمعنى** "[3]،إذ النظم عنده ليس سوى "**تعليق الكلم بعضها ببعض ،وجعل بعضها بسبب من بعض**"[4]،وبذلك فقد تجاوز أواخر الكلم وعلامات الإعراب ،وبين أن للكلام نظما وأن رعاية ذلك سبيل للإبانة والإفهام، يقول عبد العزيز حمودة في هذا الصدد :"**ثم يجيء دور النحو كسلطة ضبط وتحديد للمعنى من ناحية،ومؤسسا لشبكة العلاقات من ناحية أخرى**"[5]،فالنحو تركيب لفظي ومعنوي.

فقد اتسم النحو قديما باتجاهه إلى المبنى دون المعنى ،هذا الأخير المعتبر الأساس في الدراسات الحديثة ،كما اتهم المنهج النحوي التقليدي بالقصور مما يدفعنا للتساؤل، من أين تبدأ حداثة الدرس النحوي؟،لقد أفاد الدرس النحوي الحديث من المناهج اللغوية الحديثة ،انطلاقا من المنهج الوصفي ،المنهج البنوي إلى المنهج التحويلي، متأسسا على مرتكزات عديدة أهمها ،النقد ،التوجيه، التيسير والتجديد، فطرقت مسامعنا موسومات عدة ،بدأت معها تلك الحداثة من قبيل إحياء النحو لإبراهيم مصطفى ،تجديد النحو لشوقي ضيف ،النحو العربي نقد وتوجيه لمهدي المخزومي ،اللغة العربية معناها ومبناها لتمام حسان ،الدرس النحوي الحديث لعبده الراجحي.

أولا: رعاية المعنى

يشتغل النحاة الذين ينزعون إلى رعاية المعنى من أجل الحفاظ عليه في النحو العربي ،يقول تمام حسان:"**إن دراسة النحو ...كانت تعنى بمكونات التركيب أي بالأجزاء التحليلية فيه أكثر من عنايتها بالتركيب نفسه**"[6]فكل دراسة لغوية حسبه لابد وأن يكون موضوعها الأول والأخير هو المعنى .

ولعل زعم الدارسين أن عبد القاهر الجرجاني هو السباق إلى رعاية المعنى ، يرجح إلى ما فاتهم من إدراك سيبويه لهاته المسألة "**فقد أدرك تنظيم الكلمات في المعنى الذي هو قوام النحو، وقد شرح أحيانا مواضع استعمال صور منه** "[7]، من ذلك ما وسمه بباب الإستقامة من الكلام والإحالة ،فسيبويه قد فتح باب علم المعاني فتحا واسعا [8]، فقد ثقف عبد الجليل مرتاض متوازيات بين النحو السيبوي والدرس الحديث، فإثر تحليله لنص سيبويه "**ألا ترى أن قوله:قد ذهب بمنزلة قولك قد كان**

منه الذهاب "يوحي إلى أن سيبويه قد تعامل مع الجملة العربية في ضوء بنيتيها السطحية والعميقة[9].:

ثم جاء بعده الجرجاني ،يقول تامر سلوم "**ورحنا نبحث عن كل ما يعطي صورة كاملة لمدلول النظم ،وجدنا عبد القاهر يحاول أن يثبت في الجوانب الأولى من الدلائل أن العمق الأدبي لا يكون إلا في المعاني** "[10]، وتلك وجهة نظر أخرى لرعاية المعنى.

ثانيا: أصول نقد النحو

ما إن شغل المعنى بال النحاة المحدثين ،انبروا يبحثون ويزاوجون النحو العربي القديم بالدراسات الألسنية الحديثة ،يقول مصطفى ناصف:"**أما وصف هذا المنهج نفسه أو تفسيره ،وبعبارة أخرى تصور الباحثين المتقدمين لمسأة المعنى ،فقد أهمل _فيما أعرف _إهمالا لا يمكن الدفاع عنه بسهولة،ونتج عن ذلك أن صلتنا العاطفية بجانب كبير من التراث تعرضت لما يشبه التفكك** "[11]فالمعنى أول مطلب يرومونه.ولعلهم قد اتهموا المنهج القديم بالقصور لمعياريته ،فقد اتسم النحو القديم بالتعليمي لا بالعلمي ،وذلك تبعا للغاية التي أسس من أجلها ،قائما على مبادئ المنهج المعياري تحت شعار "قل ولا تقل"،يقول ابن مالك:***"فما أبيح افعل ودع ما لم يبح"***[12]

فإباحة تلك وعدمها إنما تتصل بقواعد المعيارية ،والتي ترأست مناهج اللسانيات التاريخية فقد كرست" **جهودها لتشييد صرح شامل من القواعد النموذجية** "[13]،كما أن النحو في المنظور القديم ذو صعوبة على الناشئة ،مما يشكل انزعاجا للطلبة ،إذ ينبغي تلقينهم الأصول ومن ثم هديهم إلى دراسة الفروع .

نظرية العامل أصل في نقد النحو :

ترسخ المنهج الاستنباطي الذي قام عليه نحو القدامى على ركن رئيس ،بنى عليه النحاة القاعدة النحويـة ،ألا وهو نظرية العامل ،هذه النظرية التي حملت العلة فكانت إحدى مسائلها الكبرى :

"النحو كله عمل /ولكل عمل عامل ولكل عمل اثر

وأثر العامل يتجسد في الحركة الإعرابية عند نهاية الوحدة اللغوية

لكل عامل معمول /لكل معمول عامل /العمل لفظي ومعنوي"[14]،

فنظرية العامل بهذا المعنى ،اقتران بين عنصرين ،أولهما العامل وثانيهما المعمول، وأما من حيث وظيفتيهما ،فالعامل "**طلب تقيد الثاني المعمول ،بالحكم الإعرابي الذي يناسب موقعه ، ووظيفة الثاني التدليل على طلب الأول –العامل-لعلامة إعرابية تصلح أمارة على الحكم الإعرابي** "[15]، تفسر العلامة الإعرابية اقتضاء العامل لها،لاقت هذه النظرية الرفض على أيدي المجددين يقول ابن مضاء القرطبي في كتابه الرد على النحاة :"**قصدي في هذا الكتاب أن أحذف من النحو ما يستغني النحوي عنه، وأنبـه إلى ما اجمعوا على الخطأ فيه"**[16]،ففيه مهاجمة لنظرية العامل التي عقدت النحو وأكثرت فيه من التقديرات والمباحث .

فقد ادعى النحاة أن النصب والخفض والجزم لا يكون إلاّ بعامل لفظي ،وأن الرفع منها ما يكون بعامل لفظي وبعامل معنوي:غير أن العمل في حقيقة الأمر يرجأ إلى المتكلم ،على حد قول ابن جني :"**وأما في الحقيقة ،فالعمل من الرفع والنصب والجر والجزم ، إنما هو للمتكلم نفسه ،لا لشيء غيره"**[17]،إن إجماع النحاة على القول بالعامل ليس بحجة على من خالفهم، فها هو ابن جني، من أكبر حذاقهم يرجع العامل

للمتكلم ،لا للألفاظ ذاتها لفظا كان أو بالتقدير معنويا ،على نحو المحتذى من حذف العوامل .

ومن باب العوامل اللفظية ،يشير ابن مضاء إلى أن العمل لا يكون بعد العدم ، ففي قولك (إن زيدا)فلا ينصب زيد بعد إن بعد عدمها ،يرى أنه "**لو كانت (أن)هي التي تعمل النصب في الاسم لكان ذلك محالا ،لأنك إذا قلت :إن زيدا قائم ،فإنك تنطق أولا كلمة إن ،وما دمت قد نطقتها أولا ،فقد انتهت ومضت ،أي دخلت في العدم ،فكيف يعمل المعدوم في الموجود** "[18]،كما أنه يعترض على تقدير العوامل المحذوفة في نحو قوله تعالى:"**ماذا أنزل ربكم قالوا :خيرا** "النحل ،30، فقد حذف الفعل لعلم المخاطب به.

كما يذكر الاشتغال [19]،حتى يثبت رأيه في إلغاء نظرية العامل ،ولكي يوضح فسادها ،وأنها دفعت النحاة في بعض الأحيان إلى رفض بعض أساليب العرب ،ووضع أساليب مكانها لا يعرفها العرب الجاهليون والإسلاميون ،درس باب التنازع دراسة مفصلة [20]،فقد ثار على أبواب الاشتغال ودعا إلى حذفها من أبواب النحو.

ثالثا: تجديد النحو

كهرب تيار التجديد حقولا لغوية عدة بمناهجها ومسائلها بما فيها الحقل النحوي ،تبعا لأسباب قمينة بإعمال الفكر فيها ،لقول ناصف:"**وقد اكتفى الدارسون المحدثون بترديد بعض القضايا من بينها أن النحو العربي عامة يدرس اللغة على أساس منهج غير سليم** "[21]،فجاء المنهج الوصفي بدلا من المنهج المعياري الذي كان له دور الريادة في تأسيس النحو العربي ،لكن دراسة النحو العربي في ظل المناهج الغربية الحديثة لا يمت بصلة مسايرة لخصائص اللغة العربية ،يقول مصطفى

حركات "**إن تجديد تعليم النحو في العربية لا يستطيع أن يكون مسايرا كل المسايرة لما يجـري في اللغـات الغربية ،وذلك لإنفراد لغتنا ببعض الخصائص التي لها أثر عميق على مستوى التعليم** "[22].

رابعا :مشروع التيسير

لا تنحصر هذه الظاهرة في بيئة زمانية معينة ،بل كانت متداولة على ألسنة النحاة وأعلام اللغـة فيما مضى ،إثـر الانتقادات التي تشكل حملا غير ضئيل في تراثنا العربي ومن ذلك توالي كتب الشروح والتذييل والحواشي والتهذيب .

فقد كان مشروع التيسـير من أجل تبسيط النحو التعليمي ،من ذلك كتاب **(تيسيـر النحـو التعليمـي قديمـا وحديثا مع منهج تجديده) لشوقي ضيف** ،فلو أن النحو عرض على طلابه في صورة الأصول دون المسائل ،لكان هينا ،ولما التبس على المبتدئ الأصل من الفرع ،وقد كانت الإشارة إلى ذلك قديما تبعا لقول ابن خلدون "**اعلم أن تلقيـن العلوم للمتعلمين انما يكون مفيدا إذا كان على التدرج شيئا فشيئا ، وقليلا ،ويلقي عليه أولا مسائل من كل باب فـي أصول ذلك الباب ، ويقرب في شرحها على سبيل الإجمال ،ويراعي في ذلك قوة عقله** "[23]فالتيسير سبيل إلى الإفادة والإفهام ،كما لا يعد اختصارا ولا حذفا للشروح والتعليقات ،ولكنه عرض جديد لموضوعات النحـو ،تيسر للناشئين استيعابها ،فهو بذلك إصلاح لحال الدرس النحوي بأصوله ومسائله[24].

خامسا :جديد في أقسام الجمل

أمسى التركيب في النحو العربي ،يدرس على شقين متقارنين بفعل الدراسات اللغوية الحديثة ،المستوى السطحـي الدال والمستوى العميق ،وذلك حتى يتسنى لنـا

الفهم الصحيح لمختلف الأبنية التركيبية للغة العربية ،فقد أدرك المحدثون **"أن التركيب اللغوي يخضع إلى نظام وقواعد معينة ، كالذكر والإظهار ،والوصل والربط ،إلى جانب الرتبة والعامل ،وبفقد عنصر من هذه العناصر ،ينحرف التركيب عن مبادئه و يضيع معناه "**[25]ومن هذا المنطلق اتخذت الجملة العربية أشكالا في التقسيم، جمل بسيطة وأخرى مركبة .

إن حديث ابن هشام عن الجملة الصغرى والكبرى يومئ إلى تقسيم الجمل إلى بسيطة ومركبة ،كما أن الجملة قد تكون صغرى أو كبرى لاعتبارين ،في نحو قولك "**زيد أبوه غلامه منطلق** "فمجموع هذا الكلام جملة كبرى لا غير ، و"**غلامه منطلق**" صغرى لأنها خبر ،و"**أبوه غلامه منطلق**"كبرى باعتبار "**غلامه منطلق**"[26]ومن ثم ،يجعل ابن هشام "**أبوه غلامه منطلق** "جملة كبرى وصغرى.

➢ **الجملة الاسمية :**

وهي التي يكون المسند فيها إسما أو ضميرا ، كما أنها تنقسم إلى :

1- **الجملة الاسمية الأساسية** :وهي الجملة البسيطة القائمة على ركني الإسناد وحدهما ،دون عناصر إضافية تكون قيدا على الإسناد ،و إنما تتشكل وفقا لثلاثة أنماط:

***اسم+اسم:زيد رجل.**

***اسم +وصف:زيد قائم.**

***اسم +جار ومجرور أو ظرف:زيد في البيت ،زيد أمام البيت.**

1/الأصل في المبتدأ أن يكون معرفة،أو ما يقاربها من النكرات،يقول ابن هشام : "**الأصل في المبتدأ أن يكون معرفة لا نكرة ،لأن النكرة مجهولة غالبا ،والحكم على المجهول لا يفيد** "[27]أما الخبر فيرد معرفة ونكرة ،والأصل أن يكون نكرة .

2/المسند إليه سابق في الترتيب على المسند، فالابتداء لا يكون إلاّ بمبني عليه ،فالمبتدأ الأول ، والمبني ما بعده عليه ،إلاّ أن الخبر قد يتقدم على المبتدأ جوازا أو وجوبا .

فالأول نحو "**في الدار زيد** "،وقوله تعالى :"**سلام هي** " (سورة القدر ،الآية5) ،وقوله تعالى:"وآية لهم الليل) (سورة يس،الآية 37) ،وأما الثاني نحو قولك "**في الدار رجل** "،"**أين زيد؟**"،وقولهم "**على الثمرة مثلها زبدا**" .

ويقطع عبد القاهر الجرجاني الأمر في هذه المسألة بأن المقدم مبتدأ،إذ يقول:"**واعلم أن تقديم الشيء على وجهين ،تقديم يقال أنه على نية التأخير.... وتقديم لا على نية التأخير،ولكن على أن تنقل الشيء عن حكم إلى حكم تجعله بابا غير بابه ،وإعرابا غير إعرابه ،وذلك أن تجيء إلى اسمين ،يحتمل كل واحد منهما أن يكون مبتدأ ويكون الآخر خبرا له ،فتقدم تارة هذا على ذاك ، وتارة أخرى ذاك على هذا ...**"[28].

كما وجب تقديم الخبر ،في حال كونه استفهام ،أو بغية رفع الإبهام كونه نعتا للمبتدأ،لأن المبتدأ لما تأخر ،وقع موقع الخبر ،وأصل الخبر أن يكون نكرة ،نحو قول ابن مالك :

وَنَحْوَ عِنْدِي دِرْهَمٌ وَلِي وَطَر   مُلْتَزَمٌ فِيهِ تَقَدُمَ الخَبَر[29]

فالرتبة إذن ولكونها قرينة لفظية تخضع لمطالب أمن اللبس.

وفي حال المسند جارا أو مجرورا ، أو ظرفا ، تلتزم الجملة المثبتة صورة واحدة فيها بتقديم المسند ، نحو قول الشاعر :

إِنَّ غِنَاءَ الْإِبِلِ الحُذَاءُ   فَغَنِّها وَهِي لَكَ الْفِدَاءُ 30

2/الجملة الاسمية الناقصة :والتي حذف منها أحد ركني الإسناد ، وإنما يجوز الحذف حين يكون في السياق ما يدل على المحذوف حالا أو مقالا ،نحو قوله تعالى "سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُون " (سورة الداريات ، الآية 25)،وقوله تعالى "أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا " (سورة الرعد،الآية 35)،وهذا وجه من وجوه التفريق بين المبتدأ والفاعل،أن المبتدأ قد يحذف ولا يجوز حذف الفاعل فالمبتدأ لا يذكر في الجملة فيقولون هو محذوف ،والفاعل لا يذكر فيقولون هو مستتر ، كقولنا كيف زيد؟دَنِفٌ،فالمبتدأ محذوف ،وإن أجيب بـ:دَنِفَ، جعلوا الفاعل مستترا .

كما يستعمل النحويون التعليق في المجرورات أو الظرف ،إلا أن ابن مضاء ينسف هذا الرأي ،ليجعل كلا منهما خبرا بذاته ،لا متعلق له نحو زيد في الدار ،فيعلق النحويون الجار والمجرور بمحذوف تقدير استقر ،مستقر أو كائن ،إلا أن ابن مضاء يجعله خبرا لا متعلق له ،وهناك عناصر إضافية مكملة قد توسع الجملة ،أو قد تؤثر في مضمونها من ذلك التوكيد ،إذ تستعمل له أدوات منها :أن ،لام الابتداء ، والحروف الزائدة :الباء وأن ومن في سياق النفي وفي سياق الاستفهام وكلاهما تضيف معنى التوكيد وتغير إلا لام الابتداء وإن الزائدة ، وفي باب الفعل يذكرون نوني التوكيد أحكامهما لأثرهما في إعرابه .

ومن مسائل الاختلاف جواز التوكيد معنويا ،فقد ذهب الكوفيون إلى أن توكيد النكرة بغير لفضها جائز إذا كانت مؤقتة وذهب البصريون إلى أن تأكيد النكرة بغير لفظها غير جائز على الإطلاق[31].

مما احتج به الكوفيون قول الشاعر :

لَكِنْ شَاقَّهُ أَنْ قِيلَ ذَا رَجَب   يَا لَيْتَ عِدَّةَ حَوْلٍ كُلِّهِ رَجب.

قدح ابن الأنباري ذلك مبينـا الرواية الصحيحة قول الشاعر :**يا ليت عـدة حولي كلّه رجب** بالإضافة وهو معرفة لا نكرة، فهو ينصف البصريين في هذه المسألة.

➢ **الجملة الفعلية :**

وهي الجملة التي يتصدرها الفعل ،يقول **سيبويه (180هـ):"وهذا باب المسند والمسند إليه ،وهما ما لا يغنى واحد منهما عن الآخر ،ولا يجد المتكلم منه بدا ،فمن ذلك الاسم المبتدأ والمبني عليه ، وهو قولك :عبد الله أخوك ،ومثل ذلك يذهب عبد الله فلا بد للفعل من اسم ،كما لم يكن لاسم بد من الآخر في الابتداء"**[32].

فالفاعل عنصر إجباري لا يمكن الإستغناء عنه ،والمفعول به مكمل إجباري مع الأفعال المتعدية ،ومن الأفعال ما يتعدى إلى مفعولين ومنها ما يتعدى إلى ثلاث ، كما يتعدى الفعل بحرف جر ، كقولك مررت بزيد.

كما أن الأفعال نوعان تامة وناقصة ،فالأولى منهما تقوم بدور المسند في الجملة ،أما الأخرى فليست ركنـا فـي الإسناد بدلالة جواز حذفهما دونما أي تغيير في البنية النحوية .ويقرّ النحاة بوجوب تأخر الفاعل عن الفعل ،من ذلك قولك (**ظهر الحق**)، فإذا قدمت المسند إليه تقول(**الحق ظهر**) ،يمتنع البصريون عن تقدم لفظ

الحق وهو فاعل ،كما لا يجوز حذف الفاعل ،وإن حذف قام مقامه نائب الفاعل لقول ابن أجروم:

أَقِمْ مَقَامَ الْفَاعِلِ الَّذِي حُذِفْ مَفْعُولَهُ فِي كُلِّ مَا لَهُ عُرِفْ[33]

وقد يرد الفاعل ظاهرا أو مضمرا، لقول ابن مالك:

وَبَعْدَ فِعْلٍ فَاعِلٌ ،فَإِنْ ظَهَرَ فَهُوَ ، وَإِلاَّ فَضَمِيرٌ اسْتَتَرْ[34]

أما من حيث المطابقة فتلزم حالة التأخر أي ينبغي إذا تقدم المسند وجب أن يكون في المسند إليه إشارة تطابقه في العدد ، وإذا تأخر كان المسند مفردا في كل حال، ومن حيث النوع فالمطابقة هي الأصل نقول (**أشرقت الشمس**) ،وإذا قدمنا المسند إليه قلنا(**الشمس أشرقت**).

يرد المفعول به متأخرا عن الفعل والفاعل أو نائبه ويجوز تقدمه عن الفاعل كقولك (**ضرب زيدا عمرو**) ،وهناك وجه آخر وهو تقدم المفعول به عن الفعل وفاعله نحو قول ابن مالك :

وَرَفْعَ مَعْطُوفٍ بِلَكِنْ أَوْ بِبَلْ مِنْ بَعْدِ مَنْصُوبٍ بِمَا إِلْزَمْ حَيْثُ حَلّ [35]

وقد أفتى في ذلك كثير من النحاة فيما أسموه بباب الاشتغال فأجازوا قولك (**زيدا رأيته**)،في حين يلزم صورة إعرابية أخرى (**زيد رأيته**) فإذا كان المراد الإخبار عن الرؤية فزيد مفعول به مقدم .كما يجوز الحذف على وجه الاختصار و الاقتصار .

➢ التركيب المفرد :

يصاغ من جملتين بسيطتين وبطريقتين مختلفتين ،إما أن توضع جملتان بينهما علاقة دلالية وثيقة متجاورتين مرتبطتين برابط لفظي أو غير مرتبطتين، و إما أن تدمج إحدى الجملتين في الأخرى أو تدخل فيها أو تتفرع عنها، أما من حيث الربط، إذا كان برابط سميت الجملة الأولى "جملة أصلية " والثانية تسمى"بالجملة المرتبطة "إذ تكون هذه الأخيرة مسبوقة بالروابط اللفظية :الواو المفردة ،أو متلوة بلا أولو مسبوقة بالواو ،الفاء، ثم وحتى أم المنقطعة والتي قد تكون مركبة مع أدوات الاستفهام والاستدراك والنفي والنهي والامتناع ،وإذا كان دون رابط فيقابل التركيب فيما وسمه النحاة بالجملة الاعتراضية والتفسيرية والأمر وجوابه .

أما من حيث التفريع فمنه ما لا يحل محل المفرد متفرعا برابط ،نحو الجملة الشرطية والجملة الظرفية غير المتضمنة معنى الشرط ،ومنه ما يحل محل المفرد،إما بالتفريع بالربط كجملة المصدر المؤول ،الجملة الحالية ،الجملة الموصولة والجملة المضاف إليها ،أو التفريع دون رابط حرفي كجملة النعت ،جملة الحال دون واو ،جملة المفعول به.

➢ التركيب المتعدد:

يعد النوع الثاني للجملة المركبة إذ يصاغ من أكثر من جملتين، قد يكون التعدد بتكرار الربط أو تكرار التفريع أو بتكرارهما معا، ولكل جملة درجة معينة من حيث التفريع.

فمن حيث تعدد الربط ،**قوله تعالى "وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ، ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ،ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً**

فَخَلَقْـنَا الْمُضْغَةَ عِظامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَـحْمًا ثُـمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ " (سورة المؤمنون ، الآيتان 12-14).

وأما من حيث التفريع **قوله تعالى:"ظَهَرَ الْفَسَادُ فِـي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَـا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ "**

وفي المزاوجة بينهما **قوله تعالى :"هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِـي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهُمْ بِرِيحٍ طَيِّبَة وَفَرِحُوا بِـهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِف وَجَـاءَهُم الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهُمْ دَعَوْا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينُ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَـنَّ مِـنَ الشَّاكِرِينَ " (سورة يونس ،الآيتان 22-23).**

سادسا:جديد في أقسام الكلم

بحث النحـاة القدماء النظام الصرفي للغة العربيـة أثناء نظرهم في أقسام الكلم، فكـان مقتصرا على المعنـى عند بعضهم ،وعلى المبنى عند البعض ،ولأن التفريق على أساس المبنى وحده ،أو المعنى وحده ليس بالطريقة المثلى التي يستعان بها للتمييز بين أقسام الكلم ، نهج النحاة طريقا آخر في التقسيم قائما على بعدين أحدهما رأسي والآخر أفقي ،أما البعد الرأسي فيعنى بمباني التقسيم من حيث الاسم ،الصفة ، الفعل ،الضمير،الخالفة ،الظرف والأداة ،والبعـد الأفقي يعنى بمباني التصريف :المثنى ، المجموع ، المذكر، المؤنث، المعرف والمنكر .

شكل 1[361]:جدول يمثل "الإسم دراسة من حيث المبنى والمعنى"

1	الاسم
الصورة الإعرابية	تقبل الأسماء الجر لفظا ولا تشاركها فـي ذلك إلاّ الصفات.
الصيغة	انتهى عبد القاهر الجرجاني إلى أن أقسام الصيغة قي الاسم ثلاثة : الثلاثي :فَعُل، فَعَل، فعْل،... الرباعي :على خمسة فَعْلَلَ،فَعْلُلٌ،فَعْ ِلل،فِعْلَل،فِعَلّ. الخماسي:على أربعة :فَعَلَّل،فُعَلَّل،فِعَلَّل،فعللل.
الجدول	تختص الأسماء بالدخول في الجدول الإلصاقي ،عدا المصادر والميمات التي تقبل الجدول التصريفي .
الالصاق	تقبل الأسماء اللواصق واللواحق الآتية :الألف واللام ،التنوين ،الضمائر ،علامتي التثنية والجمع،تاء التأنيث والنسبة .
التضام	تتضام الأسماء مع أدوات النداء ،واو المعية ،إلاّ،واو القسم ، كما تقع مضافا ،وتحتاج المبهمات منها إلى ضميمية الإضافة أو التمييز أو الوصف.
المعنى	الاسم دال على نفسه إذ يحد أو يعرف عن طريق المعجم.
الحدث	تدل المصادر على الأحداث ،إذ إن صلتها به صلة الاسم بالمسمى .

الزمن	ليس الزمن جزءً من السماء ،إلاّ المصادر والتي تتضمن معناه بحسب قرائن السياق وعلاقاته.
التعليق	تقع الأسماء مسندا إليه ''مبتدأ، فاعل ،نائب فاعل''ما عدا المصادر ، فإنها تقع موقع المسند ،إذ تأتي بمنزلة الفعل ،فتقوم بوظيفته كونها تتشرب معنى الزمن . كما تعبر عن علاقات نحوية أخرى كالتعدية ، المعية ،التفسير ،الإخراج،،المخافة ،النسبة ،التبعية .

شكل2: [37] جدول يبين" الصفة من حيث المعنى والمبنى "

2	الصفة
الصورة الإعرابية	الصفات كالأسماء أصلها الإعراب ، كما لا يمكن تعريتها من التنوين المختص بالاسم ،فهي تأبى ما يأباه الاسم من الجزم والإسكان في غير الوقف.
الصيغة	أهم ما يميز الصفات عن الأسماء مادتها الاشتقاقية ،إذ تمتد إلى صيغ فعلية ووصفية أخرى .
الجدول	*تقبل التنوين وأل وغيرها من اللواصق ، كما تمتد مادتها الاشتقاقية إلى صيغ المضارع والأمر والمصدر ،وصفة المفعول والمبالغة ،فهي تقبل الدخول في الجدول الإلصاقي والجدول التصريفي .

الإلصاق	*تقبل "أل"بمنزلة الضمير الموصول "الذي ". *والتنوين يكون لتخصيص الصفة للدخول في علاقات سياقية كالإسنادية والتعددية. *الإضافة إلى ضمائر الجر في الصفات لا تكون إلا لفظية ،لأنها تكون من قبيل إضافة الصفات إلى معمولها ،ومن ثم لا يصح أن تكون الإضافة حقيقية ولا سبيل إليها بوجه . *ياء النسبة تأتي لتأكيد الصفة .
التضام	تتضام الصفات مع أدوات النداء ، كما تقع مسندا إليه ومن ثم تقبل التنوين والإضافة ،وتشارك الأفعال في وقوعها مسندا،فلا تعمل إلاّ إذا كانت نكرة بمعنى الحال والاستقبال .
المعنى	تدل على موصوف ،بما تحمله من معنى الحدث ،فيتم وصفه بالاستمرار والانقطاع بالنسبة للفاعل والمفعول في صفتهما،و وصفه على سبيل الدوام والثبوت بالنسبة للصفة المشبهة ،الوصف عن طريق المبالغة لصفة المبالغة وعن طريق التفضيل لصفة التفضيل .
الحدث	تدل على الموصوف بالحدث إما على سبيل الانقطاع ،التجدد،الدوام ، الثبوت،المبالغة ،التفضيل.
الزمن	تكون الصفات كالزمان على ثلاثة أضرب :*الماضي*الحال

	*الاستقبال.
التعليق	تعمل الصفات عمل الفعل كما أنها تحتمل الضمير ،إضافة إلى ذلك فهي تتضام مع مفعولها ،تأتي صفة ،خبرا ،حالا ،فاعلا أو نائب فاعل.

شكل 3: [38]جدول يوضح الفعل :معناه ومبناه.

3	الفعل
الصورة الإعرابية	الأصل في الأفعال البناء ،إلاّ أن صيغة (يفعل)تدخل في الإعراب لمشابهتها الاسم.
الصيغة	له صيغ خاصة تتشكل في الماضي نحو فَعَلَ،فَعُلَ،فَعِلَ،وتصرف مع المضارع على الشكل يَفْعُلُ،يَفْعِلُ و يَفْعَلُ على الترتيب،هناك أفاعل ثلاثية معتلة ،أفعال زيد فيها على الثلاثي نحو :أفعل ،فعّل ، أفعال، انفعل ،افتعل .
الجدول	يدخل الفعل في الجداول الثلاثة : -الإلصاقي :يقبل لواصق أهمها :تاء الفاعل،تاء التأنيث ،أحرف المضارعة ،الضمائر المتصلة ،السين ،لام الأمر . -التصريفي :إذ يمكن التعرف على الصيغ الأخرى التي تمتد إليها مادة

	الفعل الاشتقاقية ،نحو صفة الفاعل ،المفعول ،...
التضام	يتضام الفعل مع حروف الجزم كلم ولما ،لا الناهية ،إن ولو في الشرط والجزاء ،وكذا باب أن ولن ، كي ،إذن ،قد ،والسين وسوف ، كما تتضام الأفعال مع مفاعيلها .
المعنى	يثبت الفعل معنى في الزمان ،فهو يقرن حدثا بزمن معين.
الحدث	الحدث جزء من الفعل فدلالة الفعل على الحدث دلالة تضمنية .
الزمن	يدل الفعل على الزمن ،إذ يأتي هذا الأخير على المستوى الصرفي في شكل صيغة ،أو المستوى النحوي من علاقات السياق وقرائنه.
التعليق	يقع موقع المسند.

شكل 4/ [39]جدول يمثل "الضمير من حيث المعنى والمبنى"

4	الضمير (ضمائر الشخص،ضمائر الإشارة،ضمائر الموصول)
الصورة الإعرابية	الضمائر مبنية لا تظهر عليها الحركات ،وإنما ننسبها على محلها الإعرابي .
الصيغة	لا تنتهي الضمائر إلى أصل اشتقاقي فهي مبنية .
الجدول	تلتصق الضمائر المتصلة بالكلمات ، كما تلصق بالضمائر ، كل من هاء التنبيه ولام البعد هذا وذلك ، كاف الخطاب نحو أولئك

	وذلك،التاء) كما في أنت وحروف الإشباع نحو بهما وعليهما . وقد يقع ضمير الشخص حشوا في اسم الإشارة ،فتتصل به هاء التنبيه نحو ها أنذا ،هاهم أولاء.
التضام	تضام الضمائر الأدوات في حالة النداء ،القسم ،النسخ والاستفهام،التوكيد وما إلى ذلك ، كما تضام حروف الجر ،العطف والاستثناء ، كما تكون الضمائر مضافا إليه ،فتضام المضاف.
المعنى	لها دلالة وظيفية على مطلق غائب أو حاضر ،و إن دلّت على مسمى فلن يكون ذلك إلاّ معونة للاسم .
التعليق	تلعب دورا هاما في علاقة الربط من ذلك تماسك أطراف الجملة .

شكل 5/ 40:جدول يبين الخالفة مبنى ومعنى

5	الخالفة (أفعال المدح والذم،صيغة التعجب وأسماء الأفعال وأسماء الأصوات)
الصورة والجدول	تنفرد الخوالف في بناء تشكيلها بصيغ خاصة ، كما أنها لا تدخل في الجدولين التصريفي والإسنادي .
الإلصاق	تقبل نعم وبئس تاء التأنيث الساكنة نحو (نعمت) كما تقبل صيغ التعجب ضمائر الجر المتصلة نحو (أفعل به)،وضمائر النصب

	المتصلة في (ما أفعله) ،وتقبل حروف الخطاب فنحو رو يدك ،ونون الوقاية نحو (قطني) أي (حبسي).
التضام	تحتاج خالفة المدح والذم إلى تضام الفاعل الذي يغرق الجنس نحو نعم الرجل زيد ، كما تحتاج خالفة التعجب إلى (ما)في صيغة ما أفعله والباء في (أفعل به) محتفظتين برتبتيهما ، كما تتضام خالفة الإخالة مع مفعولها ،ولا يجوز تقدمه عليها بحال ،فلا تقول عمرا دونك.
المعنى	تفيد الخوالف التعبير عن موقف ذاتي أو الإفصاح عن اتجاه انفعالي.
الزمن	تدل الخوالف على الزمن الماضي حسب تمام حسان ،إلاّ أن عبد الله بوخلخال يفند ذلك إذ تنشئ المدح والذم في الزمن الحاضر ،و إذا كان الإنشاء عاما لم تقيد بالزمن الحاضر و إنما تخضع للسياق اللغوي ،أما التعجب فما اقتصر على الحال أو الماضي المستمر حتى الحال ،وقد يدل على الماضي إذا دخلت التركيب (كان)وعلى المستقبل اقتصارا على القرآن الكريم [41].
التعليق	تقع الخوالف موقع المسند ، فترفع الاسم الظاهر وضميره ،أو تنصب المفعول به بواسطة همزة التعدي (ما أفعله)، كما تقع جملتها في محل رفع خبر مبتدأ.

شكل 6 [42]:جدول يوضح "قسم الظرف معنى ومبنى"

6	الظرف:-الزمان:إذ،إذا،متى ،لما ،أيان -المكان :أين ،أنى ،حيث
الصورة الإعرابية	الظروف مبنية.
الصيغة	الظروف كلها من غير المشتقات.
التضام	تتضام مع الحروف نحو (منذ متى)،(من أين)،(إلى أين)، كما أنها تتضام مع المفرد والجملة كما في (أيان)،(متى)،(أين)،(أنّى)ومع الجمل كما في (إذا)،(إذ) و(لما).
المعنى	لا تسمي الظروف شيئا معينا ،و إنما تتبنى معنى وظيفيا قريب الشبه من معنى الأدوات فتؤدي وظيفة الكناية عن الزمان أوالمكان
التعليق	تتموضع الظروف في السياق موضع المفعول فيه ، كما تتعلق بالفعل، فتقيّده تقييد إسناده بجهة معينة من جهات فهمه.

شكل 7 [43]:جدول يوضح "الأدوات من حيث المعنى ولا مبنى "

7	الأدوات (التعجب،الندبة والاستغاثة ،القسم ،الشرط ،/لو ولولا، النداء، الترجي، التمني، التحضيض، العرض، النهي ،لام الأمر ، التشبيه، الإستفهام، التأكيد ،النفي.)
الصورة الإعرابية	الأدوات مبنية كالضمائر ،إلا أنها تختلف عنها في كونها :لا يعلل لبنائها ،لا يكون فيها شيء من التصرف أو الإعراب التقديري، كما أن الأصل في بنائها السكون ،إلاّ أنها تبنى على الحركة ،إمّا للابتدء بالساكن نحو الأدوات على حرف واحد أو لالتقاء الساكنين نحو :إن ،سوف،ثم،...
الصيغة	الأدوات جامدة لا تصرف فيها ،إذ أنها لا تدخل في علاقات جدولية ،إلاّ مع النواسخ التي تدخل الجدول الإسنادي فتلحقها ضمائر الرفع المتصلة ولا تقبل الدخول في الجدول التصريفي .
التضام	لا تستعمل بنفسها فهي فقيرة إلى التضام في بنائها أو تركيبها ،فلا معنى لها خارج السياق كما لها رتبة الصدارة دائما .
المعنى	تأتي للدلالة على معنى وظيفي تركيبي يقوم بيان ذاتية الجمل أو نوعها ، كما تؤدي وظيفة الربط أو التعليق.
التعليق	تتبنى علاقات الربط وبذلك فهي تتوسط بين الفعل والاسم كأدوات الجر ،وتتعلق فيما يتعلق العطف العامل على سبيل الإتباع والنيابة ، كواو المعية نحو رأيت زيدا وعمرا ، كما أنها تتعلق بمجموع الجملة متعلق آداة النفي أو الإستفهام ، كقولك :هل خرج زيد ؟ فأنت لا تتساءل عن الخروج فحسب بل تتساءل عن وقوع الخروج من زيد.

خاتمة :

أفرز النحو العربي القديم القائم على الفلسفة المعيارية صعوبة تجابه ذوي التخصص فما بالك بغيرهم من ذوي التخصصات الأخرى دون أن يفوتنا التركيز على الناشئة ،صعوبة تحول أذهانهم دون استيعاب أصوله وفروعه،فقام النحاة يسعون إلى تهيئة الدرس النحوي ومستجدات العصر الآملة إلى إضفاء التيسير والتذليل ،لا سيما إيجاد تقسيمات ترتكز على مواد النحو القديم ،وتوازي أقسام الدراسات الغربية .

فبدلا من الجملة الاسمية، الفعلية والظرفية ، عمدوا إلى تقسيم الجملة إلى بسيطة ومركبة ومعقدة مراعين في ذلك أوجه اختلاف النحاة من حيث تقرير العامل،الرتبة ،الحذف ،الإضمار وقضية التوكيد.

أمّا من حيث أقسام الكلم واستنادا إلى تقسيم القدامى الثلاثي :الاسم والفعل والحرف،مميزين في ذلك ومطنبين ،ومتخيرين الكلم إما من حيث المعنى أو المبنى ،مما كلفهم العناء والمشقة ،رأى المحدثون أنهم ملهوفون إلى وضع تقسيم يكون القارئ بحاجة إليه ،فصنفوا الكلم سبعا :الاسم ،الصفة ، الفعل، الضمير، الخالفة، الظرف ، الأداة ، فجعلوا لكل سماته ، من حيث المبنى والمعنى ،وبذلكم ارتأوا المنهج التجديدي موافقا للعناية الحقيقية بطالب النحو العربي ،هجينا بأسسه ، دونما أي تقليل بهمة القدماء ،كون نتائجهم لا تقارن بنتائج المحدثين البتة ،إما من حيث الكم أو الكيف، وإنما الاختلاف واقع في المنهج إذ تطعمت الدراسات المحدثة بالدرس اللساني الحديث.

فنحـو العربية الفصحى وصرفها لا زالا لهيفيـن للتقوقع تحت جبـروت سيبويه رغم مرور أكثر من ألف سنـة ،وذلك تبعا للدارسين الذين أحنوا على كتابه الجامع لبوازغ ،بواسق وبواطن الدرس النحوي العربي ،وإنما يتجـلى ذلك في القلة القلية التي تنتصر لهذا التجديد .

الإحالات :

1/مصطفى ناصف:نظرية المعنى في النقد العربي، دار القلم، 1965، ص.7

2/إبراهيم مصطفى :إحياء النحو،لجنة التأليف والنشر والترجمة،مصر،1937، ص16وما بعدها.

3/عبد العزيز حمودة : نحو نظرية نقدية عربية، المرايا المقعرة ، ع272،عالم المعرفة، الكويت،2001،ص.242

4/عبد القاهر الجرجاني :دلائل الإعجاز في علم المعاني،تح محمد عبده/محمد محمود التركيزي الشنقيطي ،دار المعرفة ،لبنان،2001،ط3،ص.15

5/عبد العزيز حمودة:المرجع السابق،ص.239

6/تمام حسان :اللغة العربية معناها ومبناها،دار الثقافة ،المغرب،ص.16

7/مصطفى ناصف:نظرية المعنى في النقد العربي ،ص.21

8/عبد الجليل مرتاض:في رحاب اللغة العربية ،ديوان المطبوعات الجامعية ،الجزائر ، 2004، ط4، ص.122

9/عبد الجليل مرتاض:المرجع السابق،ص.123

10/تامر سلوم :نظرية اللغة والجمال في النقد العربي ،دار الحوار ،سوريا ،1983،ط1،ص.144

11/مصطفى ناصف:نظرية المعنى في النقد العربي،ص.7

12/محمد ابن عبد الله ابن مالك الأندلسي:ألفية ابن مالك في النحو والصرف مع إعراب مفرداتها،ص42.

13/عبد الجليل مرتاض التحولات الجديدة للسانيات التاريخية،دار هومة ،الأردن ،2001.ص.4

14/عبد الجليل عبد القادر :علم اللسانيات الحديث ،دار الصفاء ،الجزائر ،2000،ص.466

15/حسن خميس الملخ :التفكير العلمي في النحو العربي (الاستقراء، التحليل ، التفسير)الشروق ، الأردن ،2002،ص.211

16/ابن مضاء:الرد على النحاة ،ص85 نقلا عن بكري عبد الكريم :ابن مضاء وموقفه من أصول النحو العربي ،ديوان المطبوعات الجامعية ،الجزائر ،1982،ص125.

17/عبده الراجحي :دروس في المذاهب النحوية ،دار النهضة ،لبنان ،1980،ص227.

18/عبده الراجحي :دروس في المذاهب النحوية ، ص.227

19/الإشتغال في اصطلاح النحاة أن يتقدم الإسم و يتأخر عنه فعل قد عمل في ضمير ذلك الإسم وفي سببه ،وهو المضاف إلى ضمير الإسم السابق.

عن بكري عبد الكريم :ابن مضاء وموقفه من أصول النحو ،ص.135

20/شوقي ضيف :المدارس النحوية ،دار المعارف ،مصر ،ط2،ص.305

21/مصطفى ناصف :نظرية المعنى في النقد العربي ،ص.7

22/مصطفى حركات :اللسانيات العامة وقضايا العربية ،دار الآفاق ،ص.96

23/ابن خلدون :المقدمة ،مؤسسة الكتاب ،الجزائر ،1984،ج2،ص.458

24/مهدي المخزومي : النحو العربي نقد وتوجيه ،دار الرائد العربي ،لبنان ،1986،ط1،ص.15

25/لحسن بلبشير :التركيب وعلاقته بالنحو ،مجلة المصطلح ،ع01،جا أبو بكر بلقايد،تلمسان ، 2002، ص.215

26/محمد ابراهيم عبادة :الجملة العربية دراسة لغوية نحوية ،نشأة المعارف ،مصر ،ص.32

27/ابن هشام الأنصاري :شرح قطر الندى وبل الصدى ،دار رحاب ،ص.129

28/عبد القاهر الجرجاني :دلائل الإعجاز ،ص85-.86

29/ابن مالك :الألفية ،ص.26

30/أحمد مطلوب :البلاغة عند السكاكي ،منشورات مكتبة النهضة ،العراق ،1964،ط1،ص.100

31/ينظر أبو بكر الأنباري :الإنصاف في مسائل الخلاف ،تح حسن حمد ،دار الكتب العلمية،لبنان، 1998،ط1،م1،ص.402

32/سيبويه :الكتاب ،تح :عبد السلام محمد هارون ،عالم الكتب،لبنان.ص.23

33/ابن أجروم :نظم الأجرومية ،دار الفكر ،بيروت ،لبنان .ص.22

34/ابن مالك:ألفية ابن مالك في النحو والصرف،ص.38

35ابن مالك :ألفية ابن مالك ،ص.30

36/ينظر تامر سلوم :نظرية اللغة و الجمال في النقد العربي المعاصر ،ص64-68.

37/ينظر م ن ،ص68-.73

38/ينظر م ن ،ص73-.78

39/ينظر تمام حسان :اللغة العربية معناها ومبناها ،ص110-.113

40/ينظر تامر سلوم : المرجع السابق ،ص82-.84

41/ينظر عبد الله بوخلخال :التعبير الزمني عند النحاة العرب ،ديوان المطبوعات الجامعية ،الجزائر، ج2،ص.74،55

42/ينظر تمام حسان :المرجع السابق،ص119-.122

43/تامر سلوم:المرجع السابق ،ص88-92.

منهج النحويين القدامى في دراسة المصوتات

أ. فرح ديدوح
ملحقة مغنية- تلمسان

اعتمد اللغويون القدامى القراءات القرآنية واللهجات العربية، وهذا ما نلحظه بشكل خاص في الدراسة الوظيفية؛ التي أكثروا فيها الاستشهاد بأشعار العرب وبالقراءات القرآنية ونسبوا كل تباين إلى القبيلة التي اشتهرت به، وكثرة الشواهد الشعرية والقرآنية دليل على أنّ اللغويين القدامى اعتمدوا النطق والمشافهة في وصف الأصوات، وإن كان من النقد الموجّه إليهم أنّهم أسّسوا قواعدهم على اللغة المكتوبة دون المنطوقة، فقد ذكر **ميشال زكريا** أنّ الباحثين في مجال الدراسات اللغوية درجوا على الاهتمام بدراسة اللغة في شكلها المكتوب، وحصروا دراستهم بقواعدها وقضاياها دون أن يولوا أي اهتمام للغة في شكلها المحكي، وهذا الوضع قديم قدم الدراسات اللغوية، وهذا ما أظهر اتجاه القواعد بصورة عامة إلى ما هو مكتوب في اللغات.[1]

و يبدو من كلامه أنّ هذا النقد يشمل الدارسين المحدثين أيضا كما يشمل جميع اللغات، و لكن لا ينبغي إطلاق هذا الحكم بهذا التعميم؛ لأنه لا يشمل كل مستو يات اللغة، فأصوات اللغة العربية وُصفت في البداية خدمة للقرآن الكريم، وكان مصدر وصفها القراءات القرآنية؛ أي المشافهة ، وليس الكتابة. و إن كان لها دور في كثير من مواطن اللبس والغموض اللذين مسّا الدراسة الصوتية والصرفية، وهذا كان رأي كثير من الدارسين، يقول **محمود فهمي حجازي**: " **فالواقع أنّ نظرة النحو يين العرب للخطّ جعلتهم يتصوّرون أنّ ما نطلق عليه كسرة طو يلة هو كسرة ثم ياء ساكنة.**"[2] و يرى **كانتنو** أنّ القدامى **"لا يؤسسون قواعدهم على الأصوات وطبائعها بل على الكتابة ورموزها، وقد خدعت الكتابة الأجيال منذ سيبو يه حتى الآن، فاستمروا بترديد كثير من القواعد الكتابية دون أن يعيروا التفاتا إلى التحليل الأصواتي.**"[3]

إنّ القدامى و إن تأثروا بالكتابة في التقعيد، فهذا لا يعني أنهم غيّبوا التحليـل في دراساتهم ، فالمطّلع على الأبواب النحو ية وبخاصة الصرفية يجد أنهم اعتمدوا التحليل في كثير من الأحكام والقواعد. إضافة إلى ذلك كان النحاة الأوائـل عـلى وعـي بهـذا الفارق بين النطق والكتابة، فقد ذكر الزجاجي أنّ الهجـاء عـلى ضربـين: ضرب منـه للسمع، وضرب منه لرأي العين، والواحد قد يكتب على المعنى واللفظ على خلافه.[4]

وذكر **تمام حسان** أنّ اللغو يين القدامى اعتمدوا في اسـتنباطهم القواعـدَ اللغـةَ المحكية؛ حيث اعتمدوا مشافهة الأعراب، إلا أنهم قبـل التقعيـد كـانوا يحوّلـون مـا سمعوا إلى نص مكتوب، يقول: **"بل إنه حتى هـذا الاتصـال باللغـة الحيـة لم يكـن ينسجم مع مطالب الدراسة الصوتية؛ لأن أصحاب الرحلة الذين اسـتمعوا إلى هـذه الأصوات الحية كانوا يحوّلون ما سمعوا إلى نـص مكتـوب، ولم يحـاولوا أن يجعلـوا**

رحلتهم رحلة بحث ميداني بالمعنى الدقيق بأن يصلوا إلى تصنيف الظاهرة أو التجريد منها في أثناء السماع. " [5] فرغم أنهم شافهوا الأعراب وجمعوا اللغة من قبائلها إلا أنهم حال التقعيد تعاملوا مع الخط مع ما كان يعانيه من نقص، يقول: **"فحين عادوا إلى ما كتبوا لم يعودوا في الحقيقة إلى لغة مسموعة منطوقة، و إنما عادوا إلى نص مكتوب، فلم تكن قيمة هذه المشافهة التي كانت بأكثر من قيمة الرواية عن الشعراء الجاهليين؛ لأن كلاّ من النصين كان مكتوبا وليس منطوقا وقت إجراء الملاحظة، ومن ثمّ لم يكن النحاة يستطيعون من خلال ما دوّنوا أن يبدأوا بإنشاء النظام الصوتي للغة العربية، ولا سيما إذا تذكّرنا أنّ الخط العربي في تلك الحقبة (وفي وقتنا إلى حدّ ما) كان عرضة لكثير من اللبس بسبب النقص الذي اتسم به من حيث الإعجام، والإعراب، وضبط البنية الداخلية للكلمة." [6]**

يبدو أنّ ما ذكره **تمام حسان** خطأ وقع فيه جمّاع اللغة واللغويون القدامى، ولعلّ تأثيره كان أكبر في مجال الدراسة الصرفية؛ لأن الأصوات اللغوية كان مصدرها الأول القراءات القرآنية التي تُنوقِلت مشافهة، وأغلب النحاة كانوا قرّاء وحفّاظا لكتاب الله الكريم، وبالتالي كان وصفها مباشرا يعتمد التجربة والأداء، والاختبار المباشر انطلاقا من المقعّدين أنفسهم .

وأضاف **تمام حسان**: **"النحاة حين بدأوا ملاحظاتهم النحوية على اللغة صادفوا اللغة العربية مكتوبة، ولا يمكن للكتابة في أيّ لغة أن تستقرّ وتؤدّي الغرض منها إلا إذا كان واضعو هذا الخط وقواعد الإملاء ذوي حدس بالنظام الصوتي للغة إن لم يكونوا ذوي وعي به ومعرفة له، ولقد وجد النحاة أنّ الخط العربي قد استقر على أساس نظام صوتي مكوّن من تسعة وعشرين وحدة صوتية، لكل واحدة منها رمز**

يدل عليها، ووجدوا أنّ ستة وعشرين من هذا المجموع ذات وظيفة مطردة، وأن الثلاثة الباقية ذوات وظيفة مزدوجة تتراوح بين اللين والمد، ولكنهم وجدوا النظام خلوا من الحركات، ومن ثمَّ كان الخط العربي قبل أبي الأسود مقطعيا لا فونولوجيا، وما دام النظام الصوتي للغة العربية قد قام بحدس الكاتبين قبل ظهور النحو؛ فإن النحاة لم يجدوا من الضروري أن يقوموا بجهد جديد للوصول إلى النتيجة نفسها."[7]

إنّ الأمر الواضح والمؤكد في الخط العربي هو أنّ نظام المصوّتات فيها وُضع على أساس صوتي، وفيما يتعلق بالمصوّتات الطويلة؛ فهي تشترك وأشباه المصوّتات في الرمز الكتابي؛ أي أنّ وظيفته مزدوجة كما ذكر **تمام حسان**، ولعلّ هذا ما دفعهم إلى تخصيصها بمصطلح واحد هو العلة أو اللينة، رغم إشارتهم إلى أنّ مصطلح العلة يرمز إلى ثلاث مجموعات من الأصوات، هي: المدية، واللينة، والصامتة.

ارتكز البحث اللغوي العربي القديم على الملاحظة المباشرة بواسطة اللغة الشفاهية أو المنطوقة، فالقراءات القرآنية سُجِّلت مشافهة، والآداب الجاهلية وحتّى الإسلامية والأموية والعباسية الأولى دُوّنت سماعا ومشافهة، وقواعد اللغة العربية أُستنبطت من تراكيب شفويّة، وإن كان ما دوّنوه ورسموه رسما صوتيّا لم يكن مطابقا تماما للعربية المنطوقة ـ وهذا ما ذكره تمام حسان ـ فإنهم في مقابل ذلك لم يضعوا قواعدهم لمجرّد سماعهم تركيبا واحدا من عربي واحد ، بل اعتمدوا توظيف قواعدهم العقلية وملاحظاتهم الحسية. [8] فالعلماء القدامى شخّصوا الأصوات تشخيصا محكما معتمدين تلاوة القرآن المتواترة عن سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وشمل هذا التشخيص مخارج الأصوات وصفاتها محذّرين من الخروج عن النمط المحدّد للصوت.[9]

وكان **تمام حسان** مُنصفا في موقفه من منهج النحاة واللغويين في الدراسة اللغوية، نتبيّن موقفه هذا من قوله: "**فماذا عسى أن يكون موقفنا من النحاة في ضوء هذه الملابسات؟ أَنَلومهم لأنهم خالفوا مقاييس وطرقا منهجية لم يكن لها وجود في زمانهم، أم نرى ما رأوا من ضرورة الأخذ بهذه اللغة الأدبية؟**" [10]

وكان رأيه في ذلك أنّ النحاة كانوا على صواب في اعتمادهم اللغة الأدبية في الدراسة والتقعيد؛ ذلك أنّ الدرس اللغوي نشأ أصلا خدمة للقرآن الكريم وصوْنا له من اللحن والتحريف، والقرآن الكريم أُنـزِل بدوره باللغة الأدبية وليس بلغة التخاطب العادية؛ لذلك كان لزاما عليهم أن يدرسوا اللغة التي أُنزل بها، إضافة إلى ذلك، كانت لغة التخاطب أكثر اختلافا وتشعّبا على ألسنة القبائل من اللغة الأدبية، فلم يكن من الممكن أن ينشأ لها نحو واحد كما نشأ للغة الأدبية . [11] ولذلك كانت هذه اللغة معيار النطق السليم، فلو اعتمدوا نطق كل القبائل العربية على اختلاف لهجاتها، لوجدوا أنفسهم أمام مشكلة أخرى هي تعدّد نطق الصوت الواحد، فبِأَيِّها يأخذون. ونقول ما قاله **تمام حسان**: " **فإذا عرفنا ذلك التمسنا العذر لنحاتنا إذ باينوا مطالب المنهج الحديث.**"[12] أضف إلى ذلك أنّ ما نحسبه اليوم منهجا قد يصير في غد قريب أو بعيد لا شيء، وأنّ ما تبنّيناه اليوم معتقدين إياه السّبيل القويم قد يهدمه غيرنا في الغد القريب.[13]

وفيما يلي سنحاول أن نعرض بعض القضايا التي اختصّ بها اللغويون القدامى ، والتي يرى الدارسون المحدثون أنّ الرسم أوقع اللبس و الغموض فيها.

1 – إقحام الألف مع الهمزة في المخرج:

أقحم اللغويون العرب الهمزة والألف في مخرج واحد، هو أقصى الحلق، مع أنهما في الواقع من مخرجين مختلفين، وعلّة هذا الإقحام على ما يبدو هو الخط؛ لأنه لم يحدث التمييز بين الصوتين في الرمز إلا في منتصف القرن الثاني الهجري، على يد **الخليل بن أحمد الفراهيدي(ت175هـ)**؛ حيث اقتطع رأس العين ووضعه فوق الألف لتدلّ على الهمزة[14]، ومع ذلك، فقد اعتاد العرب القدامى نعت الهمزة باسم الألف، ويظهر ذلك في كتابات معظم اللغويين القدامى، من ذلك قول الفراء(**ت207هـ**)؛: **"قالوا: أبغي، ففتحوا الألف الأولى من بغيت."**[15] ومن ذلك أيضا تسميتهم همزة الاستفهام بـ: ألف الاستفهام .[16] و يتضح نعت الهمزة بالألف في قول ابن جني(**ت392هـ**)؛: **"ويجوز أن يكتب (الممدود إذا نصب) بثلاث ألفات، تقول: لبست رداأاً وكساأاً، وأكلت سواأاً، وشربت دواأاً."** [17]

ونجد مثل هذا عند الفلاسفة المسلمين أيضا، من ذلك قول **الفارابي (ت339هـ)**: **"وحرف الألف؛ أعني الألف التي تستعمل في الاستفهام تقوم مقام هل، كقولنا: أزيدٌ قائم؟"**[18] ومثله عند **ابن عربي(ت638هـ)** في قوله: **"والألف التي من أصل الكلمة مثل: الأعراف والأدبار."**[19]

أوضح بعض النحاة والفلاسفة هذا الإشكال وفرّقوا بين الألف والهمزة، من ذلك قول **الفراء**: **" فأكثر ما يكتب الهمز على ما قبله، فإن كان ما قبله مفتوحا كتبت بالألف، وإن كان مضموما كتبت بالواو، وإن كان مكسورا كتبت بالياء، وربما كتبتها العرب بالألف في كل حال؛ لأن أصلها ألف، قالوا: نراها إذا ابتدأت تكتب بالألف في نصبها وضمها وكسرها، مثل قولك: أمروا وأمرت، وقد جئت شيئا إمرا، فذهبوا هذا المذهب. "**[20]

وفرّق **الأخفش(ت215هـ)** بين الألف والهمزة بقوله: "**والهمزة ليست بـالألف، وهي حرف على حياله، وإن تكتب ألفا .**"[21] يعني أنّ الهمزة صوت مستقلّ وإن كانت تكتب ألفا .[22] وقريب من هذا الكلام ما ذكره **ابن جني** في قوله:"**اعلم أنّ الألف التي في أوّل حروف المعجم هي صورة الهمزة، وإنما كتبت الهمزة واوا مرة وياء أخـرى على مذهب أهل الحجاز في التخفيف، ولو أُريد تحقيقها البتة، لوجب أن تُكتب ألفا عل كلّ حال.**"[23]

فقد أُستعيض عن الهمزة بالألف والواو واليـاء؛ لأنّ الحجـازيين ولاسـيما قبيلـة قريش لم يكونوا يهمزون في كلامهم للتخفيف؛ لذلك لمّا شاع رسم الخط عند العرب بين الحجازيين التي كان رجالها يسافرون بتجـارة العـرب، وكانـت الألـف في الخـط النبطي هي رمز الهمزة؛ استعيض عنها بها .[24]

أما إذا استقرأنا تراث الفلاسفة المسلمين؛ فإننا نجدهم أيضا يجعلون الألف رمزا للهمزة المنطوقة، يقول **البطليوسي(ت521هـ)**: "**الألف صورة الهمزة** "[25]، ويقول **ابن عربي**: "**ثم إن الله تعالى جعـل أوّل الحـروف المجهولـة في القـرآن الألـف في الخـط والهمزة في اللفظ.**"[26]

من كل ما تقدم يتبين لنا أن الهمزة رُسمت ألفا؛ لأنها لم تكن في البداية مقيّدة برمز خاص، وبعدما قُيِّدت برمز كان العرب قد اعتادوا رسمها ألفا، وهذا مـا أكّـده **جابر بن حيان(ت199هـ)**، و**ابن عربي**، فهما يريان أنّ الألف نصف حرف، والهمزة النصف الآخر، وبجمعهما يصيران حرفا واحدا.[27] ولعلّ ذلك يتوضّح أكـثر مـن قـول **ابن عربي**: "**صورة الهمزة في الرسم عينا لطيفة أو صورة العين في الرسم همزة عظيمة القدّ؛ لأن العين علم الهمزة، كما الهمزة علم الألف.**"[28] أي إنّ رأس العين إذا أضـيف

إلى الألف تتحقق الهمزة خطّا، وهي التحقّق الفعلي للألف. فمتى حرّكناها أو بالغنا في مدّها تصير همزة.

و مما يعضّد أن العلاقة بين الألف والهمزة لا تتعدى الرسم، أنّ اللغويين القدامى كثيرا ما يعبّرون عن الألف بـ: الألف اللينة أو الألف الساكنة، أو ألف المدَّة، يقول **ابن جني**: **"فأما المدّة التي في نحو: قام، وسار، وكتاب، وحمار، فصورتها أيضا صورة الهمزة المحقَّقة التي في أحمد وإبراهيم وأترجّة؛ إلاّ أنّ هذه الألف لا تكون إلاّ ساكنة؛ فصورتها وصورة الهمزة المتحركة واحدة وإن اختلف مخرجاهما."**[29] **فابن جني** كان على وعي أنّ الألف تختلف عن الهمزة في المخرج وإن كانت تشركها في الصورة. وهذا ما أكّده **سعد الدين التفتازاني(ت771هـ)**؛ حيث جعل الألف على ضربين: ليّنة ومتحركة[30]، وقال في موضع آخر معلّلا تلقيب الهمزة بالألف: **"حركات الألفات؛ أي الهمزات، وعُبّر عنها بها؛ لأنّ الهمزة إذا كانت أوّلا تُكتب على صورة الألف،ويُقال لهاالألف، قال في الصحاح: الألف على ضربين: لينة ومتحركة: فاللينة تسمى ألفا، والمتحركة تسمى همزة في الأوائل؛ أي في أوائل الفعل."**[31] ويعضّد ذلك قول **ابن حامي(ت1318هـ)**: **"اتفق جميع المسلمين وخصوصا العلماء وأهل القرآن أنّ الحروف الأصلية القرآنية الصحيحة لا تتعدى تسعة وعشرين حرفا، أو ثمانية وعشرين على الخلاف في الألف والهمزة، هل تُعدّان حرفا واحدا أو حرفين."**[32]

وأما رأي المحدثين في هذه المسألة تمثّل في ما ذكره **إبراهيم أنيس** من أنّ القدامى أدرجوا الألف مع الهمزة في المخرج لتفسِّر المقصود منها فقط، يقول: **"إن الذين نقلوا عن سيبويه قد حمّلوا كلامه أمرا لم يقصده حين ذكر الألف بعد الهمزة، فربما أراد بكلمة الألف تفسير المقصود من كلمة الهمزة؛ التي فيما يبدو كانت**

مصطلحا صوتيا غير مألوف في أيامه،أو حديث العهد بين الدارسين، فأراد توضيحه بذكر مرادف له أكثر شهرة وأُلفة؛ وهو كلمة الألف."[33]

فعلى هذا يرى **إبراهيم أنيس** أنّ الهمزة أو الهمز مصطلح لم يكن شائع الاستعمال آنذاك؛ لذلك عُبّر عن الهمزة بالألف .

وتمثّل **رأي رمضان عبد الله** في قوله: **"و إنما يرجع الخلط بين الهمزة والألف إلى اشتراكهما في التسمية، كما في سأل وسال ، وكذلك لتشابه الهمزة والألف في كتابتهما أحيانا،وكذلك لأن الهمزة المفتوحة أو الساكنة وقبلها فتح قد تُقلب ألفا في نحو: فأس ـ فاس، ملأـ ملا، وذلك واضح في اللهجات القديمة والحديثة على السواء."** [34]

نفهم من هذا الكلام أنّ القدامى جعلوا الألف من مخرج الهمزة؛ لأنها في الغالب متى سُهّلت وخفّفت في النطق تستحيل مصوّتا طويلا من جنس المصوّت القصير المصاحب لها. وقد يكون نظام الكتابة السبب في هذا الإشكال، يقول: **"فما يدلّ على أنّ الكتابة العربية تأرجحت بين أسلوب قديم يُهمل الحركات في الكتابة، ويبدو أنّ هذه البلبلة في الكتابة قد انعكست بشكل واضح على نظرة القدماء للهمزة من الناحية الصوتية، فالخليل اعتبر الهمزة حرف علة وساواها بها، فقد قسّم أبجديته الصوتية من حيث المخارج إلى قسمين: أحدهما خاص بالحروف الصحاح، وبدأ بصوت العين، وختمه بالباء والميم، والثاني يشمل الحروف الأربعة: الألف والواو والياء والهمزة ."**[35]

إنّ الارتباط التاريخي بين الألف والهمزة هو السبب في هذا الخلط، فالألف ترمز إلى صوتين اثنين، هما: الألف والهمزة؛ حيث أنّ الهمزة متى لم يمكن تخفيفها لم يجز كتابتها إلا ألفا، وهذا ما يظهر في بعض المصاحف.

وأمّا **عبد القادر عبد الجليل** فيعلّل إدراج الهمزة مع المصوّتات الطويلة في المخرج بقوله:"**والهمزة عند الخليل تُصنَّف مع أصوات اللين، وهذا يعود إلى الجزء الثاني من أجزاء الائتلاف الذوقي للهمزة، وهو الصائت الطويل؛ الذي يمثّل الحركة المصاحبة للصوت أثناء عملية التذوّق وليس للجزء الأول الذي يمثله صوت الهمزة.**"[36]

ولكن فيما يبدو لم يكن ما تقدّم هو السبب الوحيد في نعت الهمزة بالألف، فقد ذكر **المبرّد(ت285هـ)** أنّ مخرج الهمزة يقرب من مخرج الألف.[37] وذكر **أبو عمرو الداني(ت444هـ)** أنّ علّة اختيار الألف دون الواو والياء للدلالة على الهمزة هو مشاركة الألف الهمزة في المخرج ومفارقتها الواو والياء في الخفة[38].

وعلّل **علي القارئ (ت1014هـ)** [39]جعل الألف من مخرج الهمزة بأنّ مبدأها مبدأ الحلق ويمتدّ ويمرّ على جميع هواء الفم، وبأنّ الذين جعلوا مخرج الألف من أقصى الحلق هم الذين أسقطوا مخرج الجوف أمثال سيبويه ومكي بن أبي طالب.[40] وهذا يعني أنّ الداني يقصد بالمخرج: الجوف؛ لأن الألف والواو والياء والهمزة أصوات جوفية؛ مبدؤها الجوف عند أغلب اللغويين القدامى، وكون الألف أخفّ أختيها في النطق كما ذكر الداني راجع إلى وضعية اللسان حال النطق بها؛ حيث يكون مستويا في قاع الفم كما في وضع الراحة.

2- وجود مصوّت قصير قبل مصوّت طويل من جنسه:

ذكر الدارسون المحدثون أنّ اللغويين القدامى أخطأوا حينما اعتقدوا وجود مصوت قصير قبل مصوّت طويل[41]يقول **إبراهيم أنيس**: "**ولكنّ القدماء قد ضلّوا الطريق السوي حين ظنوا أن هناك حركات قصيرة قبل حروف المد، فقالوا مثلا أنّ هناك فتحة على التاء في كتَاب، وكسرة تحت الراء في كرِيم، وضمة فوق القاف**

في يقُول، الحقيقة أنّ هذه الحركـات لا وجـود لهـا في تلـك المواضـع. "[42] وأضـاف: **"ويظهر أنّ الكتابة العربية في صورتها المألوفة من وضع فتحة على التاء في كتـاب، وكسرة تحت الراء في كريم، وضمة فوق القاف في يقول قد جعلت القدماء يتوَهّمون وجود حركات قصيرة في مثل هذه المواضع.**"[43]

و لكن المتتبّع لما خلّفـه اللغويـون القـدامى يجـد أنّ هـذا التصريـح لم يتعـدّ الرسم، فهم لم يقولوا بوجود مصوّت قصير وبعده مصوّت طويل يضاعفه في الكميـة؛ لأنهم كانوا مدركين أنّ المصوّتات الطويلة لا يمكن أن تستقلّ في النطق وحدها، و إنما تكون مشبعة عن المصوتات القصيرة التي من جنسها، فقد أشار أبو عمرو الداني أنـه في الأصل كانت ترسم مطّة (فتحة) فوق الألـف والـواو واليـاء إذا تُليـت بهمـزة، أو صوت مدغم للدّلالة على زيادة مدّها، لكنّ بعض الكتّاب كانوا يغلطـون ويرسـمون المطّة فوق الحرف الذي يسبق حـروف المـدّ[44]، و لعـلّ هـذا تعـدى إلى المـد الطبيعـي فرسموا مصوّتات قصيرة فوق الصـامت الـذي يسـبقه للدلالـة عـلى إشـباعه وتمكينـه بخاصّة ونحن نعلم أنّ كلا من الواو والياء كانا رمزا لثلاث مجموعات من الأصـوات، هي: المدّ واللين والصامتة ؛ لذلك في اعتقادنا وُضعت رموز المصـوتات القصـيرة فـوق الحرف الذي يسبق المصوّتات الطويلة إشعارا بها. أضف إلى ذلـك أنّ القـدامى كـانوا مُدركين للطبيعة الواحدة لأصوات المد والحركـات، فـإنْ كـان الرسـم قـد خـانهم في التعبير عن هذه العلاقة، فإنهم من الناحية الصوتية كانوا مـدركين أنّ الألـف والـواو والياء ما هي إلا امتداد و إشباع للفتحة والضمة والكسرة على الترتيب، وهذا ما صرّح به **ابن جني** وغيره من اللغويين في غير موضع، من ذلك قوله: " **الحركات أبعاض لهـذه**

الحروف، وأنّك متى أشبعت واحدة منهنّ حدث بعدها الحرف الذي هي بعضه."[45]
وقوله: **"إن بدأت بالكسرة، فقد جئت ببعض الياء وآذنت بتمامها."**[46]

ففي القول الأخير، إشارة واضحة إلى عدم وجود مصوّت قصير مستقلّ عن المصوّت الطويل الذي يليه، فابن جني بيّن لنا أنه كي نتمكّن من نطق الياء المديّة لابدّ من نطق جزء منها، وهو ما يمثل مصوّت الكسرة، بعد ذلك يتم نطق الجزء المتبقي منها، فتتشكل لنا الياء المدية، وهذا ما أكّده أيضا بقوله: **"الطويلة توابع للحركات ومنشأة عنها، وأنّ الحركات أوائل لها، وأجزاء منها، الألف فتحة مشبعة، والياء كسرة مشبعة، والواو ضمة مشبعة. "**[47] وبقوله: **"المفتوح هو الذي إذا أشبعت حركته حدث عنها الألف، نحو: ضاد ضرب، لك أن تشبع الفتحة فتقول: ضارب."**[48] فالألف والواو والياء لا تعدو أن تكون مجرّد رموز دالة على إشباع وزيادة كمّية المصوّتات القصيرة.

سنختم هذه المسألة بنص **لابن جني**، أورده أثناء حديثه عن موقعيّة المصوّت في السلسة الكلامية، وننقله نقلا كاملا لأهميته؛ ولأنه يوضح لنا مسألة أخرى تتعلق بعدّ المصوّتات الطويلة أصواتا ساكنة، يقول فيه: **"فإن قلت: ما تنكر أن تكون الحركة تحدث مع الحرف المتحرّك البتّة، ثم تأتي بقية حرف اللين التي هي مكمّلة للحركة حرفا مستأنفة بعد الحركة التي حدثت مع الحرف البتة، كما قد نشاهد بيننا من الأشياء ما يصحبه بعض لغيره، ثم يأتي تمام ذلك البعض فيما بعد، فلا يلزم من هذا أن يكون ذلك البعض الذي شوهد أوّلا مصاحبا لغيره في حكم البقية التي جاءت من بعده، بل يكون الجزء الأوّل مصاحبا لما وُجد معه، والجزء الثاني آتيا من بعده، ونظير هذا: رجل له عشرون غلاما، فقدِم و معه منهم عشرة، ثم أوفى بعد استقراره بمن وافى**

في جملته من غلمانه بقيّتهم، فليس تأخُّر من تأخر منهم بموجب تأخّر من تقدّم منهم، فما أنكرت مع ما مثّلنا أن تكون الحركة حادثة مع الحرف، وتكون المدّة التي تحدث لإشباع الحركة مستقبلة فيما بعد، فالجواب أنّ هذا التمثيل إنما يصحّ فيما أمكن تقطّعه وتجزّؤه؛ لأنه قد يمكن أن يحضر بعض الغلمان مع مالكهم و يغيب بعض، فأما ما اتصلت أجزاؤه وتتابعت وتوالت شيئا فشيئا، ولم يمكن قطعها ثم العود إلى تمامها، فقد جرى لذلك مجرى الجزء الواحد الذي لا يسوغ تجزّؤه. فمحال أن يكون له حكم إلا وهو مشتمل عليه، وذلك حكم حرف المدّ؛ الذي يحدث عن تمكين الحركة، ومطلها، واستطالتها، هو من هذا الوجه في حكم الحركة، والحركة في حكمه؛ لأنه لا يمكن فصل الحركة منه، والعود إلى استتمامه؛ لأنّ هذه المدّة المستطيلة إنما تسمى حرفا ليّنا ما دامت متّصلة، فمتى عُقْتَها عن الاستطالة بفصل ما، فقد أخرجتها عن اللين والامتداد الذي في شرطها."[49]

فكلام **ابن جني** ينفي أي اعتقاد بوجود مصوّت قصير منفصل عن المصوّت الطويل الذي يليه، فقد أجاب عن هذا النقد الموجه لقدامى النحاة واللغويين في فترة مبكرة، بأن تساءل عن ذلك بقوله: **"ما تُنكر أن تكون الحركة تحدث مع الحرف المتحرّك البتّة، ثمّ تأتي بقية حرف اللين التي هي مكمّلة للحركة حرفا مستأنفة بعد الحركة التي حدثت مع الحرف البتة."** وبقوله: **"فما أنكرت مع ما مثّلنا أن تكون الحركة حادثة مع الحرف، وتكون المدّة التي تحدث لإشباع الحركة مستقبلة فيما بعد."** ولتوضيح ما قاله مثّل لنا برجل له عشرون غلاما قدم معه **عشرة** منهم فقط، ووافته البقية فيما بعد، وكان جوابه أنّ هذا ممكن؛ لأنه يمكن لأجزائه أن تنفصل وتليها باقي الأجزاء وحدها، لكنّ هذا لا ينطبق على المصوتات الطويلة أو حروف

المدّ؛ لأنه لا يمكن لأجزائها أن تنفصل ثمّ تتتابع، فهي كتلة واحدة، كما أن تحقّقها يتوقّف على الصامت المصاحب لها، إن انفصلت أجزاؤها ذهبت وأصبحت مصوّتا قصيرا، فهذه الأجزاء إشباع وامتداد للمصوتات القصيرة، يقول **ابن الدهان (ت569هـ)** مؤكّدا قول **ابن جني**: **"فلا تخلو الحركة أن تكون ضمة أو فتحة أو كسرة، وكلّ واحدة ينشأ عنها حرف من جنسها يتصل بها."**[50] ومتى رُمنا قطعها ذهب ما فيها من مدّ ولين. فما تقدّم ينفي اعتقاد النحاة من الناحية النطقية وجود مصوّت قصير قبل الصامت الذي يسبق المصوّت الطويل.

وقد عدّ **إبراهيم أنيس** قول **ابن جني** في وجود فتحة ممالة نحو الضمة قبل ألف التفخيم في كلمة "الصلاة" مما يُؤخذ عليه، وأنه وهم منه.[51] ونظن أنّ هذا الوهم لا يتعدى الرسم أيضا؛ لأنّ **ابن جني** قال: **"وكما أن الحركة أيضا هنا قبل الألف ليست فتحة محضة، بل هي مشوبة بشيء من الضمة، فكذلك الألف التي بعدها ليست ألفا محضة؛ لأنها تابعة لحركة هذه صفتها، فجرى عليها حكمها."**[52] فقبل إمالة المصوّت الطويل لابدّ من إمالة بعضه أو جزئه الأول؛ الذي هو مصوّت قصير في الأصل، وهذا لم يكن مذهب ابن جني فقط بل كان مذهب **الفراء** من قبله و**المعري(ت449هـ)** من بعده، وبالتالي ليس في كلام **ابن جني** ما يؤخذ عليه.

ومثل هذا نجده عند اللغويين القدامى من الفلاسفة المسلمين؛ إذ لم يكن في كلامهم أيضا ما يشير إلى وجود مصوّت قصير قبل المصوّت الطويل ومستقلّ عنه، بل كان كلامهم واضحا بدليل أنهم سموا الفتحة الألف الصغيرة ، والضمة الواو الصغيرة، والكسرة الياء الصغيرة[53].

فقد ذكر **الكندي(ت260هـ)** أنّ المصوّتات القصيرة لا تظهر في الخط إلا في بعض المواضع، على عكس المصوّتات الطويلة، يقول: "**المصوّتة في اللسان العربي إنما تظهر في الخط إذا كانت عظاما، فأما صغارها فإنها لا تظهر في الخط العربي، إلا أن تكون في أول الكلمة، أو الصفة، أو التصريف، أو غير ذلك. فإنّ واو محمد التي فيما بين الميم والحاء لا تظهر في الخط العربي؛ لأنها صغيرة، وكذلك ألف محمد التي فيما بين الحاء والميم الأخرى؛ التي فيما بين الحاء والدال، وألفه التي بين الميم والدال، فإنها صغار؛ فلذلك لم تظهر في الخط العربي.**"[54]

ولعلّ هذا يؤكد ما قلناه من أنّ الرموز التي وُضِعت قبل المصوتات الطويلة لم تكن في الأصل موجودة، وإنما وُضعت فقط للدلالة على زيادة مدّها وإشباعها، وممّا ينفي أيضا وجود مصوّت قصير قبل المصوّتات الطويلة قول الكندي: "**ناطق ألفها الكبرى؛ التي بين نونها وطائها.**"[55] فلو كان الكندي يعتقد بوجود مصوت قصير قبل المصوّت الطويل؛ أي الألف، لقال: **ناطق ألفها الصغرى والكبرى التي بين نونها وطائها.**

ما نخلص إليه هو أنّ وضع رموز للمصوّتات القصيرة فوق الصامت الذي يتقدّم المصوّت الطويل لا يدلّ بأي شكل على اعتقاد القدامى بتحقّقه نطقا، وإنما هو من اعتقاد الدارسين المحدثين فقط، فالألف والواو والياء هي في الحقيقة مجرّد رموز دالة على زيادة الإشباع والمد في المصوتات القصيرة. وما اتّهم به بعض الدارسين المحدثين القدامى وقع فيه كثير منهم، ومثال ذلك ما قاله **محمد مكي نصر** أثناء حديثه عن كيفية المدّ: "**هو أن تمدّ صوتك بقدر النّطق بحركتين، إحداهما حركة الحرف الذي يسبق حرف المدّ، ومثاله قولك: بَبَ، فحركة الباء الأولى هي حركة الحرف الذي سبق المدّ، وحركته الثانية هي حركة حرف المدّ، نحو: قال، يقول، قيل، فحركة القاف هي**

إحدى الحركتين، والألف في قال والواو في يقول والياء في قيل هي الحركة الثانية."[56]
فكلام هذا الدارس يدفعنا إلى الاعتقاد بأنه يتوهّم وجود مصوّت قصير قبل المصوّت الطويل، ومع ذلك وجود نصّ واحد لا ينهض دليلا على هذا الاعتقاد.

3 ــ سكون المصوتات الطويلة :

ذكر اللغويون القدامى أنّ المصوتات الطويلة حروف ساكنة [57] وأيضا عند بعض الفلاسفة المسلمين مثل محي الدين ابن عربي الذي يرى أنّ الألف ليست حرفا، كما ليست حركة أيضا.[58] ونظنّ أنّ مردّ هذا الاضطراب في تحديد خاصية الألف وأختيها هو الكتابة لا النطق، يقول **براجستراسر**: **"فالنحويون القدماء،وإن كانوا ألمّوا بخواصّ الحروف الصامتة إلماما مقبولا حسنا، فلم يوفّقوا إلى معرفة طبيعة الحروف الصائتة؛ إلاّ أنهم كانوا يتأثرون بالخط خلافا للنطق، فرأينا أنه في بعض الأحيان لا يُكتب شيء البتة بين الحروف الصامتة نحو (فعل)، وأحيانا يكتب بينها حرف من حروف المد، نحو: فاعل، فلم يروا أنّ الحالتين سيان، في أن تنطق بعد الفاء حركة في كلتيهما، إلا أنها مقصورة في الأولى، وممدودة في الثانية، بل ظنوا أنه وإن كانت الفاء متحركة في كلتا الحالتين، أُضيف إلى الحركة في الحالة الثانية شيء غيرها هو الألف."**[59]

ما قاله **براجشتراسر** لا يختلف كثيرا عما سبق وقدّمناه، فهؤلاء الدارسون لا يقدّمون دليلا يؤكّد ما ذهبوا إليه، ولعلّ وصف القدامى للمصوتات الطويلة بـ: الساكنة يرجع إلى أنّ صورة الألف تشبه صورة الهمزة كما أوضحنا سابقا، وصورة الواو والياء المديتين هي صورتهما حالة كونهما صامتين، أو شبه صامتين، وربما يكون السبب هو التمثيل العروضي لها؛ لأن المصوّتات الطويلة تُساوي من حيث

الكم الإيقاعي مصوّتا قصيرا وصامتا؛ حيث يُرمز لها برمز السكون، وهذا نجده حتى عند الدارسين المحدثين ممن طالبوا بتحديث عروض الخليل؛ فنجدهم يمثلون للفظة مثل: "تلوح" بـ: ـ ـ 0 ـ [60]. ومن أجل هذا تساوت في نظر العروضيين وحدات إيقاعية غير متساوية في الحقيقة، فمقطع نحو: "قُمْ" يُعادل عروضيا مقطعا نحو: "نا"، فكل منهما سبب خفيف يتكوّن من متحرك وساكن، أو من شرطة ودائرة ـ 0، هذا مع التفاوت الكبير بين طبيعة كل من الميم الساكنة والمصوّت الطويل. فكل ما يهمّ العروضي أن تتساوى التفاعيل في حظّها من الحركات والسكنات وأن تتساوى الأبيات في التفاعيل.[61]

يرى **داود عبده** أنّ القدامى من الناحية الفونولوجية كانوا على حقّ حين عدّوا الضمة الطويلة ضمة وواوا، والكسرة الطويلة كسرة وياء، وفسّر هذا بقوله: " **إنّ ما جعل المدّ (الحركة الطويلة) مساويا لحركة قصيرة + صحيح في العروض (وقواعد النبر) هو أنّ أصل الكلمات التي يظهر فيها المدّ في اللفظ يحتوي على حركة قصيرة + شبه علة (ياء أو واوا)، وبما أنّ شبه العلة لا يختلف في قيمته العروضية (أو النبرية) عن الصحيح (قارن : ولد / بلد ، حوْل / حقل، لوْ / لن)، فإنّ الحركة القصيرة + شبه العلّة لا تختلف عن الحركة القصيرة + الصحيح. ومن هنا فليس هناك فرق في قيمة المقطع الثاني في كلمتي: يعود ويعدّ (ع ـــُ ـــ = ع ـــُ و = ع ـــُ د)**" [62]
ونحن لا ندري إذا كان ما توصّل إليه الباحث يمكن تعميمه على جميع الصيغ أم لا، فالحكم في مثل هذه المسألة يستوجب منّا القيام بدراسة مستقلّة.

ومع ذلك، فإنّ النحاة القدامى وخاصة القراء، لاحظوا أنّ سكون المصوّتات الطويلة غير سكون الصوامت، يقول **ابن الطحان(ت561هـ)**: **"السكون نوعان:**

حيّ وميّت، فالميت: محل الألف الهاوي، والياء بعد الكسرة، والواو الواقعة بعد الضمة، والحي: محل الياء والواو بعد فتح، وسائر الحروف حيّ، وقولنا: ميّت، هو إشارة إلى أنّ الألف لا تتحيز إلى جزء من أجزاء الفم، فهي مذ تندفع تهوي في هوائه حتى يغوص صوتها في آخره؛ ولذلك سميت بالهاوي، والهوائي؛ لأن سكونها غير جار في مقطع، ولا حاصل في حيّز، فهو ضد السكون الحي؛ لأنّ الحيّ متحيز كالمتحرك، والمتحرك حيّ. "[63]

من النص الذي تقدم، يتضح لنا أنّ وصف المصوتات الثلاثة بالسكون الميّت هو لعدم استعداد الناطق بها؛ أي لا يتهيأ النطق بها، ولا تنقطع في جزء من أجزاء الفم أو الحلق، ومن ثمّ فإنّ السكون هو من صفة العضو لا الصوت.

فرغم وصف اللغويين القدامى للمصوتات الثلاثة بالساكنة، فإنهم كانوا مدركين كونها حركة لا حرفا، ولعلّ توظيفهم لمصطلح "المصوتة" ولـ"أبعاض حروف المد واللين" خير دليل على أنها حركات لا حروف، أضف إلى ذلك التقسيم الذي أورده الكندي للأصوات العربية؛ حيث قسّمها إلى مصوّتة، وغير مصوتة، والمصوّتة منها العظام، ومنها الصغار[64] ، فتقسيمه هذا يدلّ على أن المصوّتات الطويلة والقصيرة من طبيعة واحدة.

يظهر إدراك اللغويين القدامى لطبيعة المصوتات في كثير من الآثار التي أوردوها أثناء معالجتهم للأصوات، أو في بعض القضايا اللغوية، من ذلك قول سيبويه(ت180هـ) : **"وقد يُلحقون في الوقف هذه الهاء الألف التي في النداء، والألف والياء والواو في الندبة؛ لأنه موضع تصويت وتبيين، فأرادوا أن تُمدّد."**[65] والتصويت لا يتأتى من الأصوات الساكنة؛ لأن النفس لا يمتدّ معها.

كما وأورد **المبرد** كلاما بيّن فيه لماذا أصوات المدّ ساكنة، يقول: "**الألف حرف تؤمن معه الحركة، والألف عندهم بمنزلة حرف متحرك؛ لأنها غير قابلة للحركة، كما أنّ الحرف المتحرك غير قابل للحركة ما دامت فيه حركة؛ لأن الحرف لا يكون محرّكا بحركتين في وقت واحد.**"[66] يبدو من هذا الكلام أن الألف وُصفت بالسكون؛ لأنها لا تقبل الحركة، وهذا ينطبق أيضا على الواو والياء؛ لأن هذه الأصوات متى تحرّكت تستحيل إلى أصوات أخرى، فالألف تصير همزة، والواو والياء المديتين تستحيلان صامتين، وبما أن الحرف إما ساكن أو متحرك وُصفت هذه الأخيرة بالسكون.

وقال **المبرّد** في مواضع أخرى: "**الألف مدّة، فما فيها عوض من الحركة.**"[67] و"**المدّة عوض من الحركة.**"[68] ومثال ذلك أيضا قوله: "**فحروف المدّ حيز على حدة، ألا ترى أنّك تذكرهنّ في مواضع الحركات، فيدللن من الإعراب على ما تدل عليه الحركات.** "[69] ما قاله المبرّد يدل على أن المصوتات الطويلة والقصيرة من طبيعة واحدة.

إضافة إلى أن اللغويين القدامى نصّوا على أنّه لا يلتقي ساكنان في حشو الكلام، ومع ذلك ذكروا أنّ الألف يليها ساكن، نحو: دابّة، وشابّة، بل زيادة على ذلك أوجبوا زيادة المدّ فيها، وهذا تناقض كبير، فالسّاكن لا يُمدّ أصلا.

وقد أبان **ابن جني** عن تردّده في طبيعة الألف، أهي حرف أم حركة، يقول: "**ولكن القول عندي أنّ الألف لمّا كانت حرفا في الحقيقة من وجه، ومشابهة للحركة من وجه آخر.**"[70] وذكر في موضع آخر أنّ الألف تشبه الحركة، وهي أكثر من الفتحة " **لوقوع الألف التي هي أكثر من الفتحة همزة أولى.**" [71] فلا يمكن أن يكون الساكن أكثر من حيث الكمية من المصوّت؛ بل هو دليل على انعدام التصويت أصلا.

كما قال أثناء حديثه عن همز المصوتات: **"وأنا أرى ما ورد عنهم من همز الألف الساكنة في: بأز وسأق وتأبل، ونحو ذلك، إنما هو عن دقة صنعة، وليس هكذا من غير مسكة، وذلك أنه قد ثبت عندنا من عدّة أوجه أنّ الحركة إذا جاورت الحرف الساكن يصير لجواره إياها كأنه محرّك بها، فإذا كان كذلك فكأن فتحة بأز هي في نفس الألف."**[72] نظن أنّ كلام **ابن جني** واضح بما يكفي لنقول إنّ النحاة كانوا على وعي بطبيعة الألف وأختيها، فقط نظام الكتابة والعروض ربما منعهم من التصريح أنها حركات طويلة.

إن كل ما تقدم، يبيّن لنا أن اللغويين القدامى كانوا مدركين من الناحية النطقية أنّ أصوات المدّ هي حركات وليست حروفا ساكنة كما يتبيّن ذلك من الخط، يقول **عبد الغفار حامد هلال:" لكنّ وصف علماء العربية بأنهم لم يوفّقوا إلى معرفة الصوائت بناء على الملحظ الكتابي غير مسلّم على إطلاقه؛ لأن لغة العرب جاءت منطوقة قبل أن تكون مكتوبة، وقد اقترحت الكتابة والضبط بعد أن سادت العربية بزمن طويل. "**[73]

إنّ وصف المصوّتات بالسكون نلحظه حتى عند بعض المحدثين رغم إدراكهم وقولهم إنها مصوّتات طويلة، وهذا ما نلحظه في بعض المواضع عند **عبد القادر عبد الجليل**، يقول: **"لا يقع صوت الألف (الصائت الطويل) في أول الوحدة اللغوية؛ لأنه صوت ساكن، والعربية لا تبدأ وحداتها بالأصوات الساكنة. "** [74] فتأثر المحدثين بالخط وبالدراسة اللغوية القديمة حقيقة لا يمكن إنكارها.

وختاما نقول إن اللغويين القدامى كانوا على وعي تام بالطبيعة الصوتية للمصوتات، وهذا ما أثبتته الآثار اللغوية التي قمنا بإيرادها واستقرائها، فالنتائج التي

توصلوا إليها فيما يخص طبيعة هذه الأصوات وافقت إلى حد كبير الدراسة اللسانية الحديثة؛ على الرغم من الفارق الكبير في الزمن وفي أدوات البحث، وعلى الرغم أيضا من إنكار أو تجاهل كثير من الدارسين لهذه النتائج والدراسات، فقد بين لنا البحث إدراك الدارسين القدامى للطبيعة الصوتية والواحدة للمصوتات القصيرة والطويلة، أو الطبيعة الصوتية الواحدة للحركات وأصوات المد التي تسكن أعضاء النطق عن الحركة معها، وهو ما أدى بهم إلى وصفها بالساكنة، فنحن كدارسين ندعي التزامنا وتقيدنا بالمنهج العلمي لا ينبغي لنا إطلاق أحكام مجحفة بحق الدرس اللغوي القديم؛ لأن مصدره الأساس هو القرآن الكريم، والقرآن الكريم صالح لكل زمان ومكان، إضافة إل أننا لم نستقري بعد كل ما قدمه اللغويون العرب القدامى؛ لأننا لم نستغرق كل ما كتبوه، ومثل هذا القصور لا يسمح لنا بالحكم على دراسة القدامى أو على منهجهم، ونقول إنه قاصر عن الأداء معتمد الرسم والخط،فالأولى بنا بدل توجيه الأحكام أن نستقرئ تراثنا ونحاول فهمه ودراسته انطلاقا من اللغة ذاتها قبل أن نقابل ظاهره بالدراسات الأخرى سواء العربية الحديثة أم الغربية.

هوامش البحث :

1- ميشال زكريا ، الألسنية " علم اللغة الحديث: مبادؤها وأعلامها، ص: 153.
2ـ محمود فهمي حجازي، علم اللغة العربية، ص: 227 .
3ـ بارتيل مالبرج ، علم الأصوات، ص: 87.
4 - الزجاجي ، الجمل في النحو، ص: 273، وابن عصفور، شرح جمل الزجاجي، 2/ 347 .
5ـ تمام حسان، الأصول في النحو، ص: 101 .
6ـ نفسه، ص: 101 .
7ـ نفسه، ص: 102ـ 103 .
8ـ ينظر : عبد الجليل مرتاض، في مناهج البحث اللغوي، ص: 42 .
9ـ أبو السعود أحمد الفخراني، أصوات القرآن الكريم "منهج دراستها عند المرعشلي في كتابيه: جهد المقلّ وبيانه "، ص:137.
10ـ تمام حسان، الأصول في النحو، ص: 109.
11ـ نفسه، ص: 109ـ 110.
12ـ نفسه، ص: 110 .
13ـ في مناهج البحث اللغوي، ص: 37ـ 38.
14 - يُنظر: صلاح الدين حسن، المدخل إلى علم الأصوات "دراسة مقارنة "، ص: 99.
15 - الفراء، معاني القرآن، 1/ 99 ، مكي الصقلي، تثقيف اللسان وتنقيح الجنان، ص: 309.
16 - المبرد، المقتضب، 1/ 622 .
17ـ ابن جني، ما يحتاج إليه الكاتب من مهموز ومقصور وممدود، ص: 90.
18 - الفرابي، كتاب الحروف، ص: 202 .
19 - ابن عربي، الفتوحات المكية، 1/ 330 ، 2/ 149 .
20ـ الفراء، معاني القرآن، 1/60.
21 - الأخفش، كتاب العروض، ص: 114.
22 - الفراء، معاني القرآن، 1/ 60 .

23 - سر صناعة الإعراب، 1/ 55 ، وأبو عمرو الداني، المحكم في نقط المصاحف، ص: 119، وشرح جمل الزجاجي، 2 / 324 ، 326.

24 ـ ينظر: سهام موساوي، الضوابط اللغوية للتعرف الآلي على الخط اليدوي العربي "رسم الهمزة العربية أنموذجا "، ص: 66 .

25 - البطليوسي، الاقتضاب في شرح أدب الكتّاب، 2/ 130.

26 - الفتوحات المكية، 1/ 270 .

27 - ابن عربي، الرسائل، ص: 85، والفتوحات المكية، 1/ 327.

28 - ابن عربي، المبادي والغايات في معاني الحروف والآيات، ص: 71.

29 - ابن جني، سر صناعة الإعراب، 1/ 56، و نظر : ابن جني ، المقتضب من كلام العرب في اسم المفعول من الثلاثي المعتل العين، ص: 123.

30 - التفتازاني، شرح مختصر التصريف العِزّي، ص: 51.

31 - نفسه، ص: 51 .

32 ـ ابن حامي، ملاحن القراء، ص: 146.

33 - إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، ص: 116.

34 ـ رمضان عبد الله، أصوات اللغة العربية بين الفصحى واللهجات، ص: 65.

35 ـ نفسه، ص: 65.

37 ـ المقتضب ، 172/1 .

38 - يُنظر: حسن سري، الرسم العثماني للمصحف الشريف: مدخل ودراسة، ص: 157.

39 ـ هو علي بن محمد نور الدين الملا الهروي القاري، فقيه حنفي ، ولد في هراة وسكن مكة و توفي بها ، الأعلام، 12/5.

40 ـ ينظر: محمود محمد عبد المنعم الغند، اللمعة البدرية شرح متن الجزرية، ص: 16.

41 - إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، ص: 39 ، وحسام سعيد النعيمي، أبحاث في أصوات العربية، ص:197 ، وينظر: عبد المقصود محمد عبد المقصود، دور علم الأصوات في تفسير قضايا الإعلال في العربية، ص: 46 – 52.

42 - إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، ص: 39.

43 - إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، ص: 39 ، وأبحاث في أصوات العربية، ص: 97 ، وعبد المقصود محمد عبد المقصود، دور علم الأصوات في تفسير قضايا الإعلال في العربية، ص: 52.

44 - المحكم في نقط المصحف، ص: 54 .

45 - سر صناعة الإعراب، 1/ 34.

46 - نفسه، 1/ 35 .

47 - سر صناعة الإعراب، 1/ 38.

48 - نفسه، 1/ 43 .

49 - سر صناعة الإعراب، 1/ 45 – 46 .

50 ـ ابن الدهان، الفصول في القوافي، ص: 40.

51 - إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، ص: 39.

52 - سر صناعة الإعراب، 1/ 67.

53 ـ ينظر: الكندي، رسالة في استخراج المعمى، ص: 237، والفارابي، الموسيقى الكبير، ص: 1072، وابن سينا، رسالة أسباب حدوث الحروف، ص:21 ـ22.

54 - رسالة في استخراج المعمى، ص: 236 – 237 .

55 - نفسه، ص: 239.

56 ـ خير الدين سيب، الأسلوب والأداء في القراءات القرآنية دراسة صوتية تباينية، ص: 240.

57 ـ سيبويه، الكتاب ، 4/279-312، والمقتضب ، 1/231-259 ، وابن جني، الخصائص، ص: 518،731 ، وسر صناعة الإعراب، 1/56-57 ، وابن جني، المنصف، ص: 258 ، 262 ، 273 ، والفصول في القوافي، ص: 31 ، والمعري، رسالة الصاهل والشاحج ،ص: 600 والمعري، شرح اللزوميات، ص: 223 ، والبطليوسي، الحلل في شرح الخلل الواقع من أبيات الجمل، ص: 302 ، والفتوحات المكية ، 1/276- 2/139 ، 2/159 ، 12/276 ، والمبادي والغايات في معاني الحروف والآيات، ص: 48 ، وينظر: ابن عربي، حكم الفصوص والفتوحات المسمى: مجمع البحرين في شرح الفصين، ص: 117.

58 ـ المبادي والغايات في معاني الحروف والآيات، ص: 113.

59 ـ براجستراسر، التطور النحوي للغة العربية، ص: 53.

60 ـ سعد عبد العزيز مصلوح، في النّقد اللساني"دراسات ومثاقفات في مسائل الخلاف، ص : 142.

61 ـ ينظر: محمد فتوح أحمد، الرمز والرمزية في الشعر المعاصر، ص: 364.

62 ـ داود عبده، الدراسات الصوتية في اللغة العربية بين الوصف والتفسير، ص: 47.

63 ـ ابن الطحان، شرح الأنباء في التجويد، ص: 77.

64 ـ رسالة الكندي في استخراج المعمى، ص: 215 ، 222 ـ 223 ، 236 ـ 237 .

65 ـ الكتاب ، 279/4.

66 ـ المقتضب ، 338/1.

67 ـ نفسه، 231/1.

68 ـ نفسه، 15/1.

69 ـ المقتضب، 237/1.

70ـ المنصف "شرح كتاب التصريف"، ص: 395.

71 ـ نفسه، ص: 395 .

72 ـ ابن جني، المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، 148/2.

73 ـ عبد الغفار حامد هلال، تجويد القرآن الكريم من منظور علم الأصوات الحديث، ص: 29.

74 ـ عبد القادر عبد الجليل، علم الصرف الصوتي، ص: 93.

مكتبة البحث:

1 ـ إبراهيم أنيس ، الأصوات اللغوية ، مكتبة الأنجلو مصرية، ط4، 1971.

2 ـ الأخفش، أبو الحسن سعيد بن مسعدة (ت 215 هـ)، كتاب العروض، تحقيق وتقديم: أحمد محمد عبد الدايم عبد الله، مكتبة الزهراء، القاهرة، مصر، 1989.

3 ـ براجشتراسر Bergastrasser، التطور النحوي للغة العربية، ترجمة:رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة ـ مصر، ط2، 1994.

4 ـ البطليوسي، أبو محمد عبد الله بن السيد(ت 521 هـ)، الاقتضاب في شرح أدب الكتاب، تحقيق: مصطفى السقا، ومحمد عبد المجيد، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1996.

- الحلل في إصلاح الخلل الواقع من كتاب الجمل، تحقيق: سعيد عبد الكريم سعودي، دار الطليعة، بيروت - لبنان.

6- بارتيل مالبرج، علم الأصوات، تعريب: عبد الصبور شاهين، مكتبة الشباب، دط، دت.

7- التفتازاني، مسعود بن عمر سعد الدين (ت 771 هـ)، شرح مختصر التصريف العِزي في فن الصرف، شرح وتحقيق: عبد العال سالم مكرم، ط8، 1997.

8- تمام حسان، الأصول"دراسة ابستمولوجية لأصول الفكر اللغوي العربي"، دار الثقافة، الدار البيضاء - المغرب، ط .1991

9- ابن جني، أبو الفتح عثمان (ت392هـ)، الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، عالم الكتب، بيروت - لبنان، .2006

10- سر صناعة الإعراب، تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل، أحمد رشدي شحاتة عامر، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط2، .2007

11- المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات و الإيضاح عنها، تحقيق: علي النجدي ناصف، عبد الحليم النجار، عبد الفتاح شلبي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، .1999

12- المقتضب من كلام العرب في اسم المفعول من الثلاثي المعتل العين"، تحقيق: عبد المقصود محمد عبد المقصود، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة - مصر، ط1، 2006 .

13- المنصف، تحقيق: محمد عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،1999.

14- ما يحتاج إليه الكاتب من مهموز ومقصور وممدود، تحقيق: عبد الباقي الخزرجي، دار الشهاب، باتنة، الجزائر، دط، دت.

15- حسن سري، الرسم العثماني للمصحف الشريف" مدخل ودراسة"، مركز الإسكندرية، ط1، 2000.

16- حسام سعيد النعيمي، أبحاث في أصوات العربية، دار الشئون الثقافية العامة، بغداد - العراق، ط1، . 1998

17- ابن حامي، كتاب ملاحن القراء، تحقيق: محمد عبد الله بن عمر، دار الفكر، دط، دت.

18- خير الدين سيب، الأسلوب والأداء في القراءات القرآنية دراسة صوتية تباينية، دار الكلم الطيّب، دمشق، ط1، .2007

19 ـ ابن الدّهان، أبو محمد سعيد بن المبارك (ت569هـ)، الفصول في القوافي، تحقيق: محمد عبد المجيد الطويل، دار غريب، القاهرة، ط1، 2005.

20 ـ الداني، أبو عمرو عثمان بن سعيد بن عثمان (ت 444 هـ)، المحكم في نقط المصحف، تحقيق: عزة حسن، مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم، دمشق، سوريا، .1960

21 ـ داود عبده، الدراسات الصوتية في اللغة العربية بين الوصف والتفسير، ملتقى تقدّم اللسانيات في الأقطار العربية، وقائع ندوة جهوية، أبري، 1987، الرباط، دار الغرب الإسلامي، بيروت ـ لبنان، ط1، .1991

22 ـ رمضان عبد الله ، أصوات اللغة العربية بين الفصحى واللهجات، مكتبة بستان المعرفة، الإسكندرية، ط1، .2006

23 ـ الزجاجي، أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن أبي سعيد (ت 337 هـ)، الجمل في النحو، تحقيق: علي توفيق الحمد، مؤسسة الرسالة، دط ، دت.

24 ـ الزركلي، خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت ـ لبنان، ط7، .1986

25 ـ سعد عبد العزيز مصلوح، في النقد اللساني "دراسات و مثاقفات في مسائل الخلاف"، عالم الكتب، القاهرة، ط1، .2004

26 ـ سهام موساوي، الضوابط اللغوية للتعرف الآلي على الخط اليدوي العربي "رسم الهمزة العربية أنموذجا "، رسالة تقدّمت بها الطالبة لنيل شهادة الماجستير في اللسانيات التطبيقية، تلمسان ـ الجزائر، .2007 ـ 2006

27 ـ سيبويه عمرو بن عثمان بن قنبر (ت 180هـ)، الكتاب، تعليق: إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1999.

28 ـ ابن سينا، أبو علي الحسين (ت 428هـ)، رسالة أسباب حدوث الحروف، مراجعة: طه عبد الرءوف سعيد، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، .1978

29 ـ صلاح الدين حسن، المدخل إلى علم الأصوات"دراسة مقارنة"، دار الإتحاد العربي، دط، دت.

30 ـ ابن الطحان، عبد العزيز الاشبيلي السماتي المقرئ (ت 561 هـ)، شرح كتاب الإنباء في تجويد القرآن، تحقيق: فرغلي سيد عرباوي، مكتبة أولاد الشيخ للتراث، ط1، .2009

31 ـ عبد الجليل مرتاض، في مناهج البحث اللغوي، دار القصبة، حيدرة ـ الجزائر، 2003.

32 ـ عبد الغفار حامد هلال، تجويد القرآن الكريم من منظور علم الأصوات الحديث، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، 2007.

33 ـ عبد القادر عبد الجليل، علم الصرف الصوتي، أزمنة للنشر والتوزيع، عمان ـ الأردن، ط1 ، 1998.

34 ـ عبد المقصود محمد عبد المقصود، دور علم الأصوات في تفسير قضايا الإعلال في العربية، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2007.

35 ـ ابن عربي، حكم الفصوص والفتوحات، المسمى مجمع البحرين في شرح الفصين، شرح: ناصر ابن الحسين الكيلاني، الآفاق العربية، 2007.

ـ الرسائل، وضع حواشيه: محمد عبد الكريم الثمري، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ط1، 2008.

ـ الفتوحات المكية، تحقيق: عثمان يحيى، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بالتعاون مع معهد الدراسات لعليا في السوربون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1994.

ـ المبادي والغايات في معاني الحروف والآيات، ويليه : "العقد المنظوم في تحوية الحروف من الخواص والعلوم"، تحقيق: سعيد عبد الفتاح، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ط1، 2006.

39 ـ ابن عصفور (ت 699 هـ)، شرح جمل الزجاجي"الشرح الكبير"، تحقيق: صاحب أبو جناح، دط، 1982.

40 ـ الفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله (ت 207 هـ)، معاني القرآن، تقديم وتعليق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان.

41 ـ الفخراني أبو السعود، أصوات القرآن الكريم "منهج دراستها عند المرعشلي في كتابيه: جهد المقلّ وبيانه، مطبعة الأمانة، مصر، ط1، 1991.

42 ـ الفارابي، أبو نصر (ت 339 هـ)، كتاب الحروف، تحقيق: محسن مهدي، دار المشرق، بيروت ـ لبنان، 1970.

43 ـ الموسيقى الكبير، تحقيق وشرح: غطاس عبد الملك خشبة، مراجعة: محمود أحمد الحنفي، دار الكتاب العربي، القاهرة، دط، دت.

44 ـ الكندي يعقوب بن اسحق (ت 260 هـ)، رسالة في استخراج المعمى، ضمن كتاب علم التعمية واستخراج المعمّى عند العرب، تحقيق: محمد مراياتير، ويحيى مير علم، ومحمد حسان الطيان، تقديم:

شاكر القحام، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دط، دت.

45ـ المبرد، أبو العباس(ت285هـ)، المقتضب، تحقيق: حسن حمد، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، 1999.

46ـ محمد فتوح أحمد، الرمز والرمزية في الشعر المعاصر، دار المعارف، ط3، 1984.

47ـ محمود فهمي حجازي، علم اللغة العربية "مدخل تاريخي مقارن في ضوء التراث واللغات السامية"، مكتبة غريب، الفجالة ـ القاهرة، دط، دت.

48ـ محمود محمد عبد المنعم الغند، اللمعة البدرية شرح متن الجزرية، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، 2006.

49 ـ المعري، أبو العلاء (ت 449هـ)، رسالة الصاهل و الشاحج، تحقيق: عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ، دار المعارف، القاهرة ـ مصر، ط2، 1984.

50 ـ شرح اللزوميات، تحقيق: سيدة حامد، ومنير المدني، وزينب القوصى، وفاء الأعصر، مراجعة: حسين نصار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1992.

51ـ مكي الصقلي (ت 501 هـ)، تثقيف اللسان وتنقيح الجنان، تحقيق، عبد العزيز مطر، القاهرة، 2004.

52ـ ميشال زكريا، الألسنية "علم اللغة الحديث: مبادؤها وأعلامها، بيروت ـ لبنان، 1980.

المصطلح الفلسفي بين معاجم الهيئات ومعاجم الأفراد

- دراسة مقارنة-

أ/ جويدة معبود
(ج. الجزائر2)

تمهيد:

إن موضوع المصطلح العلمي وضعا وتوحيدا، من المواضيع التي مازالت تطرح إلى اليوم، وقد يرجع السبب في ذلك إلى التقدم السريع الذي عرفته العلوم والتقنيات في مختلف الميادين، فنجم عنه ظهور عدد كبير من الألفاظ الدالة عن المفاهيم العلمية الجديدة مع تباين ملاحظ في طرق صياغة هذه الألفاظ، التي انكب الباحثون واللغويون على دراستها في بعض الحقول العلمية الدقيقة كالفيزياء والطب وغيرها...

ونظرا لقلة الدراسات الخاصة بمصطلحات العلوم الإنسانية، أردنا بهذه الدراسة التركيز على واقع المصطلح الفلسفي في الوطن العربي، بالنظر في عينة من المعاجم المعيارية ومدى العمل بها من قبل مؤلفي المعاجم الأخرى، وقد طرحنا مجموعة من التساؤلات الآتية:

- هل استفاد مؤلفو مجمع اللغة العربية بالقاهرة من المعاجم التي ألفت من قبل؟
- وهل استفاد مؤلفو المعاجم الفلسفية من المصطلحات التي أقرها مجمع اللغة العربية بالقاهرة؟
- أ تكاملت أعمال الهيئات العلمية اللغوية العربية المكلفة بالتوحيد فيما بينها؟

والقصد من الأسئلة السابقة معرفة التكامل الموجود بين الجهود المعجمية في مجملها، ومدى انتصار معاجم الأفراد لمصطلحات بيئة لغوية معينة دون غيرها؟

وقبل ولوجنا في هذا الموضوع رأينا عرض مراحل ظهور المصطلح الفلسفي في اللغة العربية.

نظرة تاريخية لعملية ظهور المصطلحات الفلسفية في اللغة العربية وتطورها وأسباب تباينها:

نشأ المصطلح الفلسفي بنشأة الفلسفة التي مرت بمرحلتي الترجمة والإبداع ، فقد بدأ المترجمون نشاطهم بترجمة المؤلفات اليونانية إذ لم يكونوا مجرد مترجمين لها، فقد أثر عن بعضهم مثل "حنين بن اسحق" مؤلفات علمية وفلسفية هامة، غير أن مؤلفات هؤلاء المترجمين كما يرى الدكتور ماجد فخري " مجاميع تفتقر إلى الأصالة، فهي تضم أفكارا التقطوها اتفاقا من كتب كانوا قد أنجزوا ترجمتها" [1]، وعليه فقد كان المصطلح الفلسفي في عهدهم مضربا غير مستقر.

ولما جاء الكندي -صاحب أول رسالة في الحدود الفلسفية كما يرى بعض الباحثين، مهد الطريق لدراسة الفلسفة عند المسلمين، في حين يرى البعض الآخر أسبقية كتاب الحدود لجابر ابن حيان[2]

و إذا قابلنا بين المصطلحات التي استعملها المترجمون في نقل المفاهيم الفلسفية عند الفلاسفة اليونانيين، وخاصة اسحق بن حنين، والمصطلحات التي استعملها الكندي نرى أن الكندي قد تابعهم في معظمها وابتدع مصطلحات أخرى اختصت بها لغته ومنها: الأيس، والطينة، والتوهم، والجرم، والروية، والملازقة، الذحل، والنجدة ... تلك المصطلحات التي أهمل بعضها وحل محلها البعض الآخر مع مرور الزمن وازدهار الدرس الفلسفي عند الفارابي[3]

واستقر المصطلح الفلسفي مع ابن سينا والغزالي، إذ يقول في هذا السياق الدكتور عبد الأمير الأعسم: "إن المصطلحات الفلسفية قد استقرت في الاستعمال الفلسفي بالحالة التي عرضها الغزالي، بعد أن تخلصت اللغة الفلسفية ابتداء من ابن سينا من الألفاظ القلقة غير الثابتة التي شاع استعمالها قبل الفارابي، وهنا، يجب أن ينظر دائما إلى لغة الغزالي باعتبارها ممثلة لمرحلة نضج اللغة الفلسفية المعجمية.." [4]

فنلحظ مما سبق أن المصطلح الفلسفي قد مر بعدة مراحل أولها مرحلة نشوئه بالاستناد إلى الترجمة والتعريف، مع محاولة نقل الألفاظ من معناها العام إلى المعنى الخاص، وهي ممثلة في أعمال جابر بن حيان والكندي، وثانيها مرحلة تحديده وانتشاره ، وثالثها مرحلة ثبوته واستقراره في مؤلفات الفلاسفة ..وهي ممثلة في أعمال ابن سينا، فالغزالي[5] دون أن ننسى مساهمة المؤلفين المتأخرين في وضع المصطلح

الفلسفي كالجرجاني في كتابه التعريفات والتهانوي في كشاف اصطلاحات الفنون والمحدثين في وضع المعاجم الفلسفية...

إن مجمل الأعمال السابقة التي أنجزت عن المصطلح الفلسفي، تبين لنا جدية حركة التوليد هذا من ناحية الكم، أما من ناحية النوع فقد كانت المصطلحات الفلسفية تتسم ببعض النقائص، فمعظمها كان في بداية نشأته يونانيا واتصف بالغرابة لكن مع مرور الوقت أعطي لها بدائل...

الدراسة التطبيقية:

بعد هذا العرض الموجز عن نشأة المصطلح الفلسفي في اللغة العربية، ندخل إلى الجانب التطبيقي من الدراسة واخترنا لذلك عينة من المعاجم الفلسفية وهي كالآتي:

المعجم الفلسفي، مراد وهبة وآخرون، دار الثقافة الجديدة، ط2، القاهرة، 1971

المعجم الفلسفي، جميل صليبا، دار الكتاب اللبناني، لبنان، 1982

المعجم الفلسفي، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، القاهرة، 1983

معجم المصطلحات الفلسفية،عبده الحلو، مكتبة لبنان، ط1، 1994

المعجم الموحد لمصطلحات العلوم الإنسانية،(الفلسفة، الاجتماع والأنثروبولوجيا، التربية)، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، 1997

المعجم الفلسفي، معجم المصطلحات الفلسفية، مراد وهبة، دار قباء للطباعة والنشر،1998،القاهرة..

المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، عبد المنعم الحفني، مكتبة مدبولي، ط3، 2000، القاهرة.

وقمنا بجرد المفاهيم العلمية المشتركة* مع مقابلاتها العربية من كل معجم، بعدها قارنا بين المصطلحات الفلسفية الواردة في معجم المجمع مع مصطلحات المعاجم التي سبقته كل على حدة، ثم قارنا بين مصطلحات معجم مجمع القاهرة مع المعاجم التي صدرت بعده، وفي الأخير قارنا بين المصطلحات الموجودة في المعاجم الأربعة الأخيرة مجتمعة مع مصطلحات معجم المجمع، فتوصلنا إلى النتائج الآتية:

بلغ عدد المفاهيم الفلسفية في المعجم الفلسفي **لجميل صليبا** والتي وحدت مقابلاتها مع معجم المجمع ثمانية وسبعين (78) مفهوما من مجموع مئة وواحد (101) مفهوم أي نسبة 77,22%، بينما بلغ عدد المفاهيم التي وحدت مقابلاتها بين المعجم الفلسفي **لمراد وهبة وآخرين** ومعجم المجمع واحدا وستين (61) مفهوما من مجموع مئة وواحد (101) مفهوم أي نسبة 60,39%.

فالملاحظ أن المعجم الفلسفي لمجمع اللغة العربية بالقاهرة قد وظف نسبة كبيرة من المقابلات التي اقترحها المعجم الفلسفي **لجميل صليبا** مقارنة مع ما اقترحه المعجم الفلسفي **لمراد وهبة وآخرين**، على الرغم من أننا كنا نعتقد في البداية أن معجم المجمع سيستفيد أكثر من المعجم الذي ألفه جماعة من المصريين بحكم البيئة الواحدة، وقد يرجع السبب في ذلك لكون أن المعجم الفلسفي **لصليبا** قد صدر في سنة قريبة، من معجم المجمع فهما يتفقان في الكثير من المفاهيم العلمية، بينما المعجم الفلسفي **لوهبة وآخرين** قد صدر سنة 1971 وبالتالي نجد الكثير من المفاهيم التي لم يوردها هذا الأخير وأشار إليها معجم المجمع.

وبعد مقارنتنا مفاهيم معجم المجمع مع المعاجم التي لحقته، توصلنا إلى أن أكبر نسبة من المفاهيم التي وحدت مقابلاتها مع معجم المجمع قد ظهرت مع المعجم

الفلسفي **لمراد وهبة** والمعجم الشامل **لعبد المنعم الحفني** بنسبة 73,26% و 71,28% على التوالي ثم يليهما معجم المصطلحات الفلسفية **لعبده الحلو** بنسبة 56,43% في حين تقدر هذه النسبة مع المعجم الموحد ب 51,48%.

مما سبق نستنتج أن المعجمين: المعجم الفلسفي **لمراد وهبة** والمعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة **لعبد المنعم الحفني**، قد استعانا كثيرا في وضع المقابلات العربية لمفاهيم معجميهما بمصطلحات مجمع اللغة العربية بالقاهرة مقارنة بمعجم المصطلحات الفلسفية **لعبده الحلو** وذلك بحكم البيئة اللغوية الواحدة.

أما بالنسبة للمعجم الموحد فقد لاحظنا أيضا أن نسبة المفاهيم الموحدة مقابلاتها مع معجم المجمع والتي بلغت 51,48% تفوق نسبة المفاهيم غير الموحدة مقابلاتها العربية وهذا ما تصبو إليه الهيئات والمجامع اللغوية وهو محاولة توحيد مصطلحاتها قدر الإمكان، إلا أننا قد لاحظنا أن هناك خمسا وعشرين (25) مفهوما قد ورد في المعجم الموحد ولم يرد في معجم المجمع وذلك لبعد المدة بين صدورهما، وبالتالي ظهور مفاهيم جديدة نص عليها المعجم الموحد.

كما بينت لنا المقارنة بين المعاجم الأربعة الأخيرة مجتمعة مع معجم المجمع أن:

- عدد المفاهيم التي وحدت مقابلاتها كليا قد بلغ أربعة وثلاثين(34) مفهوما بنسبة33,66 %، بينما بلغ عدد المفاهيم التي وحدت مقابلاتها جزئيا مع معجم المجمع ثلاثة وخمسين (53) مفهوما بنسبة 52,47%، وأخيرا فإن عدد المفاهيم غير الموحدة مقابلاتها هو أربعة عشر (14) مفهوما بنسبة 13,86%

فالملاحظ أن نسبة المفاهيم الموحدة مقابلاتها جزئيا قد فاقت النسبتين الأخريين.

- وجود توحيد دون لفظ آخر منافس، وهو خاص بالمصطلحات التي وحدت كليا بين المعاجم الأربعة الأخيرة ومعجم المجمع ومن أمثلة ذلك: "induction" "استقراء"، "evidence" "بداهة"، "contradiction" "تناقض"، "nature" "طبيعة"، "**agnosticisme**" "لا أدرية"، "irrationnel" "لا معقول"، "absolu" "مطلق"، "prémisse" "مقدمة"،"intuition" "حدس"، "i**mmatérialisme**" "لا مادية"، "**syllogisme**" "قياس"، "**phénomène**" "ظاهرة"، "**généralisation**" "تعميم"،...،

فمعظم هذه المصطلحات شائع ومعروف وموجود في كتب التراث ولعل ذلك هو سبب انتشاره وتوحيده، وهذا ما توصل إليه الدكتور الطاهر ميلة في دراسته اللغوية لطبيعة المصطلحات اللسانية الموحدة وما توصلت إليه في دراستي لطبيعة المصطلحات الطبية الموحدة[6].

- هناك توحيد مع وجود مرادف آخر إضافي كما يوضحه الجدول الآتي:

المعجم الشامل للحفني	**المعجم الفلسفي لمراد وهبة**	**المعجم الموحد لمكتب تنسيق التعريب**	**معجم المصطلحات الفلسفية لعبده الحلو**	**المعجم الفلسفي لمجمع اللغة اللغة العربية بالقاهرة**	المفاهيم:
فضيلة	فضيلة	فضيلة	فضيلة خاصة	فضيلة	Virtue vertu
تجريد	تجريد	تجريد	تجريد نزع	تجريد	Abstraction abstraction
زهد	زهد	زهد	زهد تقشف	زهد	**Ascetism** **ascétisme**

فالملاحظ من خلال الجدول أن المعجم الفلسفي لمجمع اللغة العربية والمعجم الموحد لمكتب تنسيق التعريب بالرباط والمعجم الفلسفي **لمراد وهبة** وأيضا المعجم الشامل **لعبد المنعم الحفني** قد قابلوا المفهوم "virtu" ب "الفضيلة"، وهو ما وجدناه مع معجم المصطلحات الفلسفية **لعبده الحلو** مع إضافة مرادف آخر وهو "خاصة"، وكذلك الشأن بالنسبة للمفهومين "ascétisme" و"abstraction" .

- وجود ظاهرة تعدد المقابلات العربية للمفهوم الواحد وهو ما منع توحيدها، فنتج عن ذلك ما يسمى بالترادف ومن أمثلة ذلك نجد: المفهوم "contemplation" الذي تمت مقابلته ب "تأمل"، "مشاهدة"، "تفكر"، "تدبر." والمفهوم "concomitance" الذي قوبل ب "مساوقة"، "متساوقة"، "تلازم"، "اقتران"، والمفهوم "axiologie" الذي قوبل بالمصطلحات الآتية "نظرية القيم"، "أكسيولوجيا"، "فلسفة القيم"، "علم القيم"، وأخيرا المفهوم "**noumène**" الذي تمت مقابلته ب "نومن"، "نومين"، "الشئ في ذاته"،"جوهر" ...
- هناك في بعض الأحيان اختلاف كبير في المعجم الواحد، حيث يذكر هذا الأخير عدة مقابلات للمفهوم الواحد وهو ما وجدناه في معجم المصطلحات الفلسفية لعبده الحلو مع المصطلح"croyance"، الذي قابله بالمصطلحات الآتية "ظن"، "إيمان"، "معتقد" "عقيدة"، و المصطلح "opposition" الذي أعطاه المقابلات الآتية "تقابل"، "مقاومة"، "معارضة"، والمصطلح "argument" الذي تمت مقابلته ب "حجة"، "دليل"، "برهان"،...

- بعض المقابلات ترد أحيانا معربة وأحيانا أخرى عربية ناتجة عن الترجمة ومن أمثلة ذلك نجد:

"علم الجمال" و"استطيقا" في مقابل "**esthétique**"، " أنطولوجيا"و"علم الوجود" في مقابل، "ontologie"،"ما بعد الطبيعة" "ميتافيزيقا" في مقابل "métaphysique"، "مخيلة" و"فنطاسيا" في مقابل " fantaisie"، "أكاديميا" و "أقادميا" ، في مقابل "académie"، "جدل" و"ديالكتيك" في مقابل"**dialectique**"، "علم الظواهر"، "فينومينولوجيا" في مقابل "phénoménologie" ...

ونستنتج مما سبق أن المصطلح الفلسفي يعاني أيضا في عصرنا الحالي من نقائص متمثلة في عدم توحيده وذلك نتيجة لعوامل كثيرة أهمها:

- تعدد الجهات و الهيئات التي تضع المصطلحات و تنشرها.
- التباين الكبير في آراء واضعي المصطلحات.
- نقص الاتصال بين النقلة و المؤلفين .

إن تعدد الجهات التي تضع المصطلح الفلسفي من مجامع لغوية ومنظمات ومراكز عربية مثل المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ومكتب التنسيق التعريب ومؤلفون وكتاب ومترجمون كان له الأثر الواضح في اضطراب المصطلح الفلسفي وذلك لقلة التنسيق بين هذه الجهات، فلماذا هذا الاختلاف في وضع المصطلح الفلسفي على الرغم من أن وضعه هو من مهمة المجامع اللغوية بالدرجة الأولى وللإجابة عن هذا : نقول ربما يعود السبب إلى بطء المجامع في الاستجابة لمتطلبات سريعة و هو أمر منطقي فهل ننتظر حتى تضع المجامع مصطلحاتها و هو

ما يذهب إليه محمد هيثم الخياط في قوله : " إن قضية المصطلح قضية بالغة الخطر كبيرة الشأن، و إذا كان من غير الجائز أن يترك وضع المصطلحات الجديدة لرجال الإعلام، فإنه من غير الجائز للعلميين المختصين كذلك أن يبطئوا بطء السلحفاة في صوغ المقابل العربي للمصطلح المستجد وعلى رجال العلم و اللغة أن يبتكروا الوسيلة التي تضمن ذلك، فرجال الإعلام مشكورين لأنهم يبادرون إلى إيصال المعلومة إلى القارئ ولو بمصطلح مقارب، وهم إن أخطئوا فإنهم يجتهدون مؤجرون أجرا واحدا " (7).

أما فيما يتعلق بقضية نقص الاتصال بين النقلة و المؤلفين فهي من أهم أسباب اختلاف المصطلحات في الوطن العربي، ففي تباعدهم تتعدد المصطلحات و تزداد الصعوبة في محاولة توحيدها، وربما يرجع السبب في هذا الانقطاع إلى قصور وسائل الإعلام، فكثير من المصطلحات التي توضع في مصر يجهلها باحثو المغرب مثلا وكثير من المصطلحات التي توضع في لبنان لا يعرفها باحثو مصر، مما ينجم عن ذلك نقل كل بلد مصطلحات البلد الآخر و من هنا فإن غياب التواصل والتنسيق بين واضعي المصطلحات له أثر بارز في اختلافها وتعددها(8) .

وبالنسبة للسبب الثالث والمتمثل في تباين آراء واضعي المصطلحات فيظهر جليا أثناء انتقاء المصطلحات وصياغتها للتعبير عن المفاهيم العلمية، فمن الواضعين من يلجأ إلى تركها بلفظها الأجنبي معتقدا أن مثل هذا الأسلوب يضمن التداول الأحسن للمفاهيم، ومنهم من يرفض هذه الطريقة محاولا أن يجد لكل مفهوم أجنبي مقابلا عربيا، حرصا على نقاوة اللغة العربية(9)

فاختلاف الطريقتين أي التعبير عن مفهوم واحد بمصطلحين مختلفين أحدهما معرب وآخر عربي، يؤدي إلى التباس المضامين، ولذا يجب الحرص على أن يؤدى المعنى الواحد بمصطلح واحد خصوصا وأن الأفكار والحقائق العلمية كثيرة ومتعددة.

وفي هذا السياق يقول رشاد الحمزاوي: " .... إن المصطلحات العربية الحديثة في شتى العلوم متنوعة متخالفة، فيها من الاضطراب والتناقض ما يؤول إلى الفوضى المعجمية التي يمكن أن يكون لها أثر على تنظيم علومنا الناشئة وعلى بيداغوجيتنا المتعثرة ومنها على تفكيرنا العلمي" (10)

إن قضية عدم التوحيد سواء أ تعلق الأمر بالمصطلح في العلوم الطبيعية الدقيقة أم الإنسانية من أهم القضايا التي يجب أن تتضافر الجهود في حلها، وذلك بتجنب الاعتباطية في العمل الاصطلاحي وتنسيق العمل بين واضعي المصطلحات حتى يسهل التواصل بين البلدان العربية.

الهوامش:

(1) : انظر، محمد حسن عبد العزيز، المصطلح العلمي عند العرب، تاريخه، مصادره، نظريته، القاهرة، 2000، ص 55.

(2) : انظر، عبد الأمير الأعسم، المصطلح الفلسفي عند العرب (نصوص من التراث الفلسفي في حدود الأشياء ورسومها)، الدار التونسية للنشر، 1991، ص 42.

(3) :انظر، المرجع نفسه، ص 50.

(4) : المرجع نفسه، ص 103.

(5) :انظر، المرجع نفسه ص 104.

*: لم نكتف بالمفاهيم المشتركة بين المعاجم المذكورة، وإنما أضفنا عددا من المفاهيم غير المشتركة.

(6)انظر، الطاهر ميلة ،مقارنة المعجم الموحد لمصطلحات اللسانيات بعينة من المسارد المصطلحية،الآداب واللغات، مجلة تصدرها كلية الآداب واللغات، جامعة الجزائر، العدد 2 ، 2008، وانظر، جويدة معبود، المصطلحات الطبية الواردة في نشرات الأدوية -الجزائر والأردن وسوريا أنموذجا -(دراسة وصفية مقارنة)، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، 2007-2008، ص85.

(7) محمد هيثم الخياط، أهمية الترجمة في نشر العلم ورفع مستوى التعليم، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، العدد8، 1955، ص 48.

(8) إبراهيم كايد محمود، المصطلح ومشكلات تحقيقهwww.google.com ،، ص19، تاريخ التحديث، 2007 بتصرف.

(9): صادق الهلالي، تطوير منهجية وضع المصطلحات العلمية ورموزها ومختصراتها وتوحيدها وإشاعتها، اللسان العربي، مجلة يصدرها المكتب الدائم لتنسيق التعريب في العالم العربي، الرباط، العدد39، 1995، ص 85.

(10) محمد رشاد الحمزاوي، العربية والحداثة، أو الفصاحة فصاحات، منشورات المعهد القومي لعلوم التربية، تونس، 1982، ص85.

أهمية الربط بين علم النحو والعلوم الأخرى لاستخلاص درس نحوي ميسّر.

أ. عقيلة لعشبي
(ج. تيزي وزو)

نُظر إلى اللغة العربية في الماضي على أنّها من علوم الأدوات والوسائل وليست من علوم الغايات، والذين نظروا إليها هذه النظرة رأوا أنّ مستوياتها اللغوية تتكامل، لا ينبغي الفصل بينها، أو الاكتفاء بمستوى واحد منها في دراسة قضيةٍ ما، إذ من المفيد الاستعانة بها كلها في الكشف عن النظام اللغوي، ومن المهم أيضاً معرفة شاملة لها.... ويكفي لذلك أن تتصفح الكتاب لسيبويه لتلتمس هذا التداخل والشمولية ماثلةً أمامك. ولم تنفصل العلوم اللغوية فيما بينها إلاّ بعد القرن الثالث هجري عندما دخلت الدراسة اللغوية مرحلة التقليد والاجترار، وانقسم العلماء إلى فريقين: فريقٌ مهتمٌ بدلالة النصوص والمعاني والأغراض التي تفيدها ومولياً الاهتمام لكل العلوم اللغوية من أصواتٍ وصرفٍ ونحوٍ وبلاغةٍ وغيرها في دراسة النص، وفريقٌ حريصٌ أشد الحرص على السلامة اللغوية البحتة، على موافقة اللغة للقواعد والمعايير، ولا يلتفت إلى ما وراء النص من المعاني والأغراض الكامنة، وقد مهدّ هذا الفريق الثاني الطريق واسعاً لانفصال النحو عن باقي العلوم، ومن ثمة انفصال معظم العلوم عن سائرها، وظهور بوادر التخصص والتحديد في كلّ علمٍ. وما يزال اليوم

بعض الدارسين على هذا النحو من الفصل بين علوم اللغة، بهدف تحديد مجال الدراسة والتخصص بدقة، ومازال البعض الأخر على مراعاة ذلك التكامل السائد قديماً بين علوم المعرفة العربية لما لها من تلاحمٍ عضوي وطبيعي فيما بينها كما أثبتته اليوم الدراسات الحديثة للغة التي تجمع بين كل الفروع اللغوية من صوتية وصرفية ونحوية وبلاغية للوصول إلى فهم دلالة صحيحة وثرية للنص، شأن ذلك شأن الجسم الذي لا يمكن فهم وظيفة عضوٍ منه إلاّ إذا أُلِمّ بمّا له من علاقة التقارب والأخوة بباقي الأعضاء.

وقد تبنى المجمع المصري للغة العربية هذا الرأي الثاني، القائل بضرورة هذا التلاحم والاستدعاء بين العلوم اللغوية؛ إذ أراد سبق كل دراسة لغوية بالمستوى الصوتي الذي يتناول بالبحث الأصوات، ثم الصرفي الذي يتناول الكلمة خارج التركيب ومختلف تغيّراتها ثم التركيبي كونه يدرس نظام بناء الجملة ودور كل جزءٍ في هذا البناء، ثم البلاغي، ثم الدلالي كونه حصيلة هذه المستويات كلها والذي يتناول المعنى بكلّ جوانبه الذي يشكله الصوت والصرف والتركيب والمعجم والسياق... وأصدر هذا القرار أثناء اجتماع اتحاد المجامع اللغوية العلمية العربية في مدينة الجزائر عام 1976 في ندوة "**تيسير تعليم اللغة العربية**"[1] لمعرفته أنّ المستويات اللغوية كلها تفيد بعضها البعض، ويُتوصل بها مجتمعةً إلى تحليل وفهم الكثير من الظواهر اللغوية والنحوية بيسرٍ وسهولةٍ. ومعلوم أنّ المجمع المصري ليس كغيره، يتمتع بتزكية قراراته العلمية من قبل اتحاد المجامع اللغوية العربية، وبأحقية قبولها وضرورة تشريعها وتمثلها في جميع الأقطار العربية، فماذا عن هذه القرارات التي سنكشف عنها، هل استفادت منها وزارة التربية الوطنية في وضع مقرراتها المدرسية ؟ خصوصا أنّها صودق عليها في الجزائر، أي غير بعيد عنها...

1 ــ قرار ضرورة العناية بالنطق العربي (الأداء) ودراسة مجملة للأصوات قبل الدراسة الصرفية والنحوية :

اهتمّ قديماً بعلم الأصوات ـ إلى جانب النحاة ـ علماءُ التجويد في ترتيل القرآن الكريم وتحفيظه، وذلك بترتيبهم لمخارج الحروف أوالأصوات من أقصى الحلقِ إلى الشفتين، وتصويرهم لمخارج هذه الحروف تصويراً بمنتهى الدقة كقولهم مثلاً إنّ مخرج الهمزة والهاء من أقصى الحلق، والعين والحاء من وسطه، والغين والخاء من أعلاه... وتصويرهم الحرفَ بأوصافٍ توضح النطق به، وتُبيّن درجته من حيث الشدة واللين، والهمس أو الجهر، وغيرها مما يتعلق بالدراسة الصوتية للحرف، فهذه المعرفة الصوتية الخاصة بالحرف تساعد على صحة نطقه "**لذا لا بأس أن يُمرّن الأطفال في أول تعلّمهم على معرفة مخارج الحروف معرفةً سليمةً**[2]". ويرى الأستاذ شوقي ضيف أنّه من الضروري أن يكون ما في علم التجويد وما يماثله من الاهتمامات والدراسات الصوتية نصب الأعين في تعليم الناشئة اللغة العربية، ويبيّن سبب الاهتمام بهذه الدراسة في تشوه نطق العربية على ألسنة الشباب، فيقول: "**لأنّه يُلاحظ الآن على الشباب مضغُ الكلام وحذف بعض الحروف منه، وكأنّ عواملَ تعريةٍ ـ كعوامل التعرية في علم الجغرافيا ـ تُصيب الكلم على ألسنتهم، فتَنْحات منه حروفا وتسقط أخرى**"، ويضيف في تصوير هذا التشوه النطقي قائلاً: "**وكثيراً ما نعجب حين يكلمنا شابٌ، فإذا بنا لا نعرف ماذا يقول، لأنّه يتكلم بسرعةٍ، ولأنّ الحروفَ في كلماته لا تأخذ أماكنها السّوية من الحلْق واللسان وجوانب الفم وأعلاه والشفتين**" ويعود السبب في ذلك كما يرى إلى إهمال الاستفادة والانتفاع بهذا العلم في التعليم فيما أضافه قائلاً: "**ورأيي أنّ السبب في ذلك كله أنّنا أهملنا الانتفاع في تعليم النشء**

والشباب بعلم التجويد وقواعده في نطق الحروف وبيان دقائقها في المدّ وغيره، وما ينبغي أن يأخذه كل حرفٍ من وقتٍ لنطقه نطقاً سليماً[3]".

ويتسع مجال الدراسة الصوتية إلى رحابٍ أوسع بكثير من أن يتوقف على السلامة النطقية للحروف؛ لأنّ هذه الدراسة تساعد أيضاً على توجيه الدلالة الصرفية والنحوية وتوضيحها، ومن أمثلة ذلك ما تحظاه الأصوات الثلاثة من فتحة وضمةٍ وكسرةٍ وكذلك التنوين في العربية من أهميةٍ ودورٍ كبيرٍ في تمييز معاني الكلمات وتوجيه دلالتها، وما يتعلق أيضاً بظاهرتي الإعلال والإبدال الصوتيتين الصرفيتين، فالإعلال تغييرٌ على مستوى الصوائت بتحويل صائتٍ إلى صائتٍ آخرٍ أو بحذفه أو تغيير موضعه، والإبدال مقابله الذي يكون على مستوى الصوامت، لذا ففهم هاتين الظاهرتين يستدعي أولاً دراسة وفهماً للصوامت والصوائت التي هي موادٌ صوتيةٌ في طبيعتهما، ومن الظواهر والمصطلحات النحوية الأخرى التي تستدعي مقدمة ومعرفة صوتية مهمة لفهمها "التعذر" و"الثقل" وكذلك "اشتغال المحل بالحركة المناسبة"؛ حيث لا يمكن فهم هذه المصطلحات النحوية إلا إذا أُحيطت بدراسةٍ صوتيةٍ مهمةٍ توضحها وتستكشف أسرارها، فالتعذر هو عدم إمكانية إظهار حركات متوالية متشابهة، فيتم تقديرها، والسبب في ذلك هو كون الحرف الصحيح قد مدّ بما يعادل حركتين من جنسٍ واحدٍ، ومن المخرج نفسه، لذا لا يمكن إثبات الحركة بعد ذلك، وأمّا الثقل الخاص بالمنقوص فهو إمكانية إظهار الحركات صوتياً، غير أنّ ذلك يتسبب في الثقل؛ لأنّ الحرف الصحيح قد مدّ بما يخالف الحركة الموجودة من حيث الجنس والمخرج، لذا أمكن النطق بها، غير أنّ الانتقال نطقياً من الكسرة إلى الضمة في رفع المنقوص يسبب ثقلاً كبيراً "**ولما كان الثقل ممّا تمجه العربية تمّ تقدير هذه الحركات توخياً للخفة في النطق**[4]" وهكذا يمكن القول إنّ ظهور الحركات الإعرابية في العربية

وتقديرها قائمٌ على اعتباراتٍ صوتيةٍ تعتمد على الخفة أوالثقل في النطق، ليُعززَ بذلك القول إنّ علاقة النحو بالدرس الصوتي علاقةٌ وطيدةٌ لا يمكن إنكارها أو تجاوزها وإنّ المعرفة الصوتية للغة مهمةٌ قبل الشروع في الدراسة النحوية، فمن المظاهر النحوية التي تعزّز هذا الرأي وجود ظاهرة "التنغيم" في اللغة والتي معناها الارتفاع أو الانخفاض في الصوت الذي يشكل منحنى نغميا من شأنه أن يغيّر في معنى الجملة أو التركيب، والتنغيم وإن كان ذا طبيعةٍ صوتيةٍ إلاّ أنّه ذو وظيفةٍ نحويةٍ مميّزةٍ؛ إذ به يتم الحكم على جملةٍ ما بأنّها استفهامية من غير وجود أداة استفهام فيها، وغيرها من الجمل الإنشائية، وكذلك ذو وظيفةٍ دلاليةٍ بحسب ما يُفهم من الدلالات التي تترجمها النغمات حتى دون وجود الألفاظ أوالأدوات التي تدل على ذلك، من غير التنغيم[5]، ... وهكذا فإنّ الأمثلة لا تعد ولا تحصى حول التقاء علم الأصوات بعلم النحو، وكذلك بعلم الصرف خاصةً وأنّ الكثير من موضوعاته هي في الحقيقة موضوعات صوتية أكثر من صرفية؛ لأنّها تعتمد على الصوت أساساً في الدراسة وترتكز في جوهرها على المعطيات والحقائق التي يقدمها علم الأصوات ... ولم تغفل قديماً هذه العلاقة أو التداخل على علماء العربية الأولين منذ المراحل المبكرة لدراستهم، فهذا الخليل يتفطن من البداية إلى ضرورة سبق الدراسة اللغوية بالدراسة الصوتية لأهمية وفائدة وظيفتها عندما اعترضته ظاهرة الإدغام، فتكلم عن مخارج الحروف وصفاتها وقسّمها إلى أنواعٍ، كما أنّ المتصفح فيما بعد لكتاب سيبويه أو سر صناعة الإعراب لابن جني وغيرها يلتمس هذا اللون من الدراسة اللغوية زاخراً فيها للعلاقة الوطيدة بينها وبين الدراسة اللغوية ككل، ولهذا "**فإنّ الرأي المتجه نحو فصل علم الأصوات عن علم النحو كعلمين لسانيين مستقلين رأي سلبي؛ لأنّ ثمة علاقات أساسية بينهما وبين تاريخهما العريقين**[6]" مثلما قال بذلك المجمع الذي رأى ضرورة الجمع بينهما بسبق

الدراسة النحوية بدراسةٍ مجملةٍ للأصوات والمخارج لفائدة هـذه الدراسـة في النطـق السليم والتوجيه الصرفي والنحوي الصحيح.

ورغم هذه الأهمية التي تحظى بها الدراسة والمعرفة الصوتية لمخارج الحـروف وصفاتها من نطقٍ سليمٍ وصحيحٍ وفهمٍ لبعض الظواهر الصرفية والنحوية فهماً مهماً إلاّ أنّها فيما يبدو مهملة ومرغوبٌ عنها في الكتب المدرسية كلها في كل المستويات؛ حيث لا تجد أية إشارةٍ إلى معلومةٍ صوتيةٍ خاصة بالحرف أو بغيره ولو سطحية، ما يدل على أنّ الواضعين لم يهتموا بالقرار.

2 - الاهتمام بالجانب الصرفي :

إنّ الدراسة التركيبية للغة التي يهتم بها النحو هي الغاية المقصودة في الدراسـة اللغوية، والعملية التعليمية ككل، وللتوصل إليها يتم الانطلاق فيها مـن الدراسـة الصوتية مروراً بالدراسة الصرفية، فهذه الأخيرة التي تُعنى بأنفس الكلم الثابتة تشكل حلقة وصلٍ بينهما، ومقدمة ضرورية للدراسة التركيبية ووسيلة من وسـائل دراسـتها وفهمها نظراً لمّا للتركيب من صلة وثيقةٍ ببنية الكلمة التـي تشـترك مشـاركةً مهمـةً في صنع معناه إلى جانب الصوت. وفي مقابل ذلك لا تكتسي الكلمة أو الوحدة الصـرفية أية دلالة معنوية من فاعلٍ أومفعولٍ أوغيرها إلاّ من خلال التركيب الذي يضفي عليها معنى نحوياً ودلالياً مميّزاً في آنٍ واحدٍ. فالدرس النحوي في العربية ينشأ بعلاقة ائتلاف البنى الصرفية من اسمٍ وحرفٍ وفعلٍ فيما بينها داخل التركيب، فهو إذن لا يستغني عـن الوحدات الصرفية إذ لا كيان له دونها، وهذه الوحدات الصرفية أيضاً تنغلق ولا تنفتح على المعاني إلاّ إذا رُكبّت ونُظّمت في جملة ليتبيّن أنّ علاقة النحو بالصرف متينةٌ جداً.

ويعضد هذا القول الدراسات الأولى التي قام بها الرعيل الأول من النحاة الذين لم يفصلوا بين هذين العلمين فصلاً قاطعاً حيث رأوا فيهما علماً واحداً، يرفق ويلازم كلٌّ الأخرَ، حتى حين قاموا بوضع القواعد النحوية للحفاظ على اللغة من اللحن والزلل درسوا ومسّوا فيها الجانبين معاً، جانب الصيّغ والبنى وجانب التراكيب والجمل، دون إهمالٍ لأحدهما، ذلك لأنّهما علمان متكاملان، هدفهما واحدٌ، جذورهما واحدةٌ وعوامل وجودهما واحدةٌ أيضاً.

وتأكيداً لهذه الحقيقة رأى المجمع ضمّ بعض القضايا الصرفية إلى القضايا النحوية لتُدرس في بابٍ واحدٍ من غير فصلٍ عندما يكون هناك ارتباطٌ وثيقٌ بينهما.

غير أنّ ما يلاحظ في الكتب المدرسية الفصل بين موضوعات صرفية كثيرة وأخرى نحويةٍ، من حقها أن تكون متصلةً ومبرمجةً في بابٍ واحدٍ، للارتباط الوثيق الذي يجمعهما، ومن ذلك على سبيل المثال **لا الحصر** الفصل في كتاب السنة الأولى متوسط نظام جديد بين ثلاثة مواضيع صرفية ونحوية مهمٌ أن تُدرس في بابٍ واحدٍ وهي همزة الوصل وهمزة القطع ودرس صياغة أزمنة الفعل ماضٍ ومضارع وأمر، ذلك لأنّ صياغة أمر الثلاثي والخماسي والسداسي ومصدريهما يكون بهمزة وصلٍ، وأمر ومصدر الرباعي بهمزة قطع لذا كان من الأفضل لو اندرجت في حلقةٍ واحدة للتلاحم الذي يميزها، إذ يتم فيها اختصار ثلاثة دروسٍ مترابطة وتستدعي فيما بينها في درسٍ مبسطٍ ومفيدٍ، لكن الملاحظ هو فصل هذه الدروس الثلاثة فيما بينها بمواضيع أخرى كثيرة، ومثال أخر على هذه الملاحظة في أهمية مزج الدرس الصرفي الخاص بأوزان الفعل المختلفة من ثلاث ورباع وخماسٍ وغيرها بالدرس النحوي الخاص بإسناد هذه الأفعال إلى الضمائر المنفصلة والمتصلة وضمائر الرفع والنصب في وقفةٍ نحويةٍ واحدةٍ؛ لأنّهما يخدمان بعضهما البعض، ويتعلم فيها المتعلم موضوعين في موضوعٍ

واحدٍ ميسرٍ وملمٍ بما يفيده وهو وزن الفعل وإسناده وذلك خيرٌ من أن يتعلمهما في وقفتين منفصلتين بالمواضيع الأخرى حيث يتشتت ذهنه في جمعهما، لكن الملاحظ رغم ذلك هو فصل هذين الموضوعين المتلازمين في أكثر من كتابٍ، ممّا يدل على إهمال القرار.

3 - الاهتمام بالجانب البلاغي، وبالجانب الدلالي للظواهر النحوية:

يرجع سببٌ من أسباب صعوبة النحو في نظر الدراسات النحوية الحديثة والقديمة معاً إلى إهمال التركيز فيه على ما تحمله تراكيبه وأساليبه من دلالات ومعانٍ وأغراضٍ كامنةٍ تختص بترجمتها "البلاغة"، فقد رأى فريقٌ من المجمعيين الصعوبة في إغفال هذا الجانب المهم فيه، وقصر هذا النحو على قواعد الإعراب اللفظي وفكرة العمل حين كثُر الحديث عن العوامل الظاهرة والمعنوية، والقوية والضعيفة، وتأثيرها على المعمولات، وما إلى غير ذلك من المفاهيم الفلسفية والآراء التي ضيّقت من منفذ النظر إلى هذا العلم، وفصلته عن البلاغة.

والحق إنّ النحو والبلاغة متكاملان؛ لأنّ الفهم السليم للتركيب لا يتوقف على قوانين النحو وأصوله، بل يتجاوز ذلك إلى إدراك ما فيه من معانٍ وأغراضٍ وإضافات وفروقات يتفاضل بها عن باقي الأساليب، فالمعنى البلاغي للتركيب النحوي كما يرى الجرجاني لا يُتوصل إلى استنباط معناه البلاغي هذا إلاّ إذا تمثّل لمقاييس النحو وصحتها أي أنّ صحة التركيب نحوياً مرحلةٌ أوليةٌ لاستنباط المعنى وإدراك الغرض منه، فخضوعه للسلامة النحوية معانٍ أولية، واستنباط لون المعنى والغرض ودلالته معانٍ ثوانٍ، لذا فإنّ "**النحو بغير المعاني جفافٌ قاحلٌ، والمعاني بغير النحو أحلامٌ طافيةٌ ينأى بها الوهم عن رصانة المطابقة العرفية** [7]" أو بعبارةٍ أخرى لا تُجدي التراكيب النحوية شيئاً إذا جُردت من المعاني البلاغية، والمناسبة لمقتضى الحال والسياق، وفي المقابل

لا تُدرك هذه المعاني البلاغية إدراكاً سليماً وصحيحاً إذا لم يختر لها التراكيب النحوية السليمة والمناسبة لها، لذا كان كلٌ من النحو والبلاغة في اللغة العربية منذ القديم مهمين في الدرس النحوي لا يمكن أن ينفصلا مثلما لا يمكن الفصل بين التركيب ودلالته، يتحدان معاً لدراسة الجملة العربية، يُعنى الأول بصحتها نحوياً، ويحفل الثاني بما وراء هذه الصحة من مطابقة نمطها للحال والسياق، مثلما جاء ذلك على لسان أحد الدارسين في قوله: "**تنضاف إلى النحو البلاغة، التي لا تُعلم فن إنشاء الجمل النحوية فحسب، بل فن استعمالها أيضاً مناسبة لمقتضى الحال والسياق**[8]".

وحريٌ في العملية التعليمية ربط التراكيب والأساليب والظواهر النحوية بالأغراض التي تؤديها من كنايةٍ أو استعارةٍ، وغير ذلك بشرحٍ مبسطٍ أو على الأقل بإشارةٍ سطحية لفائدة ذلك كما يقول أحد الباحثين :"**إنّ الشرح البلاغي لأية ظاهرة نحوية وإن كان غير منظمٍ يبدو مهماً جداً في تعليمية النحو**[9]" وذلك مثلا كما يقول الجرجاني عن ظاهرة الباء الزائدة من الناحية البلاغية : "**وذلك أقول إنّ كون الباء الزائدة في ليس في ليس زيدٍ بخارجٍ لتأكيد النفي مجازٌ في الكلمة** [10]" معنى هذا أنّ دخول الباء الزائدة في خبر ليس وكذلك ما النافية تفيد معنى بلاغياً ومجازياً مهماً في الجملة وهو تأكيد النفي، فلابد من الإشارة إلى مثل هذا في الدرس. وإن كان مثلاً الدرس حول الأحرف المشبهة بالفعل كان من المهم ربط كل منها بمعناها البلاغي، كأن يقال مثلاً في "كأنّ" حرفٌ مشبهٌ بالفعل، يفيد التشبيه، فهذه العبارة الأخيرة لها معنى كبير في العملية التعليمية؛ لأنّها تُوضح وتخدم كأنّ، وغيرها.

والمتصفح لمعظم الكتب المدرسية (كتاب السنة أولى متوسط نظام جديد مثلا) يجد أنّ الجانب البلاغي فيها غير وظيفي أي مهملٌ، ومن أمثلة ذلك ما ورد صفحة 209 من إعراب الجملة الاسمية التي دخلت عليها "إنّ" والتي هي "إنّ الأرض

تدور" في قولهم "إنّ" حرفٌ مشبهٌ بالفعل، وذلك دون ربطه بمعناه البلاغي الذي يفيده والذي هو التوكيد، ومن ثم قيل في "الأرض" اسمها و"تدور" خبرها ولم يقل فيها إنّ هذه الجملة تفيد التوكيد بما أنّها قد دخلت عليها "إنّ"، إلى غير ذلك من الأمثلة التي دخلت عليها أخواتها.

وتقال نفس الملاحظة صفحة 80 عن درس الفعل المبني للمجهول ونائب الفاعل؛ حيث لم يُربط هذا الدرس بالجانب البلاغي الذي يفيده ليقال إنّه يبنى كذلك للفت الانتباه والتركيز على الفاعل الذي اختفى لغرضٍ من الأغراض البلاغية، واكتُفي في الدرس إلى الإشارة فقط إلى كيفية صياغته وبنائه. والأمثلة كثيرةٌ على إهمال هذا الجانب المهم في الدراسة النحوية بتقديم القواعد جافةً بغير المعاني التي تفيدها ما يدل على انعدام الاستفادة من القرار.

وإذا كان من المهم ربط المصطلحات والتراكيب النحوية بالأغراض والمعاني البلاغية التي تفيدها، فإنّ ربط مكوناتها الصرفية والنحوية بالجانب الدلالي لأكثر أهمية؛ لأنّ "**إذا أريدَ لدراسة الأدب أن تنجو من الكلمات المبهمة والعبارات المرسلة والانطباعات الشخصية فلا بد أن تقيمَ بناءها على أساسٍ من درس الدلالة**[11]".

ويسوق الجرجاني أمثلةً كثيرةً عن العلاقة الوطيدة بين الظواهر النحوية ودلالتها، بين بنية التركيب النحوي وتوجيه دلالته من خلال مركباته النحوية، فيذكر أنّ الإخبار بالاسم يدل في الأصل على ثبوت الحكم من غير تجدده ومثال ذلك: زيدٌ منطلقٌ، ففيه إثبات لانطلاق زيد من غير دلالة على تجدده شيئاً فشيئاً، أما الإخبار بالفعل فيدل على الحدوث والتجدد شيئاً فشيئاً، فإذا قيل : زيدٌ ينطلق، فذلك يدل على أنّ زيداً يزاول الانطلاق ويحدثه جزءاً فجزءاً [12]، ويسوق عن هذه العلاقة مثالاً أخر

في الاستفهام بالهمزة، فيذكر أنّ الاستفهام إذا بدأ بالفعل نحو قولك: أفعلت؟ كان الشك في الفعل نفسه، وكان غرضك من استفهامك أن تعلم حدوثه أو انتفاءه، وإذا قلت: أأنت فعلت؟ فبدأت بالاسم كان الشك في الفاعل من هو، وكان التردد فيه، فتبدأ ذلك كله بالاسم لأنّك لم تشك في الفعل أنّه كان، بل في الفاعل من يكون[13].

والأمثلة كثيرة حول توجيه الدلالة عن طريق تنوعات التركيب النحوية، لذا كان من المهم دراسة الأساليب والتراكيب والظواهر النحوية دراسةً دلالية نظراً لما تحمله من معانٍ متنوعة تتنوع حسب السياقات وتتلون بها، وتستكشف خبايا مهمة، من ذلك مثلاً ورود الفعل "تصبح" بصيغة المضارع في قوله تعالى: (أَلَمْ تَـرَ أَنَّ اللهَ أنـزلَ منَ السمَاءِ ماءً فتُصبحُ الأرضُ مخضرةً إنّ الله لطيفٌ خبيرٌ) الحج 63 ، فوروده مضارعاً في هذه الآية ذو دلالة مهمةٍ ينبغي الوقوف عليها؛ لأنّه ورد كذلك لنكتةٍ دلاليةٍ مهمةٍ رغم أنّ الوجه النحوي فيه هو الماضي، بما أنّه سُبق بفعلٍ ماضٍ (أنزل)، فيقول فيها الزمخشري: "**فإن قلت: هلاّ قيل: فأصبحت، ولِمَ صُرف إلى لفظ المضارع؟ قلت: لنكتةٍ فيه، وهي إفادة بقاء أثر المطر زماناً بعد زمانٍ، كما تقول: أنعم عليّ فلانٌ عام كذا فأروح وأغدو شاكراً له، ولو قلت: فرُحت وغدوت لم يقع ذلك الموقع**[14]".

وهكذا كان من المهم وصل كل ظاهرة نحوية بمعناها الدلالي لفائدة ذلك في عملية التعليم كما تقول إحدى الباحثات : "**إنّ معرفة البنية النحوية ومعرفة البنية الدلالية التي تفرزها اللغة العربية لهذه البنية ليُسهل عملية التعلم والتعليم والتوصيل**[15]".

تقف أمام هذه الأهمية أهميةٌ أخرى خاصة بالمصطلحات النحوية وربطها بدلالاتها، فمن المعروف أنّ المصطلح مفهومٌ يزيل الغموض والإبهام ويحدد مسمياته بوضوحٍ ومزيلاً اللبس عنها، وهو من أهم الوسائل العلمية التي يتناولها الدارس

والعالِم بين يديه، وحين يُربط المصطلح بدلالة لغوية لمفهومه يكون أكثر قرباً من الفهم والتحصيل، ومن أمثلة ذلك أهمية ربط مثلاً المصطلح النحوي " الأحرف المشبهة بالفعل" بمعناه الدلالي، فلماذا سُميت كذلك، كيف تشبه الفعل، أي نوعٍ من الأفعال تشبه ؟... ليقال مثلاً هي أحرفٌ؛ لأنّ عددها ستة فجمعت جمع قلةٍ ومن ثمة لا يقال فيها "حروفٌ" حيث لا تُجمع جمعَ كثرة أو غير ذلك، فهذه دلالة صرفية مهمة، ومن ثم هي تشبه الفعل من حيث إنّها تنصب وترفع مثله، وهي بذلك شُبهت بالفعل المتعدي... وكذلك تسمية "كان وأخواتها" أفعالاً ناقصةً كونها تحتاج دائماً إلى اسمٍ منصوبٍ ليتمّ معناها وإلا نقص معناها دونه... وظنّ وأخواتها "أفعال قلوب" لأنّها تدخل عل جملةٍ أصلها مبتدأٌ وخبرٌ فتقلبهما معاً إلى مفعولين ، لذا سميت أفعال قلوب؛ لأنّها تقلب...، وسُميت النون التي تلحق المضارع المسند إلى ضمير المتكلم أنا نحو: يُتعبني السفر، بنون الوقاية لأنّها تقي الفعل من الكسر الناجم من اتصاله بياء المتكلم لذا فهي للوقاية... وغير ذلك من المصطلحات النحوية التي من المهم إحاطتها بدلالة لغوية نحوية لما تفيده، قبل الانطلاق في دراسة تفصيلاتها ومميزاتها.

لكنّه يلاحظ في أكثر دروس الكتب إهمال الجانب الدلالي للظواهر الصرفية والنحوية وكذلك المصطلحات، إلاّ في قليلٍ منها؛ حيث قام الواضعون بشرح دلالتها دون الرجوع إلى قرار المجمع، وقد اهتدوا إلى توضيح دلالتها عفوياً دون تأثير القرار، وعلى العموم فإنّ أصح ما يقال هو إهمال هذا الجانب، ومن أمثلة ذلك ما توحي إليه تسمية "جمع التكسير" من دلالة تتمثل في تكسر صورة المفرد أثناء الجمع لذا سمي كذلك حيث يفهم هذا الجمع لو رُبط بهذه الدلالة اللغوية فهماً واضحاً، لكن الملاحظ هو عدم ربطه بدلالته اللغوية هذه لذا صعب فهمه حين قيل عنه

في كتاب السنة السابعة أساسي نظام قديم صفحة 79: "جمع التكسير فيه اختلافٌ في الصيغة بالزيادة أو النقصان، أو اختلاف الحركات بين المفرد والجمع، ويتضح هذا أكثر بالمقارنة بين رجل رجال".

وتقال عن الكتاب الجديد المقابل لكتاب السنة السابعة نظام قديم نفس الملاحظة؛ لأنّ معظم دروسه النحوية ومصطلحاته لم يتم ربطها بالجانب الدلالي الذي تفيده، إلاّ في البعض القليل منها، وبدلالة ناقصة جداً، ومن أمثلة ذلك قولهم صفحة 208 "سميت الأحرف المشبهة بالفعل بهذه التسمية؛ لأنّها تفيد معنى الفعل" ، هذا كل ما أشير إليه من دلالة وهي ناقصة جداً، إذ يتساءل سائل : كيف تفيد معنى الفعل، ومن أية جهة تفيد؟... كمّا أنّ في هذه الدلالة خطأ؛ لأنّ الأحرف المشبهة بالفعل لا تشبه الفعل من حيث المعنى الدال مثلاً على الزمان، بل من حيث العمل والوظيفة (الرفع والنصب). وقولهم صفحة 197 عن كان وأخواتها "سميت الأفعال الناقصة ناقصةً؛ لأنّ الكلام لا يكون مفيداً بها وبمرفوعها فقط" هذا أيضاً كل ما تمّت الإشارة إليه حول دلالة تسمية الأفعال الناقصة وهي أيضاً دلالة ناقصة؛ لأنّه لم يتم توضيحها، كيف لا تفيد فقط باسمها المرفوع معنىً، وما هو الشيء المهم الذي تحتاج إليه كي تفيد معنى ودلالة تسميتها. وعليه فإنّ هذا القرار أُهمل وإن صادف وأن وُجدت في بعض المواضيع تفسيرات دلالية لها، فهي ناقصةٌ جداً خاصة في الكتب الجديدة، ووجدت صدفة دون تأثير القرار.

وخلاصة القول إنّ الكتب المدرسية تفتقر إلى هذا النوع من الترابط بين علوم اللغة الموصي عليه؛ حيث يلاحظ تقديم القواعد مجرّدة من معانيها ودلالتها وحتى معرفة سطحية لمخارج الحروف أو تفسير صوتي لبعض الظواهر الصرفية والنحوية ... رغم أهمية القرار.

الإحالات :

1- محمد شوقي أمين و إبراهيم الترزي، مجموعة القرارات العلمية في خمسين عاما. دط. القاهرة: 1984، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، ص 302.

2 - شوقي ضيف، تجديد النحو، ط2. القاهرة: دت، دار المعارف، ص .49

3 - نفسه، ص .51

4 - عبد العليم بوفاتح "علاقة النحو بفروع اللغة الأخرى" مقال غير منشور.

5 - نفسه.

6 Roman Jackobson, essais de linguistique générale (les fondations du langage) , traduit par : Nicolas Ruwet, Paris : 1991, les éditions de la nuit, T 1, P 161.

7 - تمام حسان، الأصول، دط. القاهرة: 2000، عالم الكتب، ص .313

8- Henri Besse et Remy Porquier, grammaire et didactique des langues, P 115.

9 - Meme référence , P 116.

10 - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة في علم البيان، تعليق: محمد رشيد رضا. ط1. بيروت: 1988، دار الكتب العلمية، ص 364.

11- عبد العليم بوفاتح " علاقة النحو بفروع اللغة الأخرى" مقال غير منشور.

12 - الجرجاني، دلائل الإعجاز، بحث: علي أبو زقية، دط. الجزائر: 1991، طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، ص 174.

13 - نفسه، ص .121

14- الزمخشري، الكشاف، تح: محمد عبد السلام شاهين، ط1. لبنان: 1995، دار الكتب العلمية، ج3، ص .164

15- صفية مطهري "التفاعل الدلالي بين المستويات اللسانية" مقال غير منشور.

إشراقات لسانية حديثة في القرآن

أ.د. عبد الجليل مرتاض
(ج. تلمسان)

1) لماذا هذا الموضوع ؟

مما بات لزاماً علينا في مجال البحث اللساني الحديث أن نلتفت التفاتاً متأنّياً إلى استثمار معاني و إشراقات قرآنية تارة تومض بشكل صريح، وتارة أخرى تلمّح بوجه ضمني، إلى أفكار تتقاطع وتتفاعل مع نظريات وآراء لسانية حديثة، غير قليل منها لا يبرح محل جدل، و إقدام و إدبار، حتى وقتنا هذا.

إن المعجزة القرآنية معجزة شاملة في كل مواطن الحياة، وضروب العلوم، واللغة والإبداع والفنون، ومن ثمّ، فإن هذه الدراسات اللغوية الحديثة المسماة لدى الغربيين linguistique، وعندنا، نحن العرب، لسانيات، وجَب وجوباً أن تخضع طوعاً أو كرهاً إلى هذه المعجزة الربانية الشاملة، خاصة في ظل تعريفها الجديد منذ زهاء قرن بأنها الدراسة العلمية للغة، وهل لهذه الدراسة العلمية أن تشخّص صوتاً لغوياً واحداً في أية لغة من اللغات خارج خلق الله، وما ركّبه في مخلوقاته من أعضاء، وجوارح، وأجزاء،... لا يتم إصدار صوت واحد بدونها ؟.

أجل، إن الدراسات اللسانية بمختلف نظرياتها الجديدة الرهيبة، سواء شعرت بذلك أم لم تشعر، فإنها لا تحيد إلا من باب الاجتهاد المشروع، والبحث العلمي

العميق، والتحليق الفكري البعيد بفعل التطور التكنولوجي، وتنوع وسائل التبليغ والاستقبال، والدقة في الوصف والتحليل والتشخيص، عما أشارت إليه مواضع من القرآن، منها ما يقف عليه أي باحث هاوٍ، ومنها ما لا يُدْرِك بَعْضَهُ إلا باحثٌ ضليع رُزِقَ قدراً متواضعاً من المسح والاطلاع على ما ورد في القرآن الكريم من جهة، وما جدّ عالمياً في حقول اللسانيات من نظريات، ومدارس، ومناهج، وأفكار،... من جهة أخرى، وهذا الباحث الثاني، في نظري، لم يُولَدْ بعدُ، ولا أحسب أنه سَيُولد يوماً ما، ومنها ما يستعصي استعصاء، ويحرن حروناً، وأنك كلما تدانيت منها تدانياً، تناءى عنك تنائياً.

ولكن الطرح السابق المغمور بمسحات تشاؤمية، لا يمنع باحثاً لغوياً تعاطى البحث اللساني عربياً وغربياً مدة عقود من الزمن، من أن يُدْلِيَ دُلِيَّتَه في هذا اليمّ الذي لا ساحل ولا عمق له، لعله يَجْرَع منها جُرْعة من الجُرَع.

ولعلّ أهمّ ما نريد أن نثيره في هذا الموضوع هو هدايتنا من الله لأن نسعى مخلصين لوجهه للوقوف على مدى ما يربط علم اللسان الحديث بما جاء في القرآن الكريم من إشراقات تصبّ في الاتجاه نفسه، وهذه الإشارة ليست عاطفية ولا ذاتية ولا صلة لها بالعقيدة والإيمان، ولا تجعلنا في غفلة من أمرنا، لندّعي على القرآن الكريم ادعاءات هو منها منزّه وبريء، فالقرآن الكريم قبل أن يكون أي شيء، هو كتاب هداية وتنوير ليخرج العباد من الظلمات إلى النور، هدايةٍ لا يقوم مقامَها أيُّ علمٍ من العلوم ولا أيّ فنٍّ من الفنون، لكن هذه الهداية ليس ضرورة أن تكون نواة قَبْلِيّة إجبارية لأي اختراع علمي دنيوي، فالخالق - سبحانه - منزّه عمّا قد يهتدي إليه مخلوقه خدمة لعباده بفضل ما ينوّر به عقله وبصيرته في ابتكار من الابتكارات أو اكتشاف

من الاكتشافات في حدود كونه الذي لا أبعاد، ولا حجم له،فالله عزّ وجلّ، شاءت إرادته أن يُلْهِم من يشاء من عباده، قدراً من العلم، بصرف النظر عن علاقة هذا العبد بربه كقوله تعالى: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾(1)، ولذا جاء بعد نهاية هذه الآية مباشرة : ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ ﴾[2]، مثلما شاءت إرادته ألاّ يشرك أحداً في شيء من علمه: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾[3]، كما شاءت إرادته أن يكون علمنا علماً تعاقبياً مقسَّطاً لا تزامنياً شمولياً﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾[4]،ولذا جاء مباشرة بعد هذه الآية، قوله تعالى:﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ ﴾[5].

وما ألمحنا إليه من تساوي العباد في الإحاطة بما شاء الله لهم، دون مراعاة لعقيدة ولا دين، أدركه العبقري ابن خلدون، وهو يتحدث عن العلوم العقلية وأصنافها بقوله: "وأما العلوم العقلية التي هي طبيعيّة للإنسان، من حيث إنه ذو فكر، فهي غير مختصّة بمِلّة، بل بوجه النظر فيها لأهل الملل كلهم، ويستوون في مداركها ومباحثها"[6]، حتى وإن كان ابن خلدون لم يدخل علم اللغة في العلوم العقلية، وهو محق في ذلك، لأن هذه المادة مما يتجانس مع العلوم الإنسانية.

2) أثر الأديان في نشأة الدرس اللغوي

2-1) بلبلة الألسنة أو برج بابل

تفيدنا بعض الوثائق القديمة بأسطورة بلبلة الألسن بين ولدي نوح المعروفين بسام وحام، حيث" جُعِلَ في ولد سام تسعة عشر لساناً، في حين جُعِلَ في ولد حام سبعة عشر لساناً، بل تشير الأسطورة إلى أن نصيب أخيهما الثالث المسمى يافثاً من هذه البلبلة بلغ ستة وثلاثين لساناً، وبعد ذلك تشعبت اللغات وتفرقت الألسن[7].

وفي قصة أخرى أن رياحاً هاجت هيجاناً شديداً فنسفت صرح الملك النمروذ أحد أحفاد نوح ببابل من أرض العراق، فبات الناس ولسانهم سريانيّ، وأصبحوا "وقد تفرقت لغاتهم على اثنين وسبعين لساناً، فسُمّي الموضع من ذلك الوقت بابل"[8]،وورد الوعي بالمشكلة اللغوية أيضاً ماثلاً في النصوص الخاصة ببرج بابل في سفر التكوين من التوراة، ويظهر أن الأخباريّين العرب القدماء تناقلوا تبلبل الألسنة بين أولاد نوح مما ورد في التوراة، فضلاً عما كان يشيعه الأحبار من قصص وحكايات وجدت صداها بالرضى والقبول لدى غير واحد من المؤرخين العرب القدماء.

2-2) "الدين" أثره في نشأة علم اللغة الهندي

وبالنسبة لعلم اللغة الهندي، فإن صناعته مؤسسة على جملة من الاعتبارات الدينية، والأخبار الميثولوجية التي لم تؤثر في تطوره واستوائه، مع ذلك، تأثيراً سلبياً، بل كانت أحد العوامل القوية التي دفعت الحركة اللغوية عندهم خطوات عملاقة لم تشهد الدراسات الغربية مثيلاً لها إلا في القرن التاسع عشر، بفعل اكتشاف اللغة السنسكريتية (1786م) من قبل سير وليام جونس.

إن الدراسات اللغوية في الهند نشأت وترعرت على أركان الدين البراهمي الذي يحوي نصوصاً سريّة، وأطلق على هذه الفترة مصطلح الفترة الفيديّة، وكانت السنسكريتية المستخدمة في الكتب المقدسة للهندوس تحتل مكانة أسمى من أي لغة أو لهجة هندية أخرى لسبب روحي عندهم، بل لا تزال هذه اللغة العتيقة حتى يومنا هذا متبنَّاة لديهم في مجال الآداب والعلوم، مثلما كانت عليه منذ أكثر من ألفين وخمسمائة عاما، ولذا لم يكن من باب الفراغ أن يُلْهَمَ ذلك العلاَّمة براهمان بانِيني الذي أَدْهَش تراثه اللساني العقلية الغربية الحديثة، أولَ عملٍ لساني تركيبي عرفه الإنسان في تاريخ علم اللغة، والمَصُوغٍ في أربعة آلاف جملة قصيرة[9].

ويَنْجُم عمّا سلف أن الشعوب التي لم تكن تمتلك نصوصاً مقدَّسة، لم تكن تفكّر تفكيراً جدياً وعميقاً في إنشاء علم جامع مانع للغاتها ولهجاتها، لأن السلوكات الدينية المطبوعة بطابع شفهي لا تجعل ممارسيها يفكرون لحظة في صناعة علم لساني يصونها، لأنها ليست قائمة على نصوص تُصَوَّت أو تُرَدَّد يخاف أصحابها ضياعها أو تزييفها، ولذلك، فلا نعجب كثير العجب إذا وجدنا علم اللغة الذي بلغ أَشُدَّه لدى الهنود يقابله طفولة عند اليونان، هذه الطفولة التي سوف تشبّ في ضوء محاورات أفلاطون، وتبلغ كهولتها في التعقيدات المنطقية لتلميذه أرسطو وما تبعهما بعد ذلك من مدارس، ولاسيما الرواقيون الذين توصّلوا إلى فصل الدراسات اللغوية عن التأملات الفلسفية، حتى وإن بقوا متمسّكين بأن "النحو ينبغي أن يطابق المنطق، وينبغي أن تطابق الفصائل أو الأقسام النحوية أقسام المنطق أو مقولاته"[10].

3) القرآن وأثره في اهتمام العرب بالوعي اللغوي

1-3) ارتباط العربية بفهم الشريعة

وبالنسبة لأثر القرآن في بروز الدرس اللغوي عند العرب، فإن ثمة أقوالاً، وروايات مبثوثة في أمات المصادر اللغوية والأدبية وطبقات الأعلام لا يخلو بعضها من مصداقية واقعية، لكن من الصعب عليك أن تهضمها كلها، لكون جزء منها ربما يعود بك إلى فترة النبوّة، هذه الأقوال تحمل في طياتها أوامر بالاعتناء بالعربية كالاعتناء بالفرائض، لكون فهم الشرع فهماً سليماً لا يحصل بفهم لسانه فهماً سطحياً أو سيّئاً، مصداقاً لقوله تعالى:﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٤ ﴾[11].

وممّا ذكره غير واحد من علماء اللسان العربي، ومنهم المبرد، أن الصدر الأول من أصحاب رسول الله (ﷺ) كانوا يعربون طبعاً "حتى خالطهم العجم، ففسدت ألسنتهم، وتغيرت لغتهم"[12]، وهذا ما عناه الزبيدي بقوله: "ولم تزل العرب تنطق على سجيتها في صدر إسلامها وماضي جاهليتها، حتى أظهر الله الإسلام على سائر الأديان، فدخل الناس فيه أفواجاً، وأقبلوا إليه أرسالاً، واجتمعت فيه الألسنة المتفرّقة، واللغات المختلفة، ففشا الفساد في اللغة العربية، واستبان منه في الإعراب الذي هو حليها، والموضِّح لمعانيها، فتفطَّن لذلك من نافر بطباعه سوء أفهام الناطقين من دخلاء الأمم بغير المتعارف من كلام العرب، فعظم الاشتقاق من فشوّ ذلك وغلبته، حتى دعاهم الحذر من ذهاب لغتهم وفساد كلامهم، إلى أن سبّبوا الأسباب في تقييدها لمن ضاعت عليه، وتثقيفها لمن زاغت عنه"[13].

2-3) القرآن يبث الشعور العامّ

إن القرآن الكريم بثّ الشعور العلمي بما يحيط بالقوم، وبدون استثناء ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۝٢٠ ﴾[14]، أو كقوله: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُواْ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ۝٣٣ ﴾[15]، إلى غير ذلك من الآيات التي حثّت الإنسان الجديد على البحث والتقصّي والتجريب، فيما يموج ويسكن حوله من آيات ربّانية ماثلة في عناصر كونه، هي كلها حجة عليه، وبإمكانه بالثقافة والبحث العلمي أن يروّضها ويجعلها طوع بنانه، وهذا ما حاول السلف المبكّر أن يستوعبه ويضطلع به.

وما يهمنا من هذا الشعور العام بالتحول العلمي لدى القوم، ذلك الإحساس اللغوي الذي التفت العرب إليه، ولأول وهلة في تاريخهم.- حيث سرى في عقول فئة من صفوة القوم أو من ذوي الحلّ والعقد، وهو ما حاول أصحاب المبادرة الأولى لإقامة نواة علمية لصرح لساني عربي لاحق أن يجسّدوه في الحواضر والأمصار على أرض الواقع.

3-3) روايات مبكرة تحث على التعلم

وإذا أخذنا جزءاً من بعض الروايات التي تعود إلى عقود أولى من القرن الأول الهجري بعين الرضى والقبول، فإننا نقف على عبارات نبوية، وراشدية، وصحابية، وتابعية،... تحث كلها على تعلم العربية، وحفظ شواهدها، وتِبْيَانِ مُنْغَلَقِها،... من

ذلك ما يُرْوَى عن النبي (ﷺ) قوله: ﴿أعْرِبوا في كلامكم تعربوا في كتاب الله﴾[16]، ويُرْوَى عنه، عليه السلام، أيضاً: ﴿أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه﴾[17]، وقالت عائشة أم المؤمنين "تعلّموا الشعر، فإنه يعرب ألسنتكم"[18]، ويُنسب إلى عمر بن الخطاب أقوال وشواهد تأمر بتعلم العربية، وتصف مناقبها وأفضالها، منها قوله: "تعلموا العربية، فإنها تُنْبت العقل، وتزيد في المروَّة"[19]، ومنها "تعلموا العربية تحرزوا المروءة"[20]، ومنها: "تعلموا الفرائض والسنة واللحن كما تتعلمون القرآن"[21]، ولما وصل عمرَ بْنَ الخطابِ كتاب فيه "من أبو موسى"، فكتب عمر إلى عامله أبي موسى الأشعري "أَنِ اضْرِبْهُ سَوْطاً، واعزلْه عن عملك"[22]، ولمّا خاطب رجل الحسن البصري بقوله: "يا أبو سعيد" أجابه: "كَسْبُ الدَّوانيق شغلك عن أن تقول: "يا أبا سعيد، ثم قال: تعلموا الفقه للأديان، والطب للأبدان، والنحو للسان"[23].

3-4) العطاء على العربية والحرمان على اللحن

ولسنا بحاجة ملحّة إلى إثبات نصوص أخرى، وهي كثيرة، صدرت عن الرعيل الأول من العلماء وذوي الشعور الأعلى بصيانة العربية، والتفكير في ابتكار علم نظري يقيها من الوهن والتلوث والتهجين، ومع ذلك نتمنى ألّا نكون فضوليين على مساحة هذا البحث ولا بعيدين عن موضوعه الجوهري، إذا عزّزنا الشعور اللغوي العربي المبكر بهذا النص: "ودخل على عبد العزيز بن مروان رجل يشكو صهراً له فقال: إن خَتَنِي فعل كذا وكذا، فقال له عبد العزيز: وَمَنْ خَتَنْك؟ فقال: الختّان الذي يَخْتِن الناس، فقال عبد العزيز لكاتبه: ويحك ! بم أجابني؟ فقال: أيها الأمير، إنك لحنت !، وهو لا يعرف اللحن، كان ينبغي أن تقول: من خَتَنُكَ؟ فاشتغل عبد العزيز

حتى صار من أفصح الناس، وكان يعطي على العربية ويحرم على اللحن، كان الرجل يأتيه، فيقول له: ممَّن أنت؟ فيقول: من بني فلان، فيقول لكاتبه: أعطه مائتي دينار ! ودخل عليه رجل من عبد الدار، فقال له: ممن أنت؟ فقال: من بنو عبد الدار، فقال له: تجدها في جائزتك ! فأمر له بمائة درهم[24].

5-3) تطور الشعور اللغوي لدى العربي

ومن معالم الوعي اللغوي عند العرب أيضاً بعد الإسلام أنهم جسّدوا هذا الوعي وترجموه ممارسة صَوْناً للسانهم أن أبا عمرو بن العلاء دخل متجراً، فعاين على أعدال التجار مكتوباً "لِأَبُو فلان"، فقال: "يا عجباً، أَيَلْحَنُون ويربحون؟!"[25]، ويروى أن عمر بن عبد العزيز رأى قوماً أعاجم ينظرون في النحو، فقال: "لئن أصلحتموه لأنتم أوّل من أفسده"[26]، ورُوِي أيضاً أن رجلاً قال لبعض العلماء: "أسألك عن شيء من الغريب، فقال: هو كلام القوم، وإنما أنت وأمثالك فيه غرباء"[27]، بل من أشهر الروايات التي اتخذها العرب تعلة قاطعة لوضع علم اللسان العربي، تُعْزَى إلى لحن يُلْصَق بابنة أبي الأسود الدؤلي، التي خاطبت أباها مستفهمة، وهي تريد التعجّب بقولها: "يا أبتِ، ما أشدُّ الحرِّ؟!"، إلى جانب روايات ونصوص أخرى كثيرة نُطِقَتْ ملحونة في حركاتها الإعرابية، بما في ذلك آيات قرآنية.

4) لماذا عبّر العرب عن كلامهم باللسان ؟

1-4) بين اللغة واللسان مبدئياً

ولعل مربط الفرس، لماذا عبّر العرب، بما في ذلك القرآن، باللسان، ولم يعبّروا باللغة إلا نادراً؟ فنصوص ما قبل الإسلام حافلة باستعمال اللسان ليس فقط كأداة

جارحة، بل كنظام أو نسق تواصلي عام، فاللسان يحوي نفسه وغيره، وأما اللغة فلا تحوي إلا نفسها، فعربية ما قبل الإسلام الغابرةُ كانت تضم عشرات اللغات بالمفهوم القديم أو اللهجات بالمصطلح الحديث، ولذا كان من الضلالة بمكان أن يعبّر القوم باللغة بدل اللسان، إلا ما ندر، ومن باب التغني والفخر، كقول شاعر قديم[28]:

أبــا ضُبَيْعَـةَ لا تَـعْجَــــلْ بِـسَـيِّـئـــةٍ إلى ابنِ عَـمِّكَ، واذْكُـــــرْهُ بإحسانِ

إمَّـا تَـــراني وأثـــوابـــي مُـقَـــارِبَـــةٌ ليسَتْ بِخَزّ، ولا من حُرّ كَـتَّــــــانِ

فـــإنّ في الـمجد هِـمَّـــــــاتي، وفي لغتي عُـلْـوِيَّـــةٌ[29]، ولســـــاني غـيـرُ لَحَّـانِ

حيث الشاعر ذكر لغته العلوية المشهورة بالفصاحة، ثم اللسانَ المتَعَاهَد فيه بإعراب الكلام مع بلاغته وفصاحته، والأهم من هذا، أنه عبر محلياً أو قبلياً باللغة، وعربياً باللسان، أي لغته جزء من اللسان العربي العامّ، ومنضوٍ تحت سلطته، وماثل في نسقه الكلي.

2-4) عربية أم لسان ؟

ولربّما عبَّر علماء اللسان العربي القدماء تارة بالعربية، ومرة باللسان، من ذلك أن يونس بن حبيب (182ه) قال: "أوّل من تكلم بالعربية، ونسي لسانً أبيه، إسماعيلُ بْنُ إبراهيم"[30]، وكان تعقيب ابن سلاّم (139-231ه): "ولكن العربية التي عَنَى محمدُ بن عليٍّ[31]، اللسانُ الذي نزل به القرآن، وما تكلمت به العرب على عهد النبي (ﷺ)، وتلك عربية أخرى غير كلامنا هذا"[32]، فأنت ترى أن النص أشار إلى عربيتين اثنتين شهد ابن سلام لهما بأنهما مختلفتان، وفي زمن لا يتعدَّى المائتي سنة، في حين أنه لم

يصف اللسان بذلك، وما فهمناه أن العربية عربيات، واللسان واحد، أو العربية، على أقل تقدير، ما يسمى اليوم اللغة تقابلاً باللسان، ويدعم هذا التوجّه قول أبي عمرو بن العلاء: "ما لسان حمير وأقاصي اليمن اليومً بلساننا، ولا عربيتهم بعربيّتنا"[33]، لأن النظام اللساني الداخلي للتواصلات الجنوبية متباين إذا ما قيس بالنظام اللساني لعرب الشمال، فكيف إذا ما قِيسَتِ العربيّتان؟.

3-4) معنى اللســان

ليس هدفنا الحديث عَمَّا قاله الحكماء، وأنشده الشعراء، وساقه الأدباء، في معنى اللسان، بل أردنا فقط أن ندخل إلى معنى اللسان في القرآن من هذا الباب، ومحاولة تمييزه عن اللغة تارة، والعربية تارة أخرى، واستيحاء العبرة والحكمة من القرآن الذي عبّر عمّا يتواصل ويتفاهم به القوم من عرب وغير عرب، باللسان الذي يجوز فيه التذكير والتأنيث، فمن ذكّر جمعه على أفْعِلة، ومن أنّثه جمعه على أفْعُل، وذكر بعض علماء اللغة (أبو حاتم) أن التذكير أكثر، وهو في القرآن كلّه مذكَّر[34]، بل اللسان بعينه لم يسمعه الفرّاء - كما حكى- من العرب إلا مذكَّراً[35].

وأما إذا عُبِّر باللسان بوصفه جارحة الكلام عن الكلمة نفسها، فإن تأنيث اللسان حينئذ واجب، لأن العبرة بالمدلول لا بالدال، كقول الأعشى[36]:

إنِّــي أتَــتْــنــي لــسانٌ لا أُسَــرُّ بــهــا   مِن عَلْوَ لا عَـجَـبٌ منها ولا سَخَـرُ

وكذلك إذا قصدوا به الرسالة أو القصيدة أو اللغة،... وهذا كثير في كلامهم، حيث يَتْبَع الجمع معنى مفرده، لا المفرد معنى جمعه، وهذا هو منطق اللغة الطبيعي،

لأن المفرد قد يستغني عن الجمع، بينما هذا الأخير لا يكسب هويته ووجوده إلا بمفرده، ولو بطريق صوتي غير مباشر:

النساء ← امرأة، الخيل ← فرس، الجيش ← جندي،... اللّاؤُون ← الذي،... وهي وحدات قليلة جداً، يوجد جمعها من غير لفظه،... وليس هذا بابه.

4-4) تعبير القرآن باللسان بدلاً من اللغة

وما يهمنا مما مضى كله أن القرآن عبّر باللسان عن تواصلات القوم بدلاً من اللغة، كقوله تعالى:

- ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ﴾ (المائدة، آية:78)
- ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾ (إبراهيم، آية: 4)
- ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ﴾ (النحل، آية: 103)
- ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ﴾ (الشعراء، آية: 194 - 195)
- ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓۖ﴾ (القصص، آية: 34)
- ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٞ مُّصَدِّقٞ لِّسَانًا عَرَبِيّٗا﴾ (الأحقاف، آية: 12)
- ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا﴾ (مريم، آية: 97)
- ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (الدخان، آية: 58)

- وَمِنۡ ءَايَـٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَـٰفُ أَلۡسِنَتِڪُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡ (الروم، آية: 22)

5-4) اللسان بين السور المكية والمدنية

ومما لفت انتباهي، وأنا أحاول أنْ أَشْحَذَ ذهني، وأُحِيلَ على تحصيلي، أني لاحظت أن كلمة اللسان بمدلولها الدال على التبليغ، إرسال وتَلَقٍّ زاد ورودها على الضعف في السور المكية منها في السور المدنية، حيث تواتر اللسان سبع عشرة مرة في السور المكية، بينما اقتصر وروده ثماني مرات في السور المدنية، علماً بأن سورة مثل سورة الشعراء، وهي مكية، تتكون من سبع وعشرين ومائة آية.

ولعل أهمّ مما أُلْمِح إليه في الإحصاء المشار إليه آنفاً، أن اللسان بوصفه مصطلحاً يرأس كل اللهجات والأشتات اللغوية العربية الفصيحة رئاسةً عامةً، تَوَاتَر بشكل لساني واضح في السور المكية، بل حتى تعبير القرآن عن ألسنة البشر التي تعدّ بالألوف ﴿ وَمِنۡ ءَايَـٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَـٰفُ أَلۡسِنَتِڪُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡ﴾ ورد في سورة الروم (آية: 22) وهي مكيّة، على أن معاني اللسان الواردة في آيات السور المدنية تشير إلى اللسان كجارحة تؤدّي وظائف صوتية كلامية، كأية حاسة من الحواس، أو عنصر من عناصر الجسد:

- فَإِذَا ذَهَبَ ٱلۡخَوۡفُ سَلَقُوكُم بِأَلۡسِنَةٍ حِدَادٍ (الأحزاب، آية: 19)
- إِذۡ تَلَقَّوۡنَهُۥ بِأَلۡسِنَتِكُمۡ وَتَقُولُونَ بِأَفۡوَاهِكُم مَّا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٌ وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ (النور، آية: 15)

- وَإِنَّ مِنۡهُمۡ لَفَرِيقٗا يَلۡوُۥنَ أَلۡسِنَتَهُم بِٱلۡكِتَٰبِ لِتَحۡسَبُوهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ (آل عمران، آية: 78)
- مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ وَرَٰعِنَا لَيَّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِۚ (النساء، آية: 46)
- يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ (النور، آية: 24)
- يَقُولُونَ بِأَلۡسِنَتِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ (الفتح، آية: 11)
- إِن يَثۡقَفُوكُمۡ يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءٗ وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ وَأَلۡسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ (الممتحنة، آية: 2)

ومع ذلك، فإن السور المكية لم يَخْلُ بعضها من تعاقب كلمة اللسان فيها بمعنى مجازي أو صريح دلالةً عليه كجارحة[37]،وهذه المعاني تحتاج إلى حقول دلالية والإحالة إلى مرجعيات تاريخية ودينية وثقافية لإمكان بيان ما يتيسّر بيانُه منها، لأن ما يهمنا هنا، كما سبق أن ألمحت، اللسان كمنظومة صوتية نوعية مكوّنة من علامة متمفصلة مؤَهَّلة لإرسال مرسلات إنسانية.

5) حكمة القرآن من استعمال اللسان بدلاً من اللغة

ولنقف على عظمة القرآن وحكمته البليغة في استعمال اللسان بدلاً من اللغة، فحسْبُنا أن نحيل على آخر ما جدّ في حقول علم اللغة الحديث، لنتبيّن ما وصل إليه العلماء الغربيون من اقتناعات بشأن مصطلح اللسان من جهة واللغة من جهة أخرى، فضلاً عمّا اتصل بهما من عناصر لسانية أخرى، كالكلام مثلاً.

1-5) تعريفات لسانية عامة للغة

مما ورد حديثاً بشأن اللغة le langage أن تعريفها غالباً ما يكون تعريفاً، ارتيابياً "لإعطاء إحساس باضطراب فكري كبير، يكفي أن نَحْشُدَ عدة تعريفات لها، غير أن لسانياً un linguiste ينتهي دائماً بتعريفه للغة، لأن كل تعريف يعكس المستوى الذي نبلغه في تنظيم معرفتنا للأشياء والوصف وتصنيف الوقائع، وتحديد الميدان، والمعايير المستخدمة"[38].

ومنذ عقود من الزمن أضحت تعريفات اللغة تنطلق من التصور للسان la langue كنظام من العلامات المستعملة بهدف إقامة التبليغ "غير أن هذه التعريفات سبق لها أن صارت رِخْوة جداً بالنسبة لمعرفة اللغة المتناولة من قبل اللسانيات الراهنة، وإذا كانت مُرْضِية فعلاً، فإنه كان من الواجب أن تكون قادرة على تقديم المعايير لنوعية الألسنة الإنسانية (أو بعدم نوعيتها) تُجاهَ كل الأشكال الأخرى للتبليغ، وبالأخص التبليغ الحيواني"[39].

واللسانيون الأكثر حداثة في الغرب لا يريدون أن يذهبوا إلى أبعد مما ذهب إليه نظراؤهم منذ القرن الثامن عشر، بأن الإشكال بين التبليغين: الإنساني والحيواني، يكمن في أن لساناً une langue يقدّر حواشي من الأفكار تعدمها الحيوانات، لكن هذا الأمر لم يُفْصَل فيه فصلاً صارماً حتى وقتنا الحالي، ولم تخرج اللسانيات الحديثة بعدُ من مأزقها الموروث "وإذا كانت اللغة le langage نظاماً من العلامات، فإن كل نظام من العلامات مُسْتَعْمَلٍ بوساطة الكائنات الحية للتبليغ يجب أن يسمّى لغة: يمكن أن نتكلم عن لغة حيوانية، وساعتها فلا نبرّر هذا الشعور العامّ بدافع أن الألسنة

البشرية تنماز عن كل الأنظمة الأخرى للتبليغ البشري أولا تتميّز، وأنّ هذه الأنظمة من العلامات مختلفة اختلافاً عميقاً عن جميع الأنظمة الأخرى، ودون القول قطعاً من الناحية العلمية: لماذا؟"[40].

ولا تتردد الأعمال اللسانية الأكاديمية، ومنذ عقود من الزمن، في وصف اللغة le langage بأنها، بالمعنى الواسع، يُعْنَى بها كلُّ وسيلة من وسائل الاتصال المستعملة من قبل طائفة بشرية أو حيوانية لإرسال مرسلات des messages، واللغة المركَّبة من وحدة دنيا تُسَمَّى علامات signes أو إشارات signaux، ومن ثم، فإن مصطلح le terme اللغة يمكن أن يُشير "إما إلى أنظمة علامية (أو إشارية) "مباشرة" أو طبيعية (مثلاً: اللغة الإنسانية المُمَفْصَلة articulé، لغة الدلافين، لغة النحل الخ)، وإما يُشار بها إلى أنظمة "ثانوية seconds"، أي مُعَدَّة انطلاقاً من اللغة الإنسانية المُتَرْقَنة transcodé إلى نهايات نوعية للتبليغ (مثلاً: قانون المرور، رموز إشارات)"[41].

2-5) تعريف اللغة كنظام من العلامات

هذا بالنسبة لمفهوم اللغة الواسع بشكلها "المباشر" أو الطبيعي، وبمظهرها "الثانوي" المترجم إلى قانون مختلف، كلغة الإشارات الممارسة يومياً في أية ثقافة عامة أو خاصة خارج اللغة المُمَفْصَلة، وأما بالنسبة لمفهومها كنظام من العلامات المباشرة أو الطبيعية، فإنها تفترض "متكلماً un sujet parlant وتُشرِك ظواهر مرتبطة بنقل مرسلة داخل سياق فضائي - زمني والمسمَّى ثقافياً مَقَاماً situation، وعليه فإن دراسة اللغة تشمل مظاهر نفسية (علماء النفس يتحدثون عن النشاط اللغوي)، واجتماعية، وأنثروبولوجية، وحتى نفسية تحليلية"[42]، وهذه المظاهر المشار إليها غير لسانية، لأنها تمتاز عن تلك التي تتصل بها، سواء أكانت هذه اللغة إنسانية أم غير إنسانية.

ومن خاض في هذا الموضوعَ العالِمُ اللساني الفرنسيُّ أندري مارتني الذي قال:"غير أنه من المحتمل أن مفهوم اللغة المُمَفصلة قد يبدو لبعض الناس شيئاً آخر غير الوضوح لتتابعات صوتية، الأمر الذي يستدعي تمييز اللغة الإنسانية عن أشكال النشاط المتَّصل بها عند الكائنات الحية الأخرى، والممكن أن تَسْتَهْوِيَنَا بتسميته أيضاً "لغة"[43].

وبعد أن يشرّح أندري مارتني الخصوصيات التي تجعل تبليغاً لسانياً، وآخر غير لساني، من خلال ما عُرِف عنده بالتلفظ أو التمفصل المزدوج double articulation، فإنه ينتهي إلى القول: "حين يتعلق الأمر بمصطلح "اللغة le langage"، فإنه لا يبدو صَعْباً أنْ يتزامن الاستخدام العامّ إلى جانب استخدام عِلمي للكلمة التي ترضي اللسانيّين، ومن ثَمَّ فإن الكلام العادي "اللغة" يشير على نحو ملائم، إلى الملكة التي يتفاهم بها الناس بواسطة au moyen علامات صوتية، ما من شك بأننا نتحدث عن لغة الورود ولغة البهائم والدواب، لكن هذه الإطلاقات تبقى مجازية، إذ يجب، وفي كل الحالات، تعيين "ورود" أو "دواب"، بينما اللغة تدلّ دائماً على ملكة إنسانية، ليس أكثر، والنماذج المتعدّدة لهذه اللغة مُسَمَّاة "ألسنة". أي ليس هناك "ألسنة ورود" أو "ألسنة دواب"، وهذه اللغة الإنسانية التي تتحقق تحت شكل الألسنة المتعدّدة تشكل الموضوع الحصري لأبحاث لسانية دقيقة"[44].

وأما إدوارت سابير Edwârd Sapir، وبعد أخذ ورد، فينتهي إلى إعطاء تعريف للغة لا يختلف عما سبقت الإشارة إليه، أو نجده عند مجمل اللسانيّين المحدثين، ولكنه يختلف عنهم في الاستفاضة بربطها بالإنسان "الطريق الآن أمامنا ممهَّد، ونستطيع أن نحاول إعطاء تعريف صحيح للغة التي هي في منظورنا وسيلة إنسانية للتبليغ ليس

إلا، وليست غريزية، للأفكار، والعواطف والرغبات محقَّقةً بواسطة نظام من الرموز المبتكرة لهذا الغرض، وهذه الرموز، بادئ ذي بدء، مسموعة ومنتجة بوساطة ما يسمَّى بـ"أعضاء الكلام". فالتعبيرات الغريزية والوسط الطبيعي الممكن تأثيرهما أحياناً تأثيراً معتبراً في عدة مظاهر من اللغة، والميولات الغريزية وغيرها، يمكن أن تقودنا، في بعض الوجوه، إلى تكييف التعبير اللساني، لكن حتى لو سلّمنا بهذا، فإنه لا توجد قاعدة فطرية مُمْكِنٌ تمييزُها في اللغة الإنسانية، نعم توجد تبليغات إنسانية أو حيوانية (إن كان الأمر كذلك يُمَكّننا من تسمية ذلك تبليغاً) هي نتيجة لِصُياحات غريزية، لكن هذا قطعاً لا يسمّى لغة بالمعنى الذي نسمعه"[45].

3-5) تعبير القرآن باللغة في غير مواضع اللسان

والقرآن الكريم عبّر عن اللغة بدلاً من اللسان في مواطن عدّة، منها:

- ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾ (الإسراء، آية: 44).
- ﴿ وَوَرِثَ سُلَيۡمَـٰنُ دَاوُۥدَۖ وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍۖ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيۡمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ وَٱلطَّيۡرِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ[46] ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَـٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوۡلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ

صَٰلِحًا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩ وَتَفَقَّدَ
ٱلطَّيۡرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ ٢٠
لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ٢١
فَمَكَثَ غَيۡرَ بَعِيدٖ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ
يَقِينٍ ٢٢ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا
عَرۡشٌ عَظِيمٞ ٢٣ ﴾[47].

6) علم اللسان الحديث يثبت ما جاء في القرآن

1-6) كل الكائنات تتواصل

إن هذه الآيات أثبتها علم اللسان الحديث، بأن الكائنات الحية تتواصل فيما بينها بلغات تخص كل فصيلة من فصائلها، وكل ما في الأمر أن لغتها تفقد ما أسماه أندري مارتني التمفصل المزدوج الذي هو ظاهرة صوتية ودلالية بشرية، فخطاب النملة للنمل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ ﴾ لا تقبل التحليل إلى أصغر وحدة دالة (مونيمة) ولا إلى وحدات صوتية تمايزية غير دالة (فونيمة)، بل هي الكلّ في الكل، وبعبارة أخرى، فإن تبليغاً حيوانياً لا يقبل القسمة على اثنين، ولئن لم يكن يقبل صفة اللغة بمعناها الصوتي البشري، فإنها تواصل لغوي خارج طاقة البحث اللساني لتحديده، وتَنَوُّعُ اللغات الحيوانية والأشياء التي لا نفقهها، كما أخبرنا القرآن، تَنَوُّعٌ لا يختلف عن تنوع لغات الإنسان، لكنْ لكلٍّ حُدُودُه ومجالاته، ولو قُدِّر لهذه الكائنات أن تكون لها ثقافة اجتماعية لما عجزت عن التواصل فيما بينها، لكن قانون الطبيعة والغاب لا يرحم.

2-6) بين لغة البشر ولغة الحيوان

وحتى لا يبقى عملنا مجرد تخمين، فإنّا نجمل ما توصّل إليه علماء من آراء ونتائج مذهلة، وهم يقارنون التواصل بين لغة البشر ولغة الحيوانات، حيث أعلنوا أن معدّل الفونيمات في كل لغة من لغات البشر يتراوح ما بين 30 و40 فونيمة، وكشفت أبحاث علماء علم النفس الحيواني عن وجود عدد من الفونيمات يقارب هذا العدد من الوحدات الصوتية الأولية في النظم الإشارية للحيوانات مثل الشيمبانزي والدولفين"[48].

ويرى العلماء أن هذا التوافق بين عدد الفونيمات المتقارب من لغة البشر ولغة الحيوان ليس عَرَضِياً "ذلك لأن الفوارق اللغوية بين البشر إنما ترجع إلى أن الوحدات الأولية أو الفونيمات تتركب في شكل مقاطع وكلمات وجمل، وهذا ما لا يحدث بالنسبة للحيوانات، فصيحات الإشارة عند الحيوانات خِلْوٌ من قواعد النحو أي قواعد ربط الفونيمات وتركيبها في شكل وحدات لغوية أكثر تعقيداً"[49].

ويفسّر الخبراء أن عدم ربط الحيوانات للفونيمات وتركيبها أسوة بالإنسان، إنما يرجع إلى أن حيوانات مثل الدلافين والشيمبانزي تشعر بأن بضع عشرات من الأصوات تكفيها لتبليغها، فما الذي يضطرها إلى أفكار ومفاهيم معقدة ؟ ولكن هذا الحكم يظل ضبابياً إذا لم نستوضحه من القرآن الكريم الذي يخبرنا أن الله كرّم بني آدم وفضّلهم على كثير مما خلق ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾ (الإسراء، آية:70)، ومن النعم التي كُرِّم بها الإنسان، وهي كثيرة ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ

نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ ﴾ (إبراهيم، آية: 34)، احتواء مخّه أضعاف وأضعاف مخ الحيوان.

وتوصّل أحد علماء فسيولوجيا وسيكولوجيا الكلام قبل عقود من خلال دراسة تحليلية لصوت النظام الإشاري عند القردة المعروفة باسم الرُّبَّاح[50]، والتزام صارم بما انتهى إليه علم اللغة الحديث، إلى نتيجة أبهرت المهتمين بدراسة لغة الحيوان، فالعالم (ن.أ. جينكين) قاس صيحات الرُّبَّاح بجهاز تسجيل الذبذبات مستعيناً بجهاز القياس الطيفي لعمل تحليل ميكروسكوبي للأصوات، وبجهاز أشعة رونتجين لقياس الكلام، وبعد تسجيلات دقيقة ومضبوطة لتصرفات النطق الصادرة عن حلق الرباح، وهو يتواصل مع بني جنسه، ثبت لديه أمر عجب، وهو أن العوامل الفونولوجية التي حددها اللسانيون المحدثون في اثني عشر عاملاً زوجياً والتي تشترك فيها كل اللغات البشرية، تصْدُق أيضاً على لغة الرُّبَّاح[51].

7) اللسان إطلاق عامّ

7-1) اللسان أعمّ من اللغة

هل ما زِلْتَ في تساؤل من أمرك: لماذا عبّر القرآن عن عملية التبليغ البشري باللسان، ولم يعبّر عن ذلك باللغة؟ وهل مازالت الأفكار تختلط عليك، إذا قلت لك، بأن القرآن أوضح لنا ممّا لا يُبْقِي ولايَذَرُ خيطاً أسود من أن اللسان إطلاق عامّ، بينما اللغة تعبير أخص، أي كل لسان لغة، وليست كل لغة لساناً؟ قد تجادل، ومن حقك، بدافع أننا تحدثنا معاً بشأن اللغة إلى حد ما، ولكننا لم نُبْدِ إلا إشارات غيْر مباشرة عن اللسان مصطلحاً، زيادة على أن الحدود لا تتضح بين هذه الثنائية اللسانية إلا بمقارنة هذه بذلك، أو ذاك بهذه.

2-7) تعريفات عامة للسان

وإذاً، فما هو اللسان من حيث كونه مصطلحاً مُمَارَساً؟ فبالنسبة للسانيين الغربيين المحدثين أنهم لا يختلفون كثيراً في ماهية اللسان، غير أنهم كلهم عالة على التراث اللساني الديسوسوري الثريّ.

1-2-7) تعريف جورج مونان

يعرّف جورج مونان اللسان بأنه "كلُّ نظامٍ من العلامات الصوتية المزدوجة التمفصل خَاصٍّ بمجموعة بشرية مسلَّم بها، فالألمانية الأدبية،... والألزاسية، والبروتونية، وكْرِيّول غوادولوب[52] ألسنة بالطريقة نفسها"[53]،غير أنه يضيف "ليست لنا مصلحة لتسمية لسان أو لغة نظاماً للتبليغ الإنساني (رسم بالإلوان، موسيقى، سينما، إلخ) أو الحيواني (نحل، دلفين، إلخ) الذي لم نبرهن عليه بأنه مُبَنْيَنٌ structuré مثل الألسنة الطبيعية الإنسانية"[54].

2-2-7) تعريف جون دبوا

وأما جون دبوا JEAN DUBOI، فقد جاء عنده أن اللسان la langue بالمعنى الأكثر شيوعاً أداة للتبليغ، ونظام من العلامات الصوتية النوعية المتداولة وسط مجموعة، ويرى أننا نسمّي اللسان الأمومي ذلك اللسان المستخدم في البلد الأصلي للمتكلم، أي ما اكتسبه هذا الأخير منذ طفولته خلال عملية تدرّبه على اللغة[55].

ويشير دُبْوا إلى أن التغيرات داخل لسان بذاته ذات شأن خطير، ولذا فإن اللسانيين تجدهم يتحدّثون من الناحية التزامنية عن مستويات اللسان مثلما يتكلمون

عن اللسان الشائع، والرفيع، والتقني، والعلمي، والشعبي الخاص بعدة طبقات اجتماعية، فضلاً عن أنواع لهجية إقليمية وفرعية أخرى،...[56]، لكن دبوا كغيره من اللسانيين الغربيين المحدثين، لم يأت بشيء جديد خارج مدارك ونظريات اللساني السويسري دي سوسور.

3-2-7) تعريفات دي سوسورية

ومما نَظَّره دي سوسور المسمَّى عند الغربيين أبا اللسانيات الحديثة بشأن اللسان أنه يشكّل مظاهر اللسان البشري كافة، سواء تعلق الأمر بشعوب بدائية أم حضارية، على أن نأخذ في حسباننا طوال الحقب المتتالية كل شكل من أشكال التعبير مجتمعة[57]، وأشار إلى أن للسان جانبين: أحدهما فردي، وآخرهما اجتماعي، ولا يمكن تصور أحدهما من دون الآخر، ويفترض اللسان دوماً نظاماً قائماً وتطوراً في وقت واحد، ويمثّل مؤسسة راهنة، ونتاجاً للماضي، منبّهاً على عدم الخلط بين اللغة واللسان، رغم كون الأولى ليست إلا جزءاً جوهرياً محدداً من الثاني، وأنَّها في الوقت نفسه ليست إلا نتاجاً اجتماعياً لملكة الثاني[58].

وأوضح هذا المنظّر اللساني الرهيب أن اللسان يمتدّ إلى أصعدة مختلفة (فيزيائية، فيزيولوجية، نفسية) في آنٍ واحد الأمر الذي يجعل تصنيفه صعباً في أية فئة من الوقائع البشرية، لكن هذه الصعوبة لا تكمن في اللسان ذاته بقدر ما تكمن في قصورنا وعجزنا عن معرفة اكتشاف وحدته، خلافاً للغة التي هي كل في حد ذاتها، وأنها هي التي تصنع وحدة اللسان، سوى أن ممارسة اللسان ترتكز على قدرة تكسبنا إياها الطبيعة، في حين أن اللغة ظاهرة اجتماعية متواضع عليها، ولعل أبرز جملة

جاءت عند دي سوسور قوله: "الكل الشمولي للّسان لا يدرك، وذلك لكونه غير مماثل"[59].

8) علاقة القرآن بعلم اللسان

1-8) المعجزة الصوتية في القرآن

إننا كثيراً ما ننبهر بنظريات غربيّة تستحق أن تُبْهرك، ولكننا قلّما نعود إلى أنفسنا، وإلى ما وهبنا الله في كتابه العزيز من إشارات يمكن للّبيب أن يتخذها منطلقاً لبحثه، ومن هذه الإشارات كلمات وردت فيه أصبح علم اللغة الحديث يردّدها ويختبرها، ومنها: اللسان، والكلام، والكلمة، والأصوات، والهمس، والسماع،﴿ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَـٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾[60]، منطق الطير، النطق، التأويل،... ومع ذلك، فإننا نكرّر ما أومأنا إليه آنفاً، بأن القرآن هو كتاب هداية لِمَا لا يستطيع أي علم دنيوي أن يهدي من هداهم الله إلى نجده السويّ.

ولعل أحداً يرمي إشارتنا السابقة باحتواء القرآن الكريم على معلومات لسانية، بالخبل أو العاطفة العائمة، مما يحتّم علينا لفت النظر إلى جزء من هذه المعلومات، من ذلك أن الأصوات التي بُنِيَ عليها كلام العرب تسعة وعشرون صوتاً (حرفاً)، وعدد السور التي ابتدأت بالأصوات العربية مجهورة ومهموسة ثمانٍ وعشرون سورة، وجملة ما ذكر من هذه الأصوات في أوائل السور من حروف المعجم أربعة عشر صوتاً "لِيُدَلَّ بالمذكور على غيره، وليعرفوا أن هذا الكلام منتظم من الحروف التي ينظمون بها كلامهم[61].

وورد نصف الأصوات مذكوراً في جملة الأصوات المفتتح بها أوائلُ السور، والنصف الآخر مجهور، دون زيادة ولا نقصان، مثلما اشتملت أوائل السور على نصف الأصوات الحلقية، ونصف آخر ليس مما يدخل في أصوات الحلق "فإن كان أصل اللغة توقيفاً فالأمر في ذلك أبينُ، وإن كان على سبيل التواضع فهو عجيب أيضاً، لأنه لا يصحّ أن تجتمع هممهم المختلفة على نحو هذا إلا بأمر من عند الله تعالى"[(62)].

وإنما تقدّمت اللسانيات العربية القديمة ذلك التقدم المتشعب الهائل، باستثمارها ما ورد في القرآن منظوماً نظماً لم يعهده العرب، وهو يدور في فلك عربيتهم، وذلك بفضل علماء نحارير جمعوا بين علوم اللسان وممارسة القراءات القرآنيّة.

2-8) اللغات منضوية تحت اللسان

أياً كان الأمر، فإن علم اللسان الحديث يتداول مصطلحات لسانية لا تغرب عناصر منها مما ورد في القرآن، ومنها تعبيره باللسان بوصفه نسقاً يشمل مختلف المنطوقات العربية من لهجات، وتكلمات، وهي كثيرة، إذ ذكر السيوطي نقلاً عن أبي بكر أن في القرآن من اللغات خمسين لغة، دون ما ورد فيه من ألفاظ أعجمية[(63)] كانت عُرِّبَت ومارسها العرب فيما بينهم قبل نزوله.

من غير المنطقي أن تسمَّى وحدات لغوية شاردة هنا وهناك بين هذه العشيرة أو تلك باللسان، والأمثلة على ذلك كثيرة، فمما أخرج أبو عبيد عن الحسن أنه قال "كنا لا ندري ما الأرائك، حتى لَقِيَنَا رجل من أهل اليمن، فأخبرنا أن الأريكة عندهم هي الحَجَلَة فيها السرير"[(64)]، وأُخْرِجَ عن الضحاك في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَلْقَىٰ

مَعَاذِيرَهُۥ ﴾[65]، وأُخْرِجَ عن عكرمة في قوله تعالى: ﴿ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾[66] قال هي لغة يمانية، لأنهم يقولون: زوّجنا فلاناً بفلانة، لأن أَزْدَ شَنُوءَةَ تعدّي هذا الفعل بالباء[67]، ومما يُسْند إلى ابن عباس أنه قال: "كنت لا أدري ما فاطر السموات والأرض؟ حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها، أنا ابتدأتها"[68].

ما ذكر أعلاه من وحدات لغوية، ومثلها الفوارق الصوتية، والصرفية، والنحوية، والدلالية،... بين العرب، إنما هو لغات، لكنها منضوية تحت هيمنة منظومة لسانية موحّدة، هو اللسان العربي، ولذلك نجد بعض المتنورين يشرح السبعة أحرف بقوله: "وليس معنى تلك السبعة أن يكون الحرف الواحد يقرأ على سبعة أوجه،... ولكنه عندنا أنه نزل سبع لغات متفرقة في جميع القرآن من لغات العرب، فيكون الحرف الواحد منها بلغة قبيلة، والثاني بلغة أخرى، سوى الأولى، والثالث بلغة أخرى سواهما كذلك إلى السبعة، وبعض الأحياء أسعد بها وأكثر حظاً فيها من بعض"[69].

وإضافة إلى النص السابق، فإن هناك من نقل عن ابن عباس أنه قال: "نزل القرآن على سبع لغات، منها خمس بلغة العجز من هوازن"[70]، وأوضح أبو عبيد أن العجز هم بنو أسعد بن بكر، وخيثم بن بكر، ونصر بن معاوية، وثقيف، وهم علياء هوازن الذين قال فيهم أبو عمرو بن العلاء: أفصح العرب علياء هوازن وسفلى تميم يعني بني دارم"[71]، وأما اللغتان الأخريان المكمِّلتان للغات الخمس المشار إليها، فلغتا قريش، وخزاعة، ويبرّر بعضهم في ضوء هذا التحديد القبلي الجغرافي قولاً نسبوه لعمر بن الخطاب: "لا يملي في مصاحفنا إلا غلمان قريش أو ثقيف"[72].

إننا لا نخوض في معنى السبعة أحرف التي ما خاض فيها خائض قديم أو حديث، إلا خرج مُقَصِّراً وحسيراً، حتى وإن كنا ممن لا يقول بنزول القرآن بلغة قريش وحدها، وهي جزء من اللسان العربي المجمع عليه بين العرب، ولكن الخوض فيه جاء بنيّة عرضه على المحك اللساني العامّ الذي يميّز بين اللغة من جهة واللسان من جهة أخرى، ولذا قال بعض العلماء المتنورين (القاضي الباقلاّني): "معنى قول عثمان إنه نزل بلسان قريش أي معظمه، ولم يقم دليل على أن جميعه بلغة قريش كله، قال تعالى: ﴿ قرآناً عربياً ﴾ ولم يقل قرشيًّا، قال: واسم العرب يتناول جميع القبائل تناولاً واحداً، يعني حجازها ويمنها"[73].

وإذاً، فالقصد من هذه الإحالات محاولةُ بيان أن التعبير باللسان في القرآن تعبير لا يشير إلى لغة بعينها، لأنه إطلاق شامل يراد به كل ما ورد فيه من لغات عربية دانية وقاصية، قال تعالى: ﴿ كِتَـٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَـٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ ﴾[74]، وكقوله جلّ ثناؤه: ﴿ وَلَوۡ جَعَلۡنَـٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَـٰتُهُۥٓ ءَا۬عۡجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ﴾[75]، إلى غير ذلك من الآيات البيّنات التي تقطع بعمومية اللسان الذي نزل على سيد المرسلين، وهو ما يذهب إليه علم اللسان الحديث الذي لا يساوي بين منظومة لغوية ومنظومة لسانية، سواء كان معنى الحرف الوارد في الحديث لغة أم دالاًّ على شيء آخر، ولكن مما نميل إليه أن الحرف أقرب إلى مدلول اللغة منه إلى اللسان، بينما لا نشك في أن الأحرف السبعة أقرب إلى مدلول اللسان منه إلى اللغة:

السبعة أحرف }
أحرف<سبعة أحرف{لغة أو لغات{مجال لساني حصري
أحرف ≤ سبعة أحرف {لسان {مجال لساني شمولي

3-8) مقارنة بين اللغة واللسان

والفرق الذي يمكن أن نسجله بين اللغة واللسان أن اللغة le langage تشمل لغة محددة أو لهجة أو حتى تكلماً فردياً (لهجة فردية) idiolecte، في حين أن اللسان شمولي لأنه يُعْنى به منطوق كل ما ينضوي تحته من منطوقات، ولذا فقد يتوسع مفهوم هذا المصطلح ليشمل منطوق كل اللغات أي النظام الذي يَعُمّ مختلف اللغات الإنسانية المنطوقة، على حين أن اللغة بمقابلتها باللسان لا تمثّل إلا منطوقاً خاصاً بفئة من الفئات، حتى ولو كانت هذه الفئة مما يتصل بفصيلة حيوانية أو كائنات حية أخرى، ربما سيتوصّل العلم يوماً للوقوف على أنها ترسل فعلاً إشارات ذات دلالات تواصلية، ولكنه لن يتوصّل إلى التواصل معها، ولا يشبه هذا الطموح المستحيل إلا الطمع في إحياء الموتى، لسبب بسيط وهو أن معجزة الخالق لا تتكرر من مخلوق، وأكثر من ذلك أن "اللغة بشكلها الاجتماعي لا توجد عند الفرد إلا جزئياً، ولا تكتمل إلا عند الجماعة[76].

ولعل ما نراه جديراً بالإضافة إلى التمييز بين اللغة واللسان، أن الأولى "بنية قائمة بذاتها مكتفية بنفسها تتطلب أساليب تحليلية خاصة بها[77] على حدّ ما جاء عند لويس هلمسليف مؤسس حلقة كوبنهاغن اللسانية[78] معتنقاً رأي دي سوسور القائل "اللغة شكل، وليست مادة"[79]، ولذا يجب أن نتعامل مع اللغة بناء على شكلها أو صورتها الصوتية التلفظية، في حين أن الثاني (اللسان) يشمل عالم المعاني والدلائل، وهو عالم مدلولي لا يخص لغة دون لغة، بما في ذلك اللغات المسماة "بدائية" فاللغة فضاء داخلي يتمحور في فلك تكلمات وتواصلات حصرية، كاللغة العربية، واللغة الألمانية،... بينما اللسان فضاء أشدّ بَوْناً وشساعة، ولذا فإن تسمية اللسان باللغة أو

العكس بدعة من اصطلاح المتأخرين لا المتقدمين، ولربّما عبّر العرب باللسان عن الرسالة، كقول مُرَقِّشٍ الأكبر[80]:

أَتَتْنِي لسانُ بني عامرٍ فَجَلَّتْ أحاديثُها عَنْ بَصَرْ

أجل، عوالم اللغات في وضعها الميتالساني "تكاد تقول الشيء نفسه بالنسبة لمعانيها، إذ لا يتصور عاقل واعٍ أن ما يحيط بعالم لغة في زمان ومكان متزامنين أو حتى متباينين مختلف اختلافاً جذرياً أو جوهرياً بين لغة يجهل أصحابها لغة أو لغات أخرى، وإذا ما وجد هذا الاختلاف المتنامي فعلاً في مستواه الدلالي العامّ أو الخاص، فلن يكون خارج لغة بذاتها، ولا صلة له بما يتنامى في لغة أو لغات أخرى في وقت واحد أو مختلف، وهنا تكمن إحدى صعوبات الترجمة بل صعوبة شرح نص على مستوى لغة بعينها في غير أوانه"[81].

ومما كنا ذكرناه أيضاً في بحثنا "العربية ورهانها العولميُّ لسانياً"[82] أن اللسانيين توصلوا إلى ملاحظة تشابهات لا يستهان بها فيما يخص التنظيم السطحي للأسنة البشرية في بنياتها، ولاسيما في البنيات الفونولوجية والنحوية والدلالية، لأننا نجد في كل الألسنة التمفصل المزدوج، أي التمفصل على مستوى الوحدة الدالة (المورفيم، والوحدة الصوتية التمايزية (الفونيم)، مثلما لاحظ العلماء أن عدد الفونيمات المستعملة بين الألسنة غالباً ما يكون أقلّ من خمسين فونيمة، فضلاً عن الفصائل السانتكسية (فعل، اسم، حرف،...) وعلاقة المسند إليه بالمسند أو الموضوع بالمحمول،... وهل بقي سرّ في استخدام القرآن مصطلح اللسان الدال على الرحابة والشمول بدلاً من مصطلح اللغة المراد به ظاهرة تواصلية لفئة اجتماعية بعينها؟.

إحالات البحث:

1- سورة البقرة، من آية: 255.
2- سورة البقرة، من آية: 256.
3- سورة طه،آية: 110.
4- سورة النحل، آية: 8.
5- سورة النحل، آية: 9.
6- المقدمة، عبد الرحمن بن خلدون، دار الفكر، بيروت، ط: 1/2006، ص: 504.
7- مـروج الذهــب، المسعودي، دار الأندلس، بيروت، ط:1/1965، 1/ص: 53.
8- نفسه، 2/ ص: 110.
9- راجع الأصوات والإشارات، أ. كندراتوف، ترجمة شوقي جلال، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط، 1972، ص: 140 – 142.
10- علم اللغة: نشأته وتطوره، د. محمود جاد الرب، دار المعارف، مصر، ط: 1/1985، ص: 10.
11- سورة إبراهيم، آية: 4.
12- الفاضل، المبرد، تحقيق عبد العزيز الميـمني، دار الكتب المصرية، ط: 1956، ص: 4.
13- طبقات النحويين واللغويين، الزبيدي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، ط: 1973، ص: 11. الزبيدي.
14- سورة الغاشية، آيات: 17، 18، 19، 20.
15- سورة الرحمن، آية: 33.
16- الفاضل، ص: 4. المبرد.
17- نور القبس المرزباني واختصار اليغموري، تحقيق: رودولف زلهايم، دار النشر فرانتس شتاينز بقيسبادن، ط: 1964، ص: 2.
18- نفسه، ص: 2.
19- نفسه، ص: 2.
20- الفاضل، ص: 4.
21- طبقات النحويين واللغويين، ص: 13.
22- نور القبس، ص: 3.
23- نفســه، ص: 3.
24- نور القبس، ص: 3.

25- نفســه، ص: 3.

26- الفاضل، ص: 5.

27- نفســه، ص: 5.

28- البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، مصر، ط: 1950، 1/ص: 167.

29- علوية نسبة إلى العالية (على غير قياس)، وهي كل ما كان جهة نجد من أرض الحجاز، وأهلها فصحاء العرب.

30- طبقات فحول الشعراء، محمد بن سلام الجمحي، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني – القاهرة، ط: 1974، السفر الأول/ص: 9.

31- محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب أبو جعفر الباقر (60-118ه).

32- طبقات فحول الشعراء، 1/ص: 10.

33- نفســه، ص: 11.

34- راجع مثلاً، المصباح المنير، الفيومي، المكتبة العلمية، بيروت، ص: 553. الفيومي.

35- المذكر والمؤنث، الفرّاء، تحقيق: د. رمضان عبد التواب، ط: 1975، مطبعة قاصد خير، القاهرة)، ص: 74.

36- الصحاح، إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط: 3/1984، 6/ص: 2195.

37- سورة مريم، آية: 50، الشعراء، الآيتان: 13، 84، البلد، آية: 9، القيامة، آية: 16، طـه، آية: 27، النحل، آية: 62.

38 - La linguistique (Guide alphabétique) sous la direction d'André Martiner, éditions denoël, p : 162.

39- نفسه، ص: 163.

40- المرجع السابق، ص: 164.

41 - Dictionnaire de didactique des langues, R. Galisson /D. Coste Hachette, Paris, 1976, p : 105 – 106.

42- نفسه، ص: 106.

43 - Linguistique synchronique, André Martinet presse universitaire de France, 4e éditions, Paris, 1974, p : 8.

44- المرجع السابق، ص: 18.

45 - Le langage : Edward Sapir, traduit de l'Anglais par S.M . Guillemin, petite bibliothéque payot, Paris, p : 12.

46- أي يُحْبَس أوَّلهم على آخرهم.

47- سورة النمل، آيات: 16 – 17 – 18 – 19 – 20 – 21 – 22 – 23.

48- الأصوات والإشارات، ص: 194.

49- الأصوات والإشارات، ص: 194.

50- في المعاجم العربية (الصحاح: 1/363) أن الربّاح بالضم والتشديد الذكر من القرود.

51- الأصوات والإشارات، ص: 187، 189، 191، 196.

52- Créole de la Guadeloupe أي اللغة المزيج لهذه الطائفة المتكلمة.

53 - Dictionnaire de la linguistique. Georges Mounin, presse universitaires de France, Paris, 1974, p : 196 – 197.

54- المرجع السابق، ص: 197.

55 - Dictionnaire de linguistique, JEAN DUBOIS, Librairie Hachette, p : 196 – 197.

56- نفسه، ص: 276.

57- يراجع محاضرات في الألسنية العامة، فريدناند دي سوسور، ترجمة: يوسف غازي، مجيد النصر، دار نعمان للثقافة –بيروت، ط:1984، ص: 17.

58- نفسه، ص: 21.

59- نفسه، ص: 33.

60- سورة طـه، آية: 108.

61- إعجاز القرآن، الباقلاني، أبي بكر محمد بن الطيب، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف مصر، سنة 1963، ص: 44.

62- نفسه، ص: 45.

63- راجع معترك الأقران في إعجاز القرآن، الإمام السيوطي، تحقيق البجاوي، دار الفكر القاهرة، ق1/204 – 204.

64- نفسه، ص: 199. الحَجَلة كالقبة، وموضع يُزَيَّن بالثياب والسُّتور للعروس ج حَجَل وحِجَال.

65- سورة القيامة، آية: 15.

66- سورة الدخان، آية: 54.

67- راجع المصباح المنير، ص: 259.

68- فضائل القرآن، إسماعيل بن كثير، ط: 1966، دار الأندلس، بيروت، ص: 34.

69- نفســه، ص: 33.

70- فضائل القرآن، ص: 3.

71- نفســه، ص: 34.

72- نفســه، ص: 34.

73- فضائل القرآن، ص: 38.

74- سورة فصلت، آية: 3.

75- سورة فصلت، آية: 44.

76- الموقف الأدبي "علم اللغة" لدانييل مانيس، طبع ضمن مجلة الموقف الأدبي" العددان: 135-136، سنة1982 (دمشق)، ص: 219.

77- الموقف الأدبي، ص: 215.

78- كان ذلك سنة 1935.

79- محاضرات في الألسنية العامة، ص: 147.

80- المفضليات، المفضل الضبي، تحقيق: محمود محمد شاكر وعبد السلام هارون، مطبعة المدني، القاهرة ، ص: 235.

81- العربية: الراهن والمأمول، ص: 714. منشورات المجلس الأعلى للغة العربية سنة 2009(الجزائر)، والنص للباحث نفسه.

82- المنشور في المرجع السابق، ص: 705 – 743.

الصناعة المعجمية و ضرورة الانفتاح على تنمية استعمال اللغة العربية في القطاعات الاقتصادية و الاجتماعية

أ.د. بشيـــر إبريـــــر
(ج. باجي مختار-عنابة)

1-مقدمـــة :

نبحث في هذا الموضوع -إن شاء الله- إشكالية علمية ومعرفية نراها على درجة كبيرة من الأهمية في البحث المعجمي العربي، وما يتطلبه من صناعة تضع في اعتبارها أهدافا جديدة للبحث المعجمي، **يتعلق بالتنمية اللغوية في القطاعات الاقتصادية والاجتماعية**، وما تحتاجه من معاجم جديدة تنفتح من خلالها على الاستعمالات اللغوية المختلفة التى تتداولها الوظائف المتعددة في قطاعات مثل:

السياحة والإدارة والصحة والإعلام والإشهار والمنظومة القانونية والتربوية والمهن والحرف المختلفة.

وكل هذا يحتاج إلى ترسانة من المصطلحات والاستعمالات الجديدة التى تربط اللغة العربية بنشاطات الحياة.

ولهذا سنطرح جملة من الأسئلة الإشكالية المتعلقة بالموضوع منها:

هل يوجد إجراء منهجي يوفّق من الناحية العلمية بين ما يقتضيه **المعيار اللغوي** من ضبط، وما يقتضيه **الاستعمال** من الانفتاح على التجدد والتطور، والعمل على صناعة معجمية تنهض بأعباء عصرها وحاجاته التداولية المختلفة من اللغة؟.

هل أدركت المعاجم العربية بمختلف أنواعها حاجات المتكلمين بها من الصيغ الصرفية؛ لأنها تمثل ثروة حقيقية ورأسمال يمكن استثماره في تطوير التنمية اللغوية بالعربية، وبخاصة إذا افترضنا أن بحثنا المعجمى لا يعكس فعلا حالة اللغة وحاجات المتكلمين؟. هل أسهم ما وضع من معاجم في عديد العلوم والتقنيات وما احتوته من مصطلحات وألفاظ في إحداث تغيرات على الصناعة المعجمية في الوطن العربي ومنه الجزائر في تنمية اللغة العربية من حيث الإضافة إليها صيغًا صرفية جديدة واستعمالات لغوية متداولة تواكب عصرها؟.

هل توجد منهجية تبحث في حسن العبور من الحقيقة إلى المجاز، وتدرس الألفاظ والمصطلحات المختلفة في سياقاتها النصية، وفي إطار منظومتها الاصطلاحية التى تنتمى إليها، ومن خلالها تحدد هويتها اللسانية والمعرفية في خريطة المعرفة التى تعبر عنها وتعمل على تبليغها، في علاقتها بالمعارف والتخصصات الأخرى؟.

هل توجد صناعة معجمية واضحة في بلادنا والبلاد العربية؟ بل هل توجد إستراتيجية لغوية عامة تعمل على التمكين للغة العربية لمواكبة عصرها ومضاعفة مردودها التواصلي؟.

إنها أسئلة كثيرة مطروحة علينا كمجتمع يود التواصل الإيجابي مع لغته، ويعبر بها عن جميع أغراضه وحاجاته، وإن الإجابة عنها تتجاوز طاقة باحث واحد أو فرقة بحث، وإنما الإجابة عنها تتجاوز ذلك إلى منظومة المجتمع برمته وكل مؤسساته.

بدءا بمن بيده سلطة القرار السياسى الداعى إلى التنفيذ بصدق وإخلاص لهذه اللغة الشريفة، ولهذا الوطن وشهدائه الأبرار، وللقانون الجزائري رقم 91-05 المؤرخ في 16 يناير/جانفى 1991، والمتضمن استعمال اللغة العربية في مادته الثانية من فصله الأول في عبارته: "اللغة العربية مقوم من مقومات الشخصية الوطنية الراسخة، وثابت من ثوابت الأمة يجسد العمل بها مظهرا من مظاهر السيادة واستعمالها من النظام العام".[1] وانتهاء بالمواطن البسيط.

2- في مفهوم الصناعة والصناعة المعجمية:

تعنى الصناعة الإتقان والإحكام والممارسة الدقيقة للأعمال التى ينجزها الإنسان لأداء وظيفة محددة في الحياة، ويعنى ذلك مدى فهمه وإلمامه بأصول الصناعة وفروعها وتشعباتها، ومدى الوعي بأهميتها في الحياة العلمية والعملية.

وأما المعجمية أو علم المعجمات Lexicologie: فهو فرع **من فروع اللسانيات التطبيقية**، يبحث في الجانب التطبيقى العملى للغة واستعمالاتها المختلفة، وإذا كانت اللسانيات التطبيقية هى العلم الذي يعالج مشكلات اللغة ويقدم لها حلولا، فإن ذلك ينطبق أيضا على المعجمية، فهى أيضا علم تطبيقى عملى، ويصير، بذلك **المعجمي** واحدًا من علماء اللسانيات التطبيقية.[2]

وأما صناعة المعاجم Lexicographie فتبحث في أنواع المعاجم ومكوّناتها وطرائق إعدادها.(3)

ولا بد من الإشارة إلى أن الصناعة المعجمية تعد مثالا حيا **لتضافر التخصصات**، فلها علاقة بكثير من العلوم مثل:

علم المصطلح Terminlogie: الذي يتعلق بدراسة الألفاظ الخاصة بالعلوم وجمعها وتصنيفها وتحليلها ووضع بعض الكلمات أو الألفاظ إن اقتضى المقام ذلك.(4)

والتخطيط اللغوي Planification linguistique: الذي يتعلق بالإجراءات المنهجية والأبعاد الاستراتيجية والاستشرافية التى من خلالها يستطيع المخططون اللغويون استبصار الحلول المختلفة للمشكلات اللغوية في علاقتها بمجتمعها، وعلاقتها بغيرها من المجتمعات الأخرى، بالنظر إلى الأهداف التى رسموها و يعملون على تحقيقها، وبالانطلاق من أسئلة محددة: من يخطط؟ ولماذا يخطط؟ ولمن يخطط؟ وكيف يخطط؟، وفي أي مجال يخطط؟.

إن التخطيط ضرورة من ضرورات التنمية في مجالاتها المختلفة: الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، واللغوية... وهو عملية التوجيه العقلاني في حركته نحو المستقبل بإعداد مجموعة من القرارات القائمة على نتائج البحث والدراسة من أجل الوصول إلى تحقيق أهدافه بجهد أقل ووقت أسرع(5)؛ إنه يتعلق في إطاره العام بالسياسة العامة التي ترسمها الدول للنهوض بها تنمويا.

وتلتقى الصناعة المعجمية أيضا **بالترجمة وأنواعها واللسانيات وعلوم اللغة العربية**: من نحو وصرف وأصوات ودلالة، ولها صلة **بعلوم الحاسوب وتكنولوجيا اللغة؛** الأمر الذي يجعل الصناعة المعجمية علما معرفيا يمكن استثماره بفاعلية في تحسين مستوى الانتفاع باللغة، وذلك بتصنيف المعاجم من أجل الاستعمال العام، ومعاجم المصطلحات في مجالات متعددة.

تعد الصناعة المعجمية -في نظري- جزءا مهما من المنظومة الثقافية الشاملة للمجتمع تترابط وتنسجم مع منظومات المجتمع الأخرى؛ الإعلامية والسياسية والدينية والتربوية... وتتمحور كل هذه المنظومات حول منظومة واحدة هى منظومة اللغة.

3- في مفهوم التنمية والتنمية اللغوية:

إن من بين الرهانات المطروحة على المجتمعات العربية[6] ومنها الجزائر رهان التنمية بصفة عامة ومنها التنمية اللغوية، كيف يتم تحقيقها وبأية وسيلة؟ وكيف تنفتح اللغة العربية على القطاعات الاقتصادية والاجتماعية، وتعيش في بيئتها الاستعمالية المرتبطة بأداء الوظائف المختلفة والتعبير عن الحاجات؛ وبخاصة إذا علمنا "بالنقص الذي تعاني منه العربية راهنا في أداء الكثير من المفاهيم الإنسانية والمتصورات العلمية والتقنية، فغدا تدارك هذا التقصير ضرورة إلزامية تقع على عاتق الهيئات العلمية، وجمهور الباحثين مخافة تضاؤل رصيد معجم العربية مقابل ما نراه من تفاحل الترامى على مفاهيم اللغات الغربية دون إخضاعها لتأصيل مصطلحي".[7]

يعنى مفهوم التنمية بمعناه العام، التطوير والتحسين والنهوض بالمستوى نحو الأفضل والأجود والأرقى بما يحقق للإنسان تكيفه مع واقعه الحياتي والتعبير عنه بالمعجم اللغوي المناسب للمقام المناسب.

إن تنمية استعمال اللغة العربية في القطاع الاقتصادي والاجتماعى صار ضرورة لا بد منها، فالحياة الاجتماعية بمختلف مستوياتها التواصلية متغيرة متبدلة حسب الحاجة، فينتج عن ذلك توسيع متجدد في ألفاظها واستعمالاتها بما يحظى بالقبول عند المستعملين لها مشافهة وتحريرا.

وقد عرف مصطلح "تنمية" توظيفا واسعا في العلوم الاجتماعية والاقتصادية، كما تم توظيفه أيضا في علوم اللغة.

"إن التنمية اللغوية عملية واعية هادفة إلى إحداث تغيرات محددة منشودة، وليس مجرد رصد لتغيرات لغوية، لهذا ينبغى عدم الخلط بين تلك البحوث ذات الصبغة التاريخية الهادفة إلى رصد التغيرات اللغوية في لغة واحدة أو في عدة لغات، وفي اللغات الإنسانية بصفة عامة، وتلك الجهود الهادفة إلى إحداث تغيرات في المستقبل؛ فالبحوث التاريخية تبحث التغير اللغوي، وهو موضوع مختلف عن التنمية اللغوية". [8]

بناء على هذا يمكن للتنمية اللغوية أن تحقق أهدافها من ناحيتين: **الأولى**: تتعلق بالخصائص الداخلية للغة بما يسمح بتوفير المادة اللغوية واستثمارها في ما يمكن أن يغطي حاجتنا الإفرادية في المجالات المفهومية المختلفة.

وأما الثانية : فمرتبطة بتأسيس خطة لغوية تسمح بتفعيل المجهودات التنموية في اللغة، بما ينعكس على المجتمع إيجابيا، ويحدث تغيرات في أوضاعه العامة التى يحتاج في التعبير عنها إلى الاستعمالات اللغوية التى تناسبها وتناسب القطاع الذي تنتمي إليه.

وكل هذا يحتاج إلى صناعة معجمية جادة تواكب عصرها وتجعل اللغة العربية وسيلة أساسية "في تحقيق التنمية المنشودة، وأن تعطيل دورها يؤدي حتما إلى تعطيل التنمية وإلى حدوث "فجوة تنموية" لا تستطيع اللغة الأجنبية سدها، وذلك لأن اللغة هى أبرز سمات المجتمع الإنساني، وما من حضارة إنسانية إلا وصاحبتها نهضة لغوية... واللغة هى الأداة التى تصنع من المجتمع واقعا، والوسيلة التى تحدد صلة الإنسان بهذا الواقع... واللغة الأم هى الوعاء الرئيسى لإبداع المعرفة وإنتاجها حسب تقرير التنمية الإنسانية العربية لعام 2003 الذي يضيف بخصوص اللغة العربية بالذات أن أخطارًا تتهددها وتنذر بتبديد الفرص التاريخية المتاحة للعرب لإقامة مجتمع المعرفة عبر النهوض باللغة العربية".(9)

4- حاجتنا إلى صناعة معجمية باللغة العربية: ضرورة واكدة وراهنة ثابتة

تبدو حاجتنا إلى صناعة معجمية عربية تنهض بتطوير اللغة العربية وتحسين استعمالها في المجالات الحيوية المتعلقة بأداء الوظائف المتنوعة، حاجة مسيسة وضرورة حتمية لا بد من العمل على الاهتمام بها ووضعها على رأس مخططاتنا التنموية المختلفة، واختياراتنا الاستراتيجية؛ إنها "اختيار عميق في بعده المعرفي،

ومقلق في بعده الفلسفى، ومفيد في بعده التداولي. إنه الموضوع الذي يستوعب تجربة المعجم العربي بكل عمقه وغناه وتنوعه وتراكمه... والموضوع الذي يختزل فيه كل أسئلة المعجمية الحديثة التى تدخل في وصف العلوم، ويختزل إشكالية الانتقال المنهجى المعتمد على التحليل والتعليل بدل الوصف. والانتقال من الاهتمام باللغة باعتبارها موضوعا خارجيا إلى الاهتمام بالمعرفة اللغوية؛ بل بالأنساق المعرفية للغة، عبر الانتقال من المفردات إلى دراسة نسق العلائق النحوية الدلالية، وبالآليات الصورية للغة وبنمذجتها. وهو الانتقال من المعجم إلى المعرفة المعجمية، ومن المصطلح إلى المعرفة المصطلحية. إنه تحول في المنهج، وتغيير في المسار أفضى إلى ضرورة الربط بين النحو والمعجم، ودراسة الأنساق التى توجد بهدف تفسير الظواهر؛ أي دراسة الملكة اللغوية للمتكلم بكل أبعادها".[10]

وتزداد حاجتنا إلى الصناعة المعجمية بالنظر إلى واقعنا المزري في عمومه، وما نعانيه من تخلف بدءا بلقمة العيش والدواء إلى أرقى الحاجات الأخرى"[11]

وبالنظر إلى ما وصل إليه المجتمع المعاصر من تطور مذهل على جميع المستويات حتى غدا المجتمع يوصف بمجتمع المعرفة، ونحن -كما قال الأستاذ الفاضل الدكتور نبيل علي- منذ أمد طويل وإنتاجنا في تناقص مستمر، ويخشى البعض إن استمرت الحال على ما هى عليه، أن يستبعد العرب تماما من ساحة إنتاج المعرفة العلمية التكنولوجية، بل ربما يصل الأمر إلى عدم القدرة على استهلاكها في ظل تلك التبعية الضاربة بجذورها في منظومتنا التنموية.[12] ومنها اللغة العربية التى لا نكاد نستعملها في أداء كثير من الوظائف الحيوية في المجتمع حتى صار يخيل لكثير من

الناس، بل تولدت لديهم قناعة بأن العربية عاجزة ولا تملك من الألفاظ والمفردات ما يعبر عن مستجدات العصر.

يبدي التأمل في واقع البحث المعجمي في الوطن العربي وعلى المستوى الخاص ببلادنا عدة نقائص منها:

4-1- ندرة واضحة وربما انعدام للمعجمات المتخصصة: المرتبطة بالقطاعات الاقتصادية والاجتماعية التى تتناول اللغة العربية المستعملة حسب الوظائف المؤداة في هذه القطاعات من سياحة و إدارة وصحة ومواصلات ومهن...

ولهذا انعكاساته السلبية على **الشخصية الوطنية** أولا ثم على **التنمية الاقتصادية ثانيا**، يظهر ذلك من خلال علاقة القوى المنتجة بالمعرفة الحديثة والتقنيات العصرية التى تستأثر بها غالبا اللغة الأجنبية؛ وبخاصة اللغة الفرنسية التى تستخدم في تدريس المواد العلمية والتقنية في التعليم والتكوين المهنى، وفي تدريس التخصصات العلمية والهندسية والاقتصادية في التعليم العالي، وفي كثير من الإدارات والمؤسسات العمومية والخاصة ذات الصبغة الاقتصادية والمالية والتقنية؛ بل إن الفرنسية أصبحت تزاحم العربية في تدريس المواد القانونية والاجتماعية والإنسانية في بعض المعاهد والمدارس. (13)

وبالرغم من الثنائية اللغوية المعمول بها في دول المغرب العربي ومنها الجزائر، فإن استعمال اللغة الفرنسية هو الأساسي، وهو الغالب في الكتابة الأصلية للنصوص

والوثائق الرسمية التى يتم ترجمتها إلى العربية بعد ذلك في غالب الأحيان، **والترجمة أبدًا ليست هي الأصل**، وكأن الفرنسية بهذا هي اللغة الوطنية الرسمية للبلاد.

وكل هذا له انعكاساته على التسميات المختلفة والمصطلحات المتنوعة التى تجود بها هذه القطاعات، فتكون في أغلبها بالفرنسية وحتى إن كان المقابل بالعربية موجودا فإنه لا يستعمل إلا نادرا. (14)

ولهذا فإن الصناعة المعجمية بالعربية أراها مشروع مجتمع بكل آلياته ومنظوماته من أجل توليد المصطلحات وتداولها والتوجه بها نحو مجتمع المعرفة.

لقد أصبحت الكلمات تسوق وصار عليها العرض والطلب، وصرنا نتحدث عن السوق اللغوية التى تتداول الكلمات كما تتداول العملات النقدية، وصرنا نتحدث عن البنوك المالية وعن بنوك المعلومات اللغوية والمصطلحات والمفاهيم، وصرنا نتحدث أيضا عن رأس المال النقدي، ورأس المال اللغوي.

ولا بد أن تجد اللغة العربية مكانها في هذه السوق، وبناء عليه فإن العمل في القطاعات الاقتصادية والاجتماعية بالعربية وصناعة المعاجم بخاصة، **شرط لازم لتشكيل الطلب على المصطلح.**

وجدير بالإشارة -في هذا المقام- إلى "أن الخلط بين إتقان اللغة الأجنبية من قبل الجامعيين والباحثين والمنتجين وبين التعليم باللغة الأجنبية تبرير خاطئ للغاية

في الدفاع عن التعليم العالي بغير اللغة العربية، والخسارة الاقتصادية على المستوى الكلي أو الوطني للاقتصاد هائلة نتيجة هذا الخلط". [15]

4-2- عدم إيجاد توافق منهجي علمي بين المعيار والاستعمال: ما من لغة في العالم إلا ولها معيار يضبطها من أجل المحافظة عليها، وتيسير التواصل بها، والتعبير عن الغرض وتبليغ المقصود.

وما من لغة إلا ولها استعمالاتها في قلب الحياة الاجتماعية وما تحتاجه من ألفاظ ومفردات وتراكيب وتعابير خاصة، بل ونصوص تبلغ ما تنتجه من معرفة إلى أفراد المجتمع وإلى المجتمعات الأخرى، فهنالك ارتباط وثيق بين المعيار والاستعمال.

وقد تحدث العلماء العرب القدامى مثل الخليل وسيبويه عن المعيار والاستعمال أو الوضع والاستعمال، وقالوا:

اللغة وضع واستعمال؛ فالوضع ما تم الاتفاق عليه من الجماعة المتحدثة باللغة المستعملة لها، بما يحمل هذا الوضع من معايير وقواعد وضوابط تخصه من النواحي الصوتية والمعجمية والنحوية... **والاستعمال** هو: إجراء الناطقين للوضع في واقع الخطاب، وهو ما يتم تداوله داخل المجتمع، وهو السبب في وجود الوضع؛ فبعد استقراء الاستعمالات اللغوية في الواقع يتم وضع الضوابط والمعايير، وهذه مسألة طبيعية.

لكن ما يجب أن نشير إليه -في هذا المقام- كون الكثير من الذين ألفوا المعاجم وكتبوا عنها ووضعوا بعضها ظلوا -في معظم الأحيان- أسرى للمعيار؛ فلم يجددوا النظرة إلى اللغة العربية وما تحتاجه في واقع الاستعمال والتداول؛ وإنما أصبحوا كأنهم حراس على المعيار لا يجب أن يتعداه أحد، وشغلوا أنفسهم ببعض المقولات الجاهزة التى لا نعدم فائدتها أحيانا، ولكن نراها لم تعد كافية وحدها للنهوض باللغة العربية وإدخالها إلى المجالات الحياتية وما تحتاجه من استعمالات لغوية وظيفية.

ومن بين هذه المقولات الجاهزة: هذا غير موجود في العربية. العرب لم تقل بهذا، قل كذا ولا تقل كذا، وهذا خطأ والصواب هو... [16]

إنّ المطلوب هو إيجاد توافق بين ما هو معيار ضابط للغة وبين ما هو استعمال تقتضيه أوضاع تداولية محددة مرتبطة بمقاماتها ووظائفها.

لقد حرمت هذه النظرة القاصرة اللغة العربية من كثير من الألفاظ والمصطلحات وأثرت سلبا على ذخيرتها المعجمية.

إن العلماء العرب القدامى درسوا الاستعمال؛ وما تميز به الخليل بن أحمد من نظر لغوي ثاقب حصر من خلاله تراكيب اللغة العربية، وبين المستعمل منها والمهمل، وتوصل بذلك إلى ما يسمى الآن عند الغربيين بالتركيب العاملي Factorielle [17]، إنما كان هذا النظر الثاقب وهذا الاستبصار العجيب نتيجة الاستعمال اللغوي ودراسته والبحث في أعماقه.

كما تظهر القراءة المتأنية لكتاب سيبويه أن الرجل قد درس الاستعمال اللغوي بين الطبقات الاجتماعية، كيف تستعمل اللغة وجملة المؤثرات المتعلقة بذلك، سواء أكانت لغوية أم بيئية اجتماعية.

إن كتاب سيبويه -فيما أزعم- ذخيرة لغوية استعمالية سياقية نصية.

4-3- العبور من الحقيقة إلى المجاز: يلاحظ الدارس للمعجم العربي مشكلة أخرى نابعة من المشكلة السابقة، المعيار والاستعمال، ومرتبطة بها ارتباطا وثيقا، فعندما لا نعرف كيف نوفق بين المعيار والاستعمال، فحتما لا نحسن العبور من الحقيقة إلى المجاز.

فاللغة باعتبارها **بنية** وباعتبارها **خطابا** يجب ألا يكون خلط بين الجانبين، وإلا حدث التشويش في الذهن، وخلل في التصور وضبابية في الرؤيا، ينجر عنها الخلط المنهجي بين ما هو من الحقيقة وبين ما هو من المجاز.

إن الدلالة في الحقيقة Denotation هي دلالة وضعية مرتبطة باللفظ في جانبه الوضعي، وهي تختلف عن الدلالة في المجاز Conotation فهي دلالة مجازية تتعلق بالجانب الاستعمالي الخطابي **في بعده الدلالي** الذي يتعلق باللفظ وبنيته الأصلية، ثم بنيته المتغيرة بالحذف والتقديم والتأخير وغير ذلك. **وفي بعده المتعلق بالمعنى** في جانبه اللغوي وما يحمل من دلالات مختلفة وضعية وخطابية ودلائل أخرى خارجية. **وفي جانبه المنطقي غير اللغوي.**

ثم هنالك بعد يتحقق على مستوى الخطاب، **وهو الجانب الإفادي الإعلامى وله قوانينه الخاصة.**

إن اللفظ يوجد على مستوى الوضع والاستعمال، أو على مستوى الحقيقة والمجاز، ويخرج من الوضع أو الحقيقة إلى وجوه أخرى مجازية بلاغية؛ وقد سمّى سيبويه كل ما هو مجاز وخروج عن الوضع اتساعا[18]. إن كلمة "**ارحل**" التى كانت قبل ما سمى الربيع العربي، أو الثورات العربية، كلمة بريئة محايدة عادية في الاستعمال، قد اتسعت إلى معنى آخر؛ أو معاني أخرى ارتبطت بسياقات وأحداث سياسية واجتماعية وشحنت بطرح جديد يهدف إلى تغيير أنظمة الحكم السائدة، لقد كنا نتعامل مع هذه الكلمة قبل الثورات العربية بطريقة وصرنا الآن نستعملها ونتعامل معها بطريقة مخالفة، لأنها اتسعت وخرجت عن وضعها الأول إلى وضع ثانٍ أعطاها معاني جديدة.

أعتقد أن الصناعة المعجمية تحتاج إلى إدراك هذه المسائل من الناحية النظرية، ومن الناحية المنهجية الإجرائية بما يكفل للألفاظ أن تؤدي وظيفتها المعجمية المرتبطة بأوضاعها الخاصة، وبنوع المعرفة التى تعبر عنها؛ لأن المعجم يعد ركيزة أساسية في منظومة للغة، بما يتضمنه من مفردات لغوية خاصة، ومعاني هذه المفردات وعلاقاتها الداخلية بعضها ببعض، وعلاقتها الخارجية الرابطة بين معاني المفردات وفروع اللغة، مثال ذلك: علاقة اللفظ -من حيث معناه- بالصيغة الصرفية وبالسياقات النحوية التى يرد فيها داخل الجمل.

وترتبط ركيزة المعجم بركيزة أساسية أخرى هى: "النحو" وما يمثله من نظام وقواعد تعمل وفقه فروع اللغة من صوت وصرف وتركيب ودلالة.

4-4- التفاعل بين المعجم والنحو: أثمر التفاعل بين النحو والمعجم -برأي الدكتور نبيل علي- ثورة علمية مثيرة ومدوية فجرها توافر الأسس النظرية والوسائل التكنولوجية العلمية للتجريب اللغوي وكان ذلك بناء على:

- **الثورة النحوية:** فقد أحدث التفاعل العلمى بين اللغة وبين الفروع العلمية الأخرى ثورة نحوية؛ فحدث تطور كبير في الدراسة النحوية وخرجت من المستوى اللغوي إلى المستوى التحليلى العميق كما هو الشأن بالنسبة للنحو التوليدي، ومعالجة اللغة آليا. وتعددت النماذج النحوية لتوصيف وتفسير الظواهر النحوية. بل وتم تجاوز الجملة في التحليل إلى وحدات لغوية أخرى أكبر منها، وصار الحديث عن نحو النص ولسانيات النص واللسانيات الحاسوبية والبيولوجية وغيرها، وعلم النص وتحليل الخطاب.[19]

وقد أدى هذا إلى تجديد النظر النحوي العربي الحديث، فأنجزت أبحاث في هذا الإطار، حاول أصحابها أحيانا، التطبيق على دراسة اللغة العربية باستثمار هذه الأنحاء المختلفة. لكن الأمر يظل غير كافٍ؛ وبخاصة ما تعلق بكيفية الاشتغال بالنحو؛ إذ كثيرا ما يهيمن الاهتمام بالجانب الإعرابي والمبالغة فيه دون الغوص في المفاهيم النحوية المختلفة ودلالاتها، فأدى هذا إلى التنفير من اللغة العربية ووصفها بالصعوبة لدى الكثير من الناس.

وقد صاحب هذه الثورة النحوية ثورة أخرى هي:

- **الثورة المعجمية:** فنظرا للعلاقة الوثقى بين النحو والمعجم كان لا بد من ثورة موازية على جبهة المعجم تتكامل وتتفاعل مع النحو، فقد ظل المعجم تابعا للنحو في إطار نظرة تختزله إلى مجرد قائمة من الكلمات ومعانيها، لاعتبارها منظومة تموج بشبكة من العلاقات الاشتقاقية والدلالية والمنطقية. إن المعجم يحمل في جوفه اللغة بأسرها: نحوها وصرفها ودلالاتها، وقدرا لا يستهان به من تداولها التى تربط منظومة اللغة بمقاماتها التى تؤدي فيها من ذلك المقولة العربية التى صارت مثلا شائعا: **لكل مقام مقال.**

لقد شهدت صناعة المعاجم تطورًا كبيرا عند الغرب من حيث إعداد المحتوى المعجمى اللازم، فيما يتعلق بتعريف المعاني حسب مداخلها ومعالجتها آليا، وبروز المعاجم الذهنية التى تهدف إلى تفهم العمليات الذهنية المعجمية فيما يتعلق بوضوح معاني الكلمات بالنظر إلى سياقاتها، والتوسع في بناء بنوك المصطلحات ثنائية اللغة ومتعددة اللغات، والتوسع في استخدام ذخائر النصوص المحوسبة التى تخزن النصوص الفعلية للاستخدامات الحقيقية للغة، وتحديد معاني الألفاظ وفقا لسياقاتها الحقيقية والتي أصبحت هي الأساس في بناء المعاجم حسب استخلاصها من الذخائر النصية.[20]

وإذا كان هذا هو حال الغربيين، فإن مواقفنا نحن من كل هذا تظل ضعيفة وتتميز بالتشظى والفرقة، **وعدم إدراك فائدة التوجه المنظومي في التفكير،** ومنه النظر إلى اللغة باعتبارها منظومة ثقافية اجتماعية اقتصادية، سياسية إعلامية

لغوية. تشكو الصناعة المعجمية العربية من نقص واضح في المعجمات المتعلقة بالترادف والتضاد ومكانز رؤوس الموضوعات، وبحوث الدلالة المعجمية، وغياب معجم عربي للمفاهيم على الرغم من توفره في اللغة الإنجليزية منذ ثلاثينات القرن الماضي.

والمفهوم كما هو معروف هو الوحدة الأساسية للمعرفة[21]

إن الذي يحتاجه واضع المصطلح مثلا: هو ما يعرف في زماننا **بالذخائر اللغوية الآلية** التى تشمل الألفاظ التى وردت في الاستعمال الفعلى، أي في النصوص التى وصلتنا بما في ذلك المخطوطة منها؛ فيعتمد الباحث في دراسته لتلك الألفاظ على سياقاتها الحقيقية، وقراءاتها الأساسية بدءا من الشعر الجاهلى إلى الصحف في عصرنا الحاضر.

وأهم ما يميز الذخيرة اللغوية العربية؛ وهو المشروع الذي دعا إليه الأستاذ الفاضل الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح منذ بداية السبعينات، أطال الله في عمره، كونها تجمع بين المعرفة اللغوية والأدبية والعلمية، وبهذا فهى تنظر إلى اللغة في إطار تكامل المعارف وتضافر التخصصات.

ونسجل أيضا أن الذخيرة اللغوية تتأسس على معطيات لسانية خاصة في الوصف والتحليل والبحث من مثل: الأصل والفرع والباب والمثال والوضع والاستعمال... وتركز على المخزون التراثي الاستعمالي كما تبرزه النصوص المكتوبة دون إهمال للمنجز الحداثي الذي تبرزه النصوص المعاصرة.

ونرى أن هذا سيمكن الباحث من النظر الابستمولوجى للعلوم والمعارف وإدراك المفاهيم والمصطلحات والنظريات العلمية ومعرفة الترابط المنطقى بينها،[22] ويسهل عليه البحث عن لفظة ما أو صيغة صرفية محددة أو بنية تركيبية أو عبارة في سياقها الحقيقى في النص أو النصوص التى تنتمى إليها، وكل هذا سيعود بالنفع على تنمية استعمال اللغة العربية في القطاعات الاجتماعية والاقتصادية، ويحقق للعربية الحيوية والنشاط في أداء الوظائف المتنوعة التى ما تزال لحد الآن يهيمن عليها استعمال اللغة الفرنسية.

وجدير بالإشارة أننا لسنا ضد اللغة الفرنسية كلغة، ولسنا ضد اللغات الأجنبية، لأن معرفة اللغات إن أحسنا التعامل معها والاستفادة منها في خدمة لغتنا سيؤدي ذلك **إلى تحقيق أمننا اللغوي بصفة خاصة والثقافي بصفة عامة.**

ثم إن معرفة اللغات الأجنبية ضرورية جدا للصناعة المعجمية المنشودة، على أن يكون كل ذلك موجها إلى خدمة لغتنا التى لا نريد أن نتقوقع فيها على أنفسنا، ولكن نريد أن نتطور بها نحو غد مشرق بإذن الله.

5- الصناعة المعجمية وانعكاسات الاختيارات اللغوية على التنمية الاقتصادية والاجتماعية:

5-1- في الجانب الاقتصادي: تحتاج الأشياء المختلفة إلى التسمية، وما من شيء أو كائن إلا وله اسم؛ ففى ذلك تكمن هويته وتميزه عن الآخرين، وتبين علاقته بهم، وتحدد وظائفه، ومن بين أهم الوظائف التي تؤديها اللغة تسمية الأشياء وتصنيفها

والتحكم فيها "فلا سبيل إلى بقاء أحد من الناس ووجوده دون كلام حسب تعبير ابن حزم، وأن "معرفة مفردات اللغة نصف العلم" على حد تعبير الشيخ نصر الهوريني في مقدمته لطبعة القاموس المحيط للفيروز أبادي، وأنه "إذا لم تعرف الأسماء فسوف تفقد معرفتك بالأشياء" على حد تعبير لينيه Linné واضع تصنيف علم النبات، وأن الألفاظ هي التي تحفظ الأفكار وتبلغها حسب عبارة لا فوازيه La voisier".[23]

إن ما يشهده العالم المعاصر من انفجار معرفي في مجالات عديدة مست جميع نواحي الحياة ونشاطاتها المتعددة: الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، قد غيرت المجتمع وحولته من حيث هياكله ومحتوياته؛ لأن المعرفة قد تغيرت طرائق توليدها وحفظها ومعالجتها واستعمالها وتوظيفها حسب الحاجة. لقد أصبحت المعلومة رأس مال وأصبحت اللغة التي تعبر عنها هي الأخرى رأسمال يتم استثماره "لأن اللغة وعاء المعرفة والمصطلح أداتها"[24] وهي رابطة العقد المنظم لكل العلوم والمعارف التي أصبحت تقدم خدماتها الخاصة، وهي الأخرى تحتاج إلى الخدمات التي تخصها **وأهمها الخدمة اللغوية** التي أصبحت اللسان المعبّر عن مختلف الخدمات المعرفية الأخرى التي يتم تقديمها في مجتمع المعلومات المعقد. وكل هذا يحتاج إلى صناعة معجمية تواكب عصرها وتتجاوز ما هو موجود في واقع البحث المعجمي العربي الذي كثيرا ما يظل يردد معلومات لم تعد مفيدة كما كانت في زمانها.

"ومن المهم أن ندرك في هذا الصدد أن مجالات الاستعمال ليست ثابتة للأبد، والأحرى أنه نتيجة للتطورات الاجتماعية والاقتصادية والتكنولوجية والسياسية، تنشأ مجالات جديدة يمكن أن تكون مهمة لاستمرار لغة معينة".[25]

كما أن انكماش المجال الوظيفى للغة ما وعدم استعمالها في أداء الوظائف الاجتماعية والاقتصادية الناشئة وتكيفها معها، من شأنه أن يهدد مستقبلها واستمراريتها.

إن كثيرا من القطاعات تحتاج إلى وضع معاجم خاصة بها وتعميم استعمال المصطلحات في ما تنتجه من خطابات معبرة عنها باللغة العربية بدلا من سيادة اللغة الفرنسية عليها لسانيا وثقافيا. فمثلا إذا تأملنا في القطاع الزراعى، نجد كثيرا من الاستعمالات والتسميات والمصطلحات باللغة الفرنسية، وهى موجهة بالأساس للفلاحين الجزائريين الذين -في معظمهم- لا يعرفون اللغة الفرنسية ترشدهم وتوجههم وتوضح لهم أصول الفلاحة واحتياجاتها المختلفة، فيصبح هذا الفلاح يمارس الفلاحة ويعبر عنها بخطاب غريب عنه بالرغم منه؛ لأن هذا الخطاب موجه إلى فلاح افتراضي غير جزائري له هوية أخرى بما أنه يتعامل بلغة أخرى.

كما أن هذا يؤدي بالفلاح المزارع إلى الوقوع في مآزق أو حالات اضطراب تواصلية، ويؤكد علاقة التفاوت الاقتصادي بين الجماعات اللغوية. "إن نظام المزارع كما يشرح سانكوف Sankoff نظام خطير لأنه فريد في إحداث انقطاع مفجع لا نظير له في العرف اللغوي".[26] وهذا ما قام به الدخلاء الفرنسيون عندما استعمروا بلدنا، وهم متفوقون علينا اقتصاديا وعسكريا، ويمتلكون ما كانوا مقتنعين به بأنه

عقيدة وثقافة متفوقتان وبسبب هذه العلاقة غير المتوازنة بين السكان المحليين (الأهالي الجزائريين) والفرنسيين الدخلاء الذين لم يكونوا -بل ومازالوا- لا يخجلون من استغلال الشعوب لمصلحتهم، فإن عبء المأزق التواصلي قد تحمله السكان المحليون[27] فهم الذين حتمت عليهم الظروف أن يتواصلوا مع المستعمر، وأن يتعلموا لغته ويبذلوا فيها أقصى الجهود؛ لأن فرنسا لم تسع لتعليمهم لا لغتها ولا تركتهم يتعلمون لغتهم الأصلية، وإنما ركزت في تعليمهم على خليط لغوي هجين بين الدارجة وكثير من الاستعمالات اللغوية الفرنسية التى درّجت وأصبحت جزءا من الدارجة، مما يبرز في كثير من الاستعمالات الشفوية ذات الطبقة المعجمية الفقيرة، وقد نتج عنها كثير من **التشوهات اللغوية التى أدت إلى كثير من التشوهات الاقتصادية**، وظللنا بعد الاستقلال وإلى اللحظة التى نعيشها الآن، نبرمج مشاريعنا المختلفة، ومستعدين للتكيف مع أي ممكن يستجد في فرنسا اقتصاديا وثقافيا ولغويا.

وهكذا فإن من لا يملك اللغة قد لا يملك الأرض فيجب أن نخلص تنميتنا الاقتصادية والاجتماعية، وأن نخلص لغتنا من كل ما هو متمركز حول فرنسا واللغة الفرنسية.

وقد استنتج الأستاذ عبد اللطيف عبيد من خلال بحث ميداني أجراه[28] عن المصطلحات الزراعية في إطار الخطاب الزراعى الذي يشارك فيه الفلاحون والمهندسون والمرشدون الزراعيون والمزوّدون والإعلاميون، أن الاستخدام المكثف للمصطلحات والتسميات الزراعية الفرنسية في التزويد والإعلام والإرشاد يمثل عقبة

كأداء في سبيل التنمية الزراعية، وبخاصة أن أغلب الفلاحين أميون ويجدون صعوبة كبيرة في التعامل مع المصطلح الأجنبي فهما واستخداما. [29]

وقد أدى هذا إلى الاقتراض من اللغات الأخرى أو استعمال اللغة الفرنسية أو استعمال اللغة الدارجة، أو استعمال بعض المصطلحات باللغة الفصحى، وقد اندمجت نسبة كبيرة من هذه المصطلحات التى تم اقتراضها، صوتيا وصرفيا في العربية العامية وأصبحت جزءا منها.

وبالإضافة -كما يرى الأستاذ عبد اللطيف عبيد دائما- إلى كثرة المصطلحات المقترضة من اللغات الحديثة توجد مصطلحات زراعية أخرى تم استخدامها بواسطة الترجمة الحرفية من اللغة الفرنسية أساسا. وقد تولى هذه المهمة وسطاء بين اللغة الفرنسية من جهة، واللغة التى يستعملها الفلاحون من جهة أخرى، ويتمثل هؤلاء الوسطاء في المعمّرين الفرنسيين سابقا. [30] وباعة الآلات والأدوات والأسمدة والمبيدات والبذور، والمهندسون والمرشدون الزراعيون. فهؤلاء جميعًا يميلون في استعمالاتهم إلى مصطلحات الفرنسية بتقليدها أو ترجمة مدلولاتها اللغوية دون الانطلاق من المفاهيم الأساسية التى تدل عليها[31]؛ والأمر نفسه بالنسبة للقطاعات الأخرى مثل: الصناعات الميكانيكية والإلكترونية.

يعنى هذا كله عدم تحكم القوى العاملة في عملية الإنتاج التحكم الكامل لأسباب عديدة، لعل أهمها عدم التحكم في الأداة اللغوية[32] إن اللغة مرتبطة بقوة الاقتصاد والإنتاج المتنوع؛ فالدولة التي تنتج العلم والتكنولوجيا والصناعات المختلفة

وتسهم في النشاط الاقتصادي والتجاري في العالم هى التى تسود لغتها وثقافتها عبر العالم.

وكل هذا يضع مسؤولية على عاتقنا في تحويل لغتنا إلى المجالات الاستثمارية مما يقوي شوكتها ويحقق هيبتها، وينمى طاقتها الاستعمالية في أداء الوظائف المختلفة، والتواصل مع القطاعات الاجتماعية والاقتصادية بفاعلية.

5-2- في القطاع السياحي: يعد القطاع السياحى قطاعا اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا استثماريا، يحتاج إلى كثير من الخدمات السياحية ومنها الخدمة اللغوية، ويكون ذلك بوضع معاجم سياحية خاصة بالمأكل والمشرب والرحلة والسفر وأنواع السياحة المختلفة، وبخاصة إذا علمنا أن السياحة لها علاقة بقطاعات اقتصادية واجتماعية أخرى مثل الإعلام والاتصال والمواصلات والفنون والآداب، فإن نحن أحسنا الاستثمار فيها من الناحية اللغوية والاقتصادية حققنا تنمية لغوية بالعربية وتنمية اقتصادية مستدامة. وعملنا -بذلك- على إحلال العربية محلها في القطاع السياحى بدل اللغة الفرنسية التى ظلت وما زالت تطبعه بطابعها، فما يكاد الإنسان يدخل فندقا ما حتى ينسى لسانه العربي، ويجد اللسان الفرنسى في انتظاره ليعبر بواسطته عن طلباته المختلفة؛ من الماء والحليب والطعام ورقم الغرفة ومفتاحها...الخ.

إن اللغة التى نحتاجها في قطاعنا السياحى ويجب أن نضع لها المعاجم، هى لغة ذات مستوى وظيفي متعلق بأداء الخدمات السياحية المختلفة بالعربية، وينطلق

من أوجه الاستعمال اللغوي وتحققاته الوظيفية التداولية فيما يتم إنجازه من خطابات متنوعة مشافهة وتحريرا. إنها لغة وظيفية متخصصة[33]

5-3- في قطاع القانون: نحتاج أيضا إلى صناعة معجمية في القطاع المتعلق بالقانون وما يحتاجه من خطاب إداري وظيفى متخصص، **فلكل خطاب لغة أو معجم يخصه** من حيث مفرداته وتراكيبه وأسلوبه المترابط المنسجم صوتا ومعجما وصرفًا ونحوا ودلالة، أي اللغة التى تصاغ بها القوانين التشريعية والقضائية وما يتم تداوله في المجالات ذات الصلة بالقانون مدعما بالحجة والبرهان من أجل إثبات الرأي والإقناع به.

إن لغة القانون -برأي الدكتور محمد سليم العوا- "نمط خاص من أنماط العربية الفصحى العصرية، وهو نمط كان يحتاج إلى دراسة بنيته التركيبية والدلالية دراسة ناقدة تبين خصائص لغة الحكم القضائي والعوامل التى تؤثر فيه، والغايات التى يهدف إلى تحقيقها، ومدى وصول الأحكام إليها".[34]

ولم يسلم هذا الخطاب أيضا من تأثير اللغة الأجنبية في صياغة منطوقه وأحكامه والأساليب ذات الأصل الأجنبى، وتأثير اللغات الأجنبية في نظام الجملة القضائية، وتأثير اللغة العامية في لغة الحكم الإداري ونحوها.[35]

وإذا علمنا أن لغة محاكمنا هى اللغة العربية، فإن اهتمامنا بهذه اللغة المتخصصة التى تقول وتفعل وتأمر وتنهى وتحذر يزداد؛ لأنها عنصر أساسى في التنمية الشاملة التي نعمل على تحقيقها من الناحية الاقتصادية والاجتماعية واللغوية. فكل

ذلك يحتاج إلى سن القوانين التى تشرع له وتحكمه وتنظمه، ووسيلة صياغة هذه القوانين هى اللغة والتحكم فيها وإتقانها وإجادة توظيفها؛ "فبين اللغة والقضاء علاقة لا تنفصم... وهى القالب الذي تصاغ فيه أحكام القضاء ومستودع نصوص الدستور والقانون، وهى زاد القاضى وأداته التى يفصح بها عن وجه الحق والحقيقة؛ نطقا في قاعة المحكمة... والقضاء يحفظ للغة هيبتها بأحكامه التى تتأكد مصداقيتها كلما حرصت على سلامة اللغة واجتناب اللحن فيها".(36)

ولهذا كله فنحن في حاجة إلى صناعة معجمية خاصة بهذا النوع من الخطاب ذي اللغة المتخصصة تهتم بوضع معاجم فيما يخص التشريع والقضاء والمحاماة، واستخلاص الدلالة من الأحكام، وتبين الوضع والغموض فيها، وكيف تعبر اللغة القانونية عن المفاهيم المختلفة بالمصطلحات اللغوية الدالة محليا ودوليا، لأن الاتجاه الدولي لتوحيد القوانين في مختلف أنحاء العالم، ووضع الاتفاقات الدولية الملزمة والاتجاه إلى العولمة، ترتب على ذلك أن أصبحت كل دولة لا تستطيع سن قوانينها بمعزل عن القوانين والاتفاقات الدولية، مما يجعل اللغة القانونية مضطرة للتعبير عن القوانين المحلية أو تعديلها لتتماشى مع اتفاقية دولية معينة، فيتم اللجوء إلى ترجمة النص الإنجليزي أو الفرنسى ويسن القانون المحلى أستنادا إلى هذه الترجمة للعربية.(37)

ونشدد على ضرورة الصناعة المعجمية في ميدان القانون؛ لكوننا نرى نقصا ملحوظا في اللغة المستعملة؛ فيوجد عدم تمكن من اللغة القانونية؛ من حيث الصياغة

والضبط اللغوي وطرائق الأداء التى تعطى للغة هيبتها، وتحقق لها سلطتها في إظهار الحق من الباطل، ومن حيث إدراك مفاهيم المصطلحات ومدلولاتها، وخلفياتها المعرفية المرتبطة بالمؤسسات المختلفة: السياسية والإعلامية والثقافية والدينية، والأعراف وطقوس الفضاء الاجتماعى في علاقته بالتوجهات المختلفة في محيطه الداخلي ومحيطه الخارجي.

وبناء على ذلك يتم توظيف هذه المفاهيم والمصطلحات بدراية وتمثل.

5-4- في قطاع الإعلام: نحتاج أيضا إلى صناعة معجمية تخص قطاع الإعلام والاتصال، وتهتم بمفرداته وألفاظه وطرائق صياغته لخطابه، فالخطاب الإعلامى خطاب مؤثر في غيره من الخطابات الأخرى موجه لها، راسم خرائطها وحدودها، وفي الوقت نفسه متأثر بها، يتجلى ذلك في كثير من الاستعمالات اللغوية في مجال الإعلام، ويجد في هذا الخطاب من مصطلحات جديدة تعبر عن مفاهيم جديدة مثال ذلك:

- الفوضى الخلاقة أو البناءة، والقنابل الذكية، والنيران الصديقة، والربيع العربي، وطاعون القيامة، والشرق الأوسط الكبير... والحرب الناعمة أو الملساء...

هذه مجرد أمثلة بسيطة، وتوجد أمثلة أخرى كثيرة تصلح أن تكون بحوثا قائمة بذاتها، تتضافر فيها جهود باحثين متنوعي التخصصات اللغوية والإعلامية.

إن وراء ثورة الإعلام والاتصال عوامل تقنية واقتصادية، وسياسية وتحتاج هذه العوامل الثلاثة للتعبير عن نفسها إلى عامل آخر نراه مهما وأساسيا **وهو العامل اللغوي**.

وتبدو الحاجة ماسة وملحة إلى وضع معاجم في ميدان الإعلام، لأنه على علاقة بكل المنظومات الأخرى، ولا بد من التخطيط **للتدبير اللغوي** فيه، لما للغة الإعلامية من أهمية في فاعلية التبليغ والتواصل، وفي تشكيل القوالب اللغوية التى تخصها، وفي إيجاد المصطلحات والمفاهيم الجديدة التى لها مرجعياتها المعرفية في أعماق المجتمعات.

وإن كان الإعلام العربي -في هذا الشأن- يسير غالبا في فلك الإعلام الغربي ويردد مصطلحاته واستعمالاته اللغوية غالبا، فإننا نرى أن الصناعة المعجمية باللغة العربية في ميدان الإعلام بتضافر الجهود بين الإعلاميين واللغويين من شأنه "أن ينمى رأس المال اللغوي والمهنى لديهما"[(38)]، ويمكنهما من الإسهام في التنمية اللغوية والاقتصادية والاجتماعية بكفاءة.

إن الميادين الاقتصادية والاجتماعية متعددة وتحتاج بالفعل إلى صناعة معجمية جادة مثل: الطب والصيدلة والبيولوجيا والهندسة وعلوم الحاسوب والتربية... وكل منها يحتاج إلى بحوث مستقلة تدرس شؤونه وتدابيره، ولعلنا نتناول بعض هذه الميادين في دراسات لاحقة إن شاء الله.

6- الخلاصـــة:

لقد ركزنا في هذا الموضوع على بعض القطاعات الاجتماعية والاقتصادية التى تحتاج إلى التدبير اللغوي، دون غيرها؛ لأن كل قطاع يحتاج إلى أبحاث علمية تخصه.

إن الصناعة المعجمية باللغة العربية عامل أساسى في تحقيق تنمية استعمال اللغة العربية وتطويرها في تأدية مهامها التبليغية وإثراء رصيدها المعجمى، وزيادة طاقتها الاستعمالية التداولية في أداء الوظائف المختلفة في القطاعات الاقتصادية والاجتماعية.

وإن كل ذلك يتجاوز طاقة الباحث الواحد أو مجموعة باحثين، وإنما هو في رأيى مشروع مجتمع تتضافر فيه كل المنظومات السياسية والإعلامية والقانونية...الخ.

هوامش الدراسة:

1- انظر: د/عبد اللطيف عبيد، مجلة اللسان العربي، علمية محكمة تصدر عن مجلس تنسيق التعريب، الرباط، سنة 2010، عدد 66، ص 284.

2- انظر:د/أحمد مختار عمر، صناعة المعجم الحديث، عالم الكتب، ط 1، القاهرة، سنة 1998، ص 31.

3- انظر: د/ محمود فهمى حجازي، البحث اللغوي، مكتبة غريب، القاهرة، ص 199.

4- انظر: د/عبد الرحمن الحاج صالح، الترجمة والمصطلح العربي ومشاكله، ضمن كتابه: بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، الجزء الأول، منشورات المجمع الجزائري للغة العربية، سنة 2007، ص 374.

5- انظر: د/على فتوني، البلاد العربية والتحديات التعليمية-الثقافية المعاصرة، دار الفارابي، ط 1، سنة 2007، ص 179.

6- لا أراها تتمتع بربيعها وتستنشق عبير وروده، وتستلذ شمسه وهواءه النقى، بقدر ما تغرق في الدماء والفرقة وجلد الذات، بل وتحطيم كل شىء من الداخل واجتثاثه من الجذور والاحتفال بالخراب، تحت أعين الغرب الذي يلهبها ويغرقها في أوحالها ودمائها، ويعمل على سرطنة مختلف أوضاعها، مستغلا تبعية بعض حكامها وتجاهلهم من ناحية وقطيعتهم معها من جميع النواحى، ومتسترا بما يملكه من سلاح أحيانا أخرى، ثم يأتي بعد ذلك ليلعب دور المخلص الداعى إلى السلام الخائف على مصالح الشعوب العربية أكثر من غيره، وهكذا كان دوره عبر التاريخ، فمن الحرب والاستعمار المباشر إلى الحرب الاستباقية إلى الحرب الناعمة أو الملساء والاستعمار غير المباشر.

7- د/ خالد اليعبودي، مبادئ الصناعة المعجمية وأولوياتها، مجلة اللسان العربي، العدد 67 سنة 2010، ص 253.

8- د/محمود فهمى حجازي: اللغة العربية في العصر الحديث، قضايا ومشاكل، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، 1998، ص 114.

9- د/ عبد اللطيف عبيد: اللغة العربية والتنمية الشاملة في المغرب العربي بين المبدأ والتطبيق، تونس أنموذجا، مجلة اللسان العربي، العدد 66، سنة 2010، ص 283.

10- د/عبد الرحمن يحيوي: من المعجمية إلى المصطلحية: قراءة في بعض فصول علم المصطلح، أسسه النظرية وتطبيقاته العملية، مجلة اللسان العربي، عدد 67، سنة 2010.

11- نقوم دائما بدور المفعول على جميع المستويات، ونقوم بدور الفاعل فقط في كوننا "التابع" والآخر "هو المتبوع" ولكنّ وظيفة الفاعل التى نقوم بها هنا هى للأسف الشديد فاعل يقوم بوظيفة المفعول.

12- انظر د/نبيل على: العقل العربي ومجتمع المعرفة، مظاهر الأزمة واقتراحات بالحلول، الجزء الأول، عالم المعرفة، رقم 369، سنة 2009، ص8.

13- انظر د/عبد اللطيف عبيد: اللغة العربية والتنمية الشاملة في المغرب العربي، ص 283-284.

14- وقد يثير السخرية أحيانا أخرى، كما يسارع إلى تصحيح الخطأ فورا إذا كان بالفرنسية، ولكنه إذا كان بالعربية لا يُرى ويظل على حاله. والأخطر من ذلك أن كثيرا من الأسماء والألقاب في سجلات الحالة المدنية بها أخطاء حرفتها عن أصولها الحقيقية في كثير من الحالات.

15- د/محمد زكي خضر: خطة لمشروع مرصد اللغة العربية، مجلة اللسان العربي، العدد 66، سنة 2010، ص 128.

16- لقد أضرت هذه النظرة باللغة العربية كثيرا وحصرتها في زوايا ضيقة أبعدتها عن أداء وظائف الحياة المختلفة.

17- د/عبد الرحمن الحاج صالح: من محاضرة ألقاها في قسم اللغة العربية وآدابها بالمركز الجامعى بغرداية يوم 2010/04/26.

18- المرجع نفسه.

19- انظر د/نبيل على: العقل العربي ومجتمع المعرفة، الجزء الأول، ص 285-286-287

20- المرجع نفسه، ص 288-289.

21- المرجع نفسه، ص 289.

22- انظر البحث الجاد الذي كتبه الأستاذ الدكتور محمد زكي خضر، خطة مرجعية لمشروع مرصد اللغة العربية في مجلة اللسان العربي، عدد 66، سنة 2010.

وانظر د/بشير إبرير: الذخيرة العربية مشروع حضاري، مجلة المجمع الجزائري للغة العربية، عدد 4، سنة 2006، ص 35 وما بعدها

23- د/عبد اللطيف عبيد: اللغة العربية والتنمية الشاملة... مذكور سابقا، ص 294.

24- د/محمد زكي خضر: خطة مرجعية لمشروع مرصد اللغة العربية، مذكور سابقا، ص 113.

25- فلور يان كولماس: اللغة والاقتصاد، عالم المعرفة، رقم 263، سنة 2000، ص 218.

26- انظر: المرجع نفسه، ص 212.

27- انظر: المرجع نفسه، ص 212.

28- أجرى الدكتور عبد اللطيف عبيد هذا البحث في تونس على الفلاحين التونسيين، والفلاح الجزائري والتونسى والمغربي قد تعرضوا لاستعمار واحد هو فرنسا، وتعرضوا لظروف لغوية تكاد تكون واحدة.

29- د/عبد اللطيف عبيد: المرجع المذكور سابقا، ص 295.

30- وكأنهم يعرفون الأرض أكثر من غيرهم، وهم النسخة الأصلية لها.

31- انظر د عبد اللطيف عبيد: المرجع المذكور سابقا، ص 296.

32- انظر المرجع نفسه، ص 296.

33- انظر: للمزيد من المعلومات في هذا الشأن الدكتور بشير إبرير، الصناعة المعجمية والتنمية اللغوية، دراسة في علاقة اللغة العربية بالسياحة، مجلة المجمع الجزائري للغة العربية، عدد 13، سنة 2011.

34- د/محمد سليم العوا: مقدمة لكتاب د/سعيد أحمد بيومى، لغة الحكم القضائي دراسة تركيبية دلالية، ط1، سنة 2007، القاهر ص 6.

35- انظر: المرجع نفسه، ص 6.

36- انظر: المرجع نفسه، ص 9.

37- انظر محمود محمد على صبرة، أصول الصياغة القانونية، دار الكتب القانونية، مصر، دت، ص 8-9.

وانظر:د/عبد الرحمن يجيوي، من المعجمية إلى المصطلحية، قراءة في بعض فصول علم المصطلح... مذكور سابقا، ص 219.

38- انظر مصطفى عبد السميع محمد، ضمانات تطوير مناهج اللغة العربية رؤية مستقبلية، مجلة اللسان العربي، عدد 66، سنة 251.

بنية الزمن في رواية "ذاكرة الجسد" لأحلام مستغانمي

أ. يحياوي زكية
(ج. مولود معمري- تيزي وزو)

«ومن بين الأنواع الأدبية المختلفة تميل الرواية (ذاكرة الجسد) أكثر من غيرها إلى لاحتفال بالماضي لتوظيفه بنائيا عن طريق استعمال الاستنكارات التي تأتي».

حسن بحراوي

تقوم راوية "ذاكرة الجسد" على الاسترجاع الزمني بين الماضي والحاضر، مع أن لحظات العودة فيها إلى الحاضر قليلة.

وكان منطلق هذه الرواية ومركزها فضاء قسنطينة أين يتم السرد الاستذكاري على لسان البطل "خالد بن طوبال" باسترجاع ذكريات الماضي في غرفة أخيه "حسان" في البيت العائلي العتيق.

خالد بين الماضي والحاضر:

وتبدأ أحداث الرواية بافتتاحية من راوي الأحداث نفسه خالد: «مازلت أذكر قولك ذات يوم: الحب هو ما حدث بيننا والأدب هو كل ما لم يحدث»[1].

وكان خالد يأخذنا تارة للماضي البعيد وتارة أخرى للماضي القريب، حيث شهد انكسارات متتالية منها انفصاله القهري عن الثورة التحريرية بعد إصابته العميقة، لينقطع بعد ذلك عن العالم ويجبر على رفض الماضي والحاضر، ومن ثمّ جعلت أحلام مستغانمي بطلها يدرك أن هناك تغيرات فعلية ما يعني أن هناك تغيرات فعلية، أي أن البطل واع بالزمن المتغير: الحاضر الذي يمثله سيء ومن والاه، وهو ما لا يرضيه، وما جعله يحس بالقلق تجاه الواقع المعيش، لذا نجده مندفعا نحو الماضي لأنّه وسيلة للهروب من الشعور بالقلق والنقص والفراغ، فنقلنا خالد الراوي الماضي القريب (1981) وهي سنة انطلاق أحداث الرواية فعليا ومن المؤشرات الدالة على ذلك:

- بداية العلاقة بين الماضي والحاضر المجسدة في:

- لقاء خالد الذي يحمل الماضي بأحلام التي تمثل الحاضر.
- مجيء زياد وإعجاب أحلام ببطولته وأشعاره، وهذا ما يدخل خالد في دائرة القلق والتوتر العاطفي.

كما سمح انطلاق السرد من سنة 1981 بالقول إن خالدا قد حقق تباعدا زمنيا بين ماضي السرد وحاضره، هذا الحاضر المتمثل في سنة 1988 وبالتحديد أكتوبر 1988

يمكن للمفارقة الزمنية أن تذهب في الماضي أو المستقبل، بعيدا كثيرا أو قليلا عن اللحظة الحاضرة، سنسمي هذه المسافة الزمنية مدى المفارقة الزمنية[2].

وقد بدأ خالد يستذكر نتيجة العلاقة التي أقرتها أحلام البطلة وهي أن لا حب قائم بينها وبين خالد كماض، وأن الوهم هو الذي سمح لخالد أن يؤسس علاقة وتواصل تاريخي بينها وبينه وهذا ما يفهم من سياق الافتتاحية المذكورة: «الحب هو ما حدث بيننا والأدب هو كل ما لم يحدث»[3]، وما يدل على هذا المد الزمني الطويل هي القرينة اللفظية، "ذات يوم" في قوله خالد: «مازلت أذكر قولك ذات يوم»[4] ولكن سرعان ما عاد بنا خالد إلى حاضر السر بدخول "عتيقة" زوجة الأخ حسان لتسأله ما إذا كان يشرب القهوة أم لا. لذا يمكن القول بأن استذكار خالد لمقولة أحلام البطلة كان محددا: «فإذا كان مدى الاستذكار يقاس بالسنوات والشهور والأيام، فإن سعته تقاس بالسطور والفقرات والصفحات، التي يغطيها الاستذكار من زمن السرد»[5].

وقد كانت لهذه اللغة أهمية: ربطتنا كقراء بالحالة النفسية لخالد: القلق والتوتر بسبب انقطاع الصلة بشكل نهائي بينه كماض وبين أحلام كحاضر. لذلك كان من الطبيعي أن يتوقف السرد، ثم إنّ خالدا اتجه للكتابة فأمسك القلم وأراد مداعبة الأوراق لكن لا جدوى من ذلك، إذ لم تتم هذه الحركية، وبالتالي يلجأ للهروب من هذه اللاحركية (عدم القدرة على الكتابة).

ليترك تفاصيل المشهد الأول ويدخل في أجواء الشارع القسنطيني الذي يمثل المشهد الثاني «وتمطر الذاكرة فجأة، فابتلع قهوتي على عجل، وأشرع نافذتي لأهرب منك إلى السماء الخريفية، إلى الشجر والجسور والمارة»[6].

فالبطل بهذا الهروب، قد أدرك عجزه أمام الورق مثلما أدركه لأول مرة، عندما اختار الرسم ولم يختر الكتابة بعد بتر ذارعه الأيسر. ويتميز المشهد الثاني (وصف الشارع القسنطيني) بأنه انتقال نوعي للسرد، إذ هناك نوع من الحركية ميزتها هذه الصورة: صوت المآذن، صوت الباعة، خطى النساء وهن ملتحفات بالسواد والمذياع الذي يبث أغاني مختلفة، والرجال الذاهبون إلى الصلاة «ها هي ذي قسنطينة، وها أنتِ تدخلين إليّ مع صوت المآذن نفسه، وصوت الباعة وخطى النساء الملتحفات بالسواد والأغاني القادمة من مذياع لا يتعب»[7]. كما نقل لنا المشهد الثاني صورتين متناقضتين:

- صورة المآذن والرجال الذاهبين إلى الصلاة.
- صورة الهوائيات المنتشرة التي تربط الأنا بالآخر ارتباطا وثيقا ومستمرا.

«الوطن كله ذاهب للصلاة، وأكثر من جهاز هوائي على السطوح تقف مقابلا للمآذن لرصد القنوات الأجنبية التي تقدم لك كل ليلة أكثر من طريقة عصرية لأكل التفاح»[8].

إنّ الصورة الجديدة لقسنطينة (التناقض) التي قدمها خالد في هذا المشهد، لها صورة مكررة في الماضي: الارتباط ظاهريا بالدين والتقاليد، وباطنيا بالبيوت المشبوهة التي كان هو وأبوه يقصدانها.

ويعود بنا الراوي مرة أخرى إلى المشهد الأول: أجواء الفرقة (القلم، الأوراق بعض الرسومات، قهوة) محاولا إعطاء تفاصيل جديدة لم يذكرها من قبل: وجود جرائد مختلفة تحمل النبأ نفسه: استشهاد عدد من المتظاهرين جراء انتقاضة أكتوبر 1988، إلى جانب حضور هذه الجرائد الصباحية، هناك وعلى الطاولة كتاب جديد لأحلام البطلة «**منعطف النسيان**» والملاحظ أن ذكر هذه التفاصيل قد ارتبط زمنيا بيوم جديد، وأكثر تحديدا في صباح 25 أكتوبر 1988، إنه إذن تخصيص زمني محدد ونحن أمام هذه التفاصيل الجديدة، نقول إن خالدا قد حاول تقديم أهم التغيرات التي ميزت حاضره بشكل مكثف، وبالتالي أصبحت العلاقة التي تربطه بالحاضر: علاقة انفصال ابتدأت فعليا منذ 1982 لتستمر إلى غاية 1988، بل وتتمادى إلى سنوات أخرى وفي خضم هذه التداعيات يسترجع السارد الأحداث الماضية لينقلنا إلى ما وقع له في الماضي القريب (أوت 1988)، إذ ذكر خالد عبارة «منذ شهرين» في قوله: «آخر مرة استوقفتني صحيفة جزائرية، كان ذلك منذ شهرين تقريبا، عندما كنت أتصفح مجلة عن طريق المصادفة»(9).

والملاحظ أن هذا الاسترجاع القريب، قد حدّدته صيغ زمنية لتؤكد لنا أن البطل كان مجرد شاهد على ما حدث، بمعنى أنه قد نقل إلينا كقراء أحداثا جديدة ارتبطت بأحلام البطلة.

وقد جعلنا هذا الاسترجاع نرتبط مرة أخرى بتفكير هذه الشخصية الساردة: الحنين غير المصرح به للعلاقة التي جمعت يوما البطل كماض بأحلام البطلة كحاضر«أواصل البحث في وجهك عن بصمات جنوني السابق... كيف حدث يوما، أن وجدت فيك شبها بأمي، كيف تصورتك تلبسين ثوبها العنابي، وتعجنين بهذه الأيدي تلك الكسرة التي افتقدت مذاقها منذ سنتين»[10].

مما جعلنا ندرك وجود ثمة مفارقة زمنية (أوت 1988)، هذه المفارقة دفعتنا للقول بأنها حكاية جديدة، نقلت إلينا أخبارا لم نعرفها من قبل وهي تطور البطلة الاجتماعي وانتقالها إلى طبقة أكثر غنى وسيطرة بعد زواجها بسي مصطفى ويعود السارد مرة أخرى لينقلنا للمفارقة الأولى: قراءته منذ شهرين لخبر هام: إصدار أحلام البطل للكتاب جديد «**منعطف النسيان**» لا لشيء إلا لنقل السارد لتلك المشاعر التي ارتبطت به منذ شهرين عقب قراءته لذلك الخبر، وهي مشاعر الفراغ والوحدة والقلق التي آل إليها البطل بعد رفضه كماض.

ولكن سرعان ما يعود السارد مرة أخرى لحاضر السرد (اكتوبر88) ليروي لنا تلك العلاقة التي نشأت بينه وبين كتاب أحلام البطلة، هي علاقة يشوبها الخوف مما يمكن أن تحمله مضامين تلك الرواية، وقد كشفت هذه العلاقة عن طبيعة ذات خالد الخائفة من المجهول الذي يجسده الحاضر والمستقبل معا، بالرغم من محاولته مقاومة هذا المجهول إلا أنه يرضخ لخوفه، فيلجأ مرة أخرى للهروب.

ولقد قدم لنا السارد صورة مناقضة لحاضره: حياته الماضية بباريس وبالتحديد لبداية لقاءاته بالبطلة سنة 1981، والسّارد هنا لم يذكر هذه السنة صراحة، بل استدللنا عليها عن طريق قرينة لفظية هي قول البطل: "قبل اليوم"، «لم أشعر بثقل السنين، كان حبك شبابي، وكانت باريس مدينة أنيقة، يخجل الواحد أن يهمل مظهره في حضرتها»(11).

تميز الفصل الأول من رواية أحلام مستغانمي بالتنوع الزمني ين الماضي (بعيد، قريب) وبين الحاضر، على عكس ما هو كائن في فصول العمل المتبقية، إذ كان لصيغ الماضي حضور متميز وواضح بل وقد كانت اللواحق الزمنية حاضرة في الفصل الأول هذا، وهو ما يسمى بالاستشراف. والاستشراف هنا يبرز ما سيحدث غداة الاحتفال بذكرى ثورة نوفمبر من عام 1988، «يعني باللواحق الزمنية تداعي الأحداث المستقبلية التي لم تقع بعد، واستبقها الراوي في الزمن الحاضر(نقطة الصفر)»(12).

وبالتالي نلاحظ أن ذات السارد تشعر ومن خلال هذا الاستشراف بانسحاقها التام أمام الحاضر المتغير الذي سيحمل معه مستقبلا متغيرا، وهكذا يجسد لنا خالد رؤيته التشاؤمية مما سيحمله الغد من أخبار، فالوطن عنده متغيب حاضرا، ليتغيب مستقبلا وخير ما يوضح هذه الرؤية، وجود هذه العبارات: «بين أول رصاصة، وآخر رصاصة تغيرت الصور، تغيرت الأهداف وتغير الوطن، ولذا سيكون الغد يوما للحزن مدفوع الأجر مسبقا»(13). فالمعايير الحياتية التي كان يأمل خالد في تحقيقها إذن قد غُيِبتْ تماما «وعندما تشعر الذات بالضآلة، حينئذ تشعر بالانسحاق»(14).

خالد الماضي والاستذكار:

من الملاحظ أن خالدا الراوي يعطي أهمية كبيرة للوصف، عندما يعود لحاضر السرد، فالزاوية الجديدة التي يحتلها خالد من فضاء الغرفة: أمام النافذة، جعلته يقدم وصفا لغابات قسنطينة ولجبالها، تلك الفضاءات التي كان عنصرا فعالا فيها حين كان مجاهدا بسيطا ثم ملازما في وحدات جيش التحرير الوطني، فكان هذا الوصف إذن سببا في تباطئ حركية السرد، وعن دوره قال حسن البحراوي: «تعطيل زمنية السرد، وتعليق مجرى القصة لفترة قد تطول أو تقصر» (15).

وبما أن البطل كان في مواجهة مع ذاكرته، فهذا يعني أن العودة إلى الاستذكار أمر لا مفر منه، وعليه يمكن القول إن المفارقات الزمنية التي ستذكر لاحقا تغطي الفترات الزمنية الآتية:

1. فترة دخوله سجن الكديا: عقب مظاهرات ماي 1945، وهو في 16 من عمره.
2. فترة التحاقه الثورة، 1955 وما أعقب ذلك من ترقيته في الجيش كملازم ثم بتر ذراعه الأيسر.

بدأ خالد سرد مراحل لقاءاته بسي الطاهر، حيث ارتبط البطل بهذا الأخير (سي طاهر المجاهد، والد أحلام البطلة) ارتباطا نفسيا كبيرا، وأول فترة استذكرها هي فترة دخوله سجن الكديا، وهو في الـ 16 من عمره، عقب مظاهرات ما 1945، وما بين هذه الفترةن وحاضر السرد مدة زمنية طويلة، واسعة هذه الفترة صفحة فقط حيث تم فيها سرد أقوال وأحداث.

وراح خالد يسترجع مآثر سي طاهر ليجسد رغبة الارتباط بالماضي مرة أخرى، واستذكار هذه المآثر سيتم بشكل مكرر مع كل تصادم قائم بين خالد (الماضي) والحاضر (سي... ومن والاه)، مثل هذه الاسترجاعات سماها جيرار جونيت بالاسترجاعات التكرارية (Analepses Répétitives) وقد عرفها على النحو الآتي: «تلميحات من الحكاية إلى ماضيها الخاص»[16]، ومع استذكار خالد لدخوله الأول لسجن الكديا قد عاد تفسير ما حدث، وجاء ذلك مقترنا بشحنة عاطفية متميزة، عاطفة وطنية قوية، فهو وبقية الطلاب ذوي الثقافة الفرنسية لهم موقف من الوجود الاستعماري وهو: الرفض التام لهذا الأخير، فالوطنية حسب تفسير خالد لم تكن مقتصرة على مثقفي اللغة العربية، بل هي قاسم مشترك بين هذين الطرفين: المثقفون المفرنسون والمثقفون المعربون، فعملية التذكر هذه إذن «ليست إعادة بناء آلي، واستعادة مختصرة للماضي وإنما هي تفسير للأحداث مشحون بالعاطفة»[17].

فكان «الليل» إذن يفرض على خالد ضغوطا نفسية قوية، فقد استيقظ الماضي في داخليه، ومن هذا الماضي ظروف التحاقه بصفوف جيش التحرير الوطني، وظروف انفصاله الإجباري عن الثورة المسلحة، وقد كنّا بالتالي أمام مشهد متحرك فعلا فقد نقل لنا البطل تلك الحركية التي كانت تميّز نضاله في جيش التحرير: معارك طاحنة كانت تدور في جبال قسنطينة، إنها حركية يومية لم تتوقف إلا عند إصابة ذراعه الأيسر «كنت كلّ مرّة أعود أنا ويسقط آخرون وكأنّ الموت قرّر أن يرفضني»[18].

وتقديم السارد لهذا المشهد في الفصل الأول، له مبرراته حسب نظرنا، فهو تقديم طبيعة هذه الشخصية الساردة، وتحديد مصيرها، فالثورة كانت تتقد في نفسه اتقادا متواصلا: 1955-1957 وكان مصير هذا الاتقاد هو اختراق رصاصتين الذراع الأيسر لينفصل عن الثورة بشكل نهائي، هذا الانفصال قد أثر كثيرا على نفسية البطل، ودفعه بالتدريج لانغلاق تام حول ذاته، هذا الانغلاق بدأ في قسنطينة عقب إصابة البطل وتواصل في فضاء تونس ثم في فرنسا، ليزداد وجوده في قسنطينة مرة أخرى عقب موت حسان وقد جسّد لنا هذا المشهد في جزئه الأول: ارتباط البطل بالثورة لقاء متواصل ويومي بين خالد وسي الطاهر، وتجدر الإشارة إلى أن السارد هنا، لم ينقل حرفيا الأقوال التي كان يتبادلها مع قائده، بل ضمنّها في سرده ليومياته في الجبال «ومن بين الأوضاع السردية التي تستدعي استغلال هذه التقنية في الرواية هو مشهد اللقاء بين شخصيتين أو أكثر»[19].

خالد الماضي وبداية الانفصال (1955–1962):

بدأ انفصال خالد عن الأنا في 1955 وتواصل إلى غاية 1962 مع دخول الجزائر عتبات الاستقلال، ونقصد بـ«الأنا» جزائر الثورة التي كان يمثلها سي الطاهر ورفقاؤه ولأن خالد قد صعبت حالته إثر إصابة ذراعه، كان لابد أن ينقل إلى تونس فورا للعلاج ولم يدقق السّارد هنا في ظروف هذا الانتقال، إذ تمّ ذلك بشكل مختصر جدا، وهدف السّارد من ذلك هو تسريع حركية السّرد، وبهذا نكون أمام المجمل الذي عرفه جيرار جنيت بأنه: «السّرد في بعض فقرات أو بضع صفحات لعدة أيام أو شهور دون تفاصيل أعمال أو أقوال»[20] كما أن المشهد الذي ضمّ سي الطاهر وخالد قبل

انتقال هذا الأخير لتونس قد عرف حركية سردية سريعة، ذلك أن أهم ما تضمنه ذلك المشهد هو ووصية سي الطاهر لخالد بتسجيل اسم ابنته في إحدى بلديات تونس، وكانت هذه الوصية إذن بمثابة الإعلان غير المباشر لارتباط خالد بالحاضر وقد كان ذلك قدر البطل الذي لا مفر منه «أي قدر جعلني أحضر إلى هناك بتوقيتك كلّما طرحت على نفسي هذا السؤال، دهشت له وأمنت بالمكتوب»[21]، وكلما تذكر السّارد موقفا من ماضيه إلا وعلّق عليه، بل ويقدم تفسيرات لهذا الموقف أو ذاك، وهذا من سمات هذه الرواية، والمعروف أن خالدا قد افتقد ذلك الارتباط بالأنا، والنتيجة أنه في مواجهة مستمرة مع قدره، مثلما توضحه هذه العبارة:«ها هو هذا القدر يطردني من ملجئ الوحيد، من الحياة، والمعارك الليلية ويخرجني من السّرية إلى الضوء ليضعني أمام ساحة أخرى...ساحة للألم فقط»[22]. هذه المواجهة مع القدر مستمرة لتعكس ذلك الصراع الكبير الذي عايشته ذات خالد والزمن المتغير «تعد رواية تيار الوعي من أكثر الروايات العربية تعبيرا عن صراع الذات والزمن»[23].

ومن أمثلة تلك المواجهة، خبر استشهاد سي الطاهر: «ولم يعد، انتهى بعد ذلك كرم القدر البخيل، فقد استشهد سي الطاهر بعد بضعة أشهر»[24]، وفي كل فصل من فصول الرواية يقدم لنا خالد جزئيات من شخصية سي الطاهر ومواقفه لنكتشف مدى ارتباط هذا البطل بقائده، وتجدر الإشارة إلى أن خالدا كسارد قد حدد مضامين هذه الرواية، فهو سيتحدث عن: سي الطاهر، مدينة قسنطينة، عن زياد، كما خاطبته، إنها أحلام البطلة «أنت التي تحبين الاستماع إليّ، وتقلبينني كدفتر للدّهشة»[25].

وليسّرد خالد ذكرياته، لابد أن يلجأ للظلام، حيث يكون هذا الأخير ملهمه في تداعي حالاته اللاشعورية «أريد أن أكتب عنك في العتمة، قصتي معك شريط مصور أخاف أن يحرقه الضوء ويلغيه لأنك امرأة نبتت في دهاليزي السّرية»[26].

وسّرد خالد لأحداث ماضيه، سيرتبط بتلك الليالي التي ابتدأت ذات خريف من سنة 1988، ولم يتم ذكر هذه الليالي صراحة، ذلك أن السارد قد تعمد حذفها، والهدف هو جعل السرد في سيرورة متواصلة، وذلك من أجل إثارة فضولها لمواصلة قراءة الأحداث الماضية لهذه الرواية.

ومع فصول الرواية سنكون أمام اعترافات ذاتية، فكانت الانطلاقة والعودة من ذات خالد وإليها، وعن طبيعة مثل هذه الرواية قال الناقد التونسي بن جمعة بوشوشة: «الأدب الذي تنشئه المرأة لا يتجاوز تخوم الذات، وشكل الاعترافات، حيث يبقى عالم الذات هاجس الكتابة ومدار التجربة»[27].

لقاء أحلام البطلة الحاضر بخالد الماضي (1981):

نرى أن خالدا متحكم في سرد خيوط الحكاية فهو يقدّم جزئياتها بالشكل الذي يراه مناسبا. وكان لابد للسّارد (خالد) أن يبدأ سرد لقائه بأحلام البطلة (الحاضر) غير المتوقع فهو أهم محطة في حياته الماضية «قبل ذلك اليوم لم أجد في سنواتي الماضية ما يستحق التمييز، ثماني مفكرات لثماني سنوات لم يكن فيها ما يستحق الدّهشة»[28] وما يدل على أهمية ذلك: اللّقاء المفاجئ، هو استعمال السّارد لمثل هذه المؤشرات الزمنية: «ذلك اليوم» «يومها» وهذا يعني أن هناك حذف مقصود

للسنوات التي سبقت هذا اللقاء. «يعد الفقر الزمني من أبرز سمات رواية تيار الوعي، لأنها تعتمد على التقطيع وعدم الاستمرار»[29]. وقد اعتمد خالد على تقنية الحوار في سرده لذلك المشهد الذي ضمه وأحلام البطلة «وينجم عن استعمال تقنية الاستنطاق هذه التشديد على الحوار كوسيلة خطابية أساسية ممّا يستدعي خلق مشهد مباشر تتوارد فيه أقوال الشخصيات»[30]. من هنا تأتي الملاحظة بأنّ السّرد هو المسيطر في هذه الرواية، لا الحوار، فالسّارد يوقف حكاية لقائه بالبطلة ليسرد لنا حكاية أخرى: ظروف رسمه للوحة «حنين». معنى هذا أن هناك توقفا زمنيا سببه هذا الحدث، تأمل البطلة للوحة «حنين» «التوقف الزمني يعني شعور الذات السّارد بتوقف الزمن نتيجة وقوع حدث مفاجئ له تأثيره المباشر على الشخصية»[31] وهذا التوقف الزمني قد جسد إذن مفارقة زمنية ارتبطت بالماضي البعيد: نهاية الخمسينات، فخالد يسرد لنا ذلك الصراع اليومي الذي كان يشهد مع ذاته لاكتشاف موهبة ما، والنتيجة ميله للرسم، لتكون لوحة حنين مجسدة لحلمه: الارتباط بالحاضر.

«ها أنا اليوم نبي صغير نزل عليه الوحي ذات خريف في غرفة صغيرة بائسة في شارع باب سويقة بتونس»[32].

ويواصل البطل في الفصول الأخرى استرجاعه لظروف إقامته بتونس لنكون بالتالي أمام ما سماه جيرار جنيت بالاسترجاعات التكميلية التي عرّفها على النحو الآتي: «إحالات تضمّ المقاطع الاستعادية التي تأتي لتسدّ بعد فوات الأوان فجوة سابقة في الحكاية»[33]، وقد وضعنا خالد أمام هذا النوع من الاسترجاعات عندما سرد لنا ظروف معاشرته لكاترين الفتاة الفرنسية المولعة برسمه، وهنا تتضح تلك المشاعر

التي ارتبطت بالسارد: المعاناة النفسية التي ابتدأت مع كاترين وتواصلت معها ولهذا نجد أنفسنا أمام مشهد تكرر مدة ثماني سنوات حيث كان خالد وكاترين متفاهمين جسديا ومختلفين نفسيا ودليل ذلك ما قاله البطل: «في البدء تأقلمت بصعوبة على هذا النمط العاطفي الذي لا مكان فيه للغيرة ولا للامتلاك»[34]، وكأن خالدا أراد إلغاء لغة الجسد بينه وبين أحلام البطلة ليسفح المجال للغة العواطف والأحاسيس ليتغير مرة أخرى موضوع الحكي، فبعد أن يرد يومياته مع كاترين ها هو ينقلنا لموضوع أخير مغاير وهو: علاقته بسي مصطفى، وسبب سرد هذه العلاقة هو زيارة هذا الأخير المفاجئة لمعرضه رفقة سي الشريف (عم أحلام البطلة) وكان الهدف من وجود هذا المضمون الحدثي المغاير هو تقديم المفارقة التي ارتبطت بشخصية سي مصطفى، فقد انتقل هذا الأخير من النقيض إلى النقيض: من مجاهد غايته تحرير الوطن إلى إنسان غايته المادة «كنت في الماضي أكن له احتراما ووّدا كبيرين، ثم تلاشى تدريجيا رصيده عندي، كلما امتلأ رصيده الآخر»[35] فالسارد أمام صورتين متناقضتين: صورته وهو مرتبط بالماضي رغم إغراءات الحاضر وصورة مصطفى الذي انفصل عن الماضي وارتبط بالحاضر وإغراءاته، وهكذا فقد حقق هذا المشهد وظيفة هامة وهي إظهار براعة الراوي في تجسيد المشاعر.

إنّ الزمن في هذه الرواية لم يكن خاضعا للترتيب الزمني المعهود: ماض، حاضر مستقبل، بل كان هنا خرقا لهذا الترتيب لأن هذا العمل وطبيعة انتمائه لتيار الوعي، كان يقتضي الارتباط بالزمن الدائري، ذلك أن المجال قد فسح للتداعيات النفسية.

الإحالات:

1-أحلام مستغانمي: **ذاكرة الجسد**، ط22، دار الآداب، بيروت 2007، ص11.

2-جيرار جنيت: **خطاب الحكاية**، تر: محمد معتصم، عبد الجليل الأزدي، عمر حلي، ط2، المجلس الأعلى للثقافة، 1997، ص59.

3-أحلام مستغانمي: **ذاكرة الجسد**، ص11.

4-المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

5-حسن بحراوي: **بنية الشكل الروائي**، ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء 1990، ص125.

6-أحلام مستغانمي: **ذاكرة الجسد**، ص15.

7-المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

8- نفسه، ص16-17.

9- نفسه، ص20.

10-نفسه، ص21.

11-نفسه، ص27-28.

12-مراد عبد الرحمن مبروك: **الزمن في الرواية المعاصرة**، ط1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، منشورات مكتبة الأسرة 1990، ص66.

13-المصدر نفسه، ص29.

14-مراد عبد الرحمن مبروك: **الزمن في الرواية المعاصرة**، ص157.

15-حسن بحراوي: **بنية الشكل الروائي**، ص175.

16- جيرار جنيت: **خطاب الحكاية**، ص64.

17-المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

18- أحلام مستغانمي: **ذاكرة الجسد**، ص39.

19- حسن بحراوي: **بنية الشكل الروائي**، ص 171.

20- جيرار جنيت: **خطاب الحكاية**، ص109.

21- أحلام مستغانمي: **ذاكرة الجسد**، ص43.

22-المصدر نفسه، ص40.

23- مراد عبد الرحمن مبروك: **الزمن في الرواية المعاصرة**، ص159.

24- أحلام مستغانمي: **ذاكرة الجسد**، ص53.

25-المصدر نفسه، ص54.

26-نفسه، ص47.

27-بن جمعة بوشوشة: **الرواية النسائية**، منشورات سعيدان، سوسة، الجمهورية التونسية 1999، ص28.

28- أحلام مستغانمي: **ذاكرة الجسد**، ص75.

29- مراد عبد الرحمن مبروك: **الزمن في الرواية المعاصرة**، ص99.

30- حسن بحراوي: **بنية الشكل الروائي**، ص175.

31- مراد عبد الرحمن مبروك: **الزمن في الرواية المعاصرة**، ص91.

32- أحلام مستغانمي: **ذاكرة الجسد**، ص78.

33- جيرار جنيت: **خطاب الحكاية**، ص62.

34- أحلام مستغانمي: **ذاكرة الجسد**، ص89.

35-المصدر نفسه، 94.

ترجمة الاستعارة في رواية
ثاغست، القديس أوغستين في الجزائر،
لكبير عمي.

د.بوجمعة شتوان
(ج. مولود معمري، تيزي وزو)

تطرح الترجمة إشكالية كبيرة تتعلق بطبيعة النقل المثالي من اللغة المصدر إلى اللغة الهدف. ويتعقد هذا الطرح في الترجمة الأدبية، والاستعارة بوجه خاص، لذلك يضع Georges Mounin [1] نفسه موضع محامي الشيطان عندما يتبنى بالإيجاب محتوى سؤال حول ما إذا كانت الترجمة ممكنة. ومن بين الحجج التي يعتقد في وجاهتها، يذكر ما أمكنه تسميته ب " الكليات " . ويقدم أمثلة تتعلق بالمقومات الذرية والسمات الخاصة بالكليات البيئية مثل : البرودة والحرارة، الأمطار والرياح، الأرض والسماء، الكائنات الحيوانية و الكائنات النباتية، و الظواهر الزمنية الطبيعية، النهار والليل، وأجزائهما، غير أن اللغة وحدها لا تمكن المترجم من تحديد العلائق بين الكائنات والأشياء وفهمها، ولذلك لا بد له أن يبحث عن دور للثقافة والسياسة والعقيدة في فهم الخطاب وتأويله وترجمته.

من الأوليات الأساسية التي تشغل بال المترجم مسألة طرق مقاربة الواقع في اللغة المصدر وطرق نقله في اللغة الهدف، وهي مسألة ذات أبعاد نظرية وتطبيقية لعبث القيام بتأويل الإسقاطات في العبارات الاستعارية من وجهة نظر تزعم أن الصياغات اللغوية تُدرك انطلاقا من كلمات ترى الواقع دوالا وليس مدلولات: مع ملاحظة أنها ليست صياغات حاملة للواقعة ذاتها ، فكل كلمة تأخذ موقعها في العبارة ومن خلال التأويل الذي يقترحه القارئ لاستعارات النص المطروح للتداول[2].

يظهر من هذا الطرح أن القراءة المسندة إلى دور الاستعارة في الترجمة تجد امتدادها في نظرية جورج مونان. أنه لا يمكن القولُ بنجاح الترجمة من عدمها، دون معرفة درجة الإلمام بمجموع العلاقات اللغوية فهما وتأويلا، وفي هذا المستوى، حسب Mounin وبعده Berman [3]، ينتهي التعارض بين الاستعارة وبقية أدوات النص، ويصير لهذه العلاقات، في رواية" ثاغست القديس أوغسطين في الجُزائر" التي تحكي قصة حياة القديس أوغسطين ما يفيد بكفاءة المترجمة آمنة بلعلى في اكتشاف المقابل الحرفي والإيحائي لاستعارات الرواية، ولا يأخذ التأثير بعده إلا باستعارات مشابهة، أو بديلة تحتفظ لنفسها بالتأثير نفسه الذي تحدثه في اللغة المصدر و إن جهدا كهذا يمكّن من:

أ- تمثل الأطروحة الكامنة وراء خطاب الاستعارة، ودورها في تحقيق درجة عالية من الانسجام بين اللغة -المصدر واللغة- الهدف.

ب- معرفة الكيفية التي تستطيع بها الاستعارة أن تخلُق في اللغة الهدف نسقا من التوقعات الثقافية والنفسية والتاريخية بالدرجة ذاتها التي أحدثتها في اللغة المصدر.

ومن هنا تأتي مختلف المفاهيم المجردة، والمفاهيم المتحكمة في طبيعة العلاقة القائمة بين اللغة والثقافة، في القول إن الترجمة ستكون فاعلة عند نقطة تقاطع الخبرة

بمجموع هذه المفاهيم من جهة، والحرص على ألا تكون الترجمة بين لغتين وثقافتين فحسب، ولكنها تكون على نحو ملائم بين استعارات تكون المفصل القائم بين لغة المصدر ولغة الهدف[4].

يرتبط سياق استعارات رواية " ثاغست أوغستين في الجزائر" بلغة مشبعة بثقافة تهيمن عليها مرجعيات دينية وسياسية واجتماعية أساسية، يمكننا عدها كليات تخص نسقا من التوقعات المحددة من كاتب الرواية في اللغة المصدر(اللغة الفرنسية) .وإذا كانت الأهمية الممنوحة للاستعارات في معظم النظريات المتعلقة بترجمة الاستعارة- بكونها المعيار الأنسب في القول بنجاح الترجمة من عدمها- فهي أقرب إلى أن تكون نقاط الارتكاز في نقط عديدة من محيطها، وأن اختيارها ينبني على أسباب يُستدل بها على مواقعها من الخطاب وذلك بناء على مل يلي:

1- إسهامها في الكشف عن هوية وطنية يتجاذبها لسان متعدد تتوزعه مرجعيات دينية/ مسيحية واجتماعية وسياسة يعود عهدها إلى القرنين الثالث والرابع للميلاد. ويرجع أصل استثمار الترجمة في تأكيد الهوية الوطنية إلى وقت بعيد. وهي، هاهنا، تمنح مفهوم الهوية دلالة يتجاذبها تفاعل بين ثقافتين ولغتين يكرس ماهية هذه الهوية ودور الاستعارة في تأصيلها:

2- إسهامها في فعل الحفر في الذاكرة الجماعية الموروثة باعتبار الرواية هي جزء من تاريخ نوميديا وتاريخ علم من أعلام الدين المسيحي في شمال أفريقيا.

و بالرغم من قصر حجمها، فهي تمثل كلا متكاملا شكلا ومضمونا، وتشتغل بكافة أبعادها، وتحقق خطابها بواسطة التعابير الاستعارية. حيث يعد خطاب رواية

ثاغست القديس أوغستين في الجزائر من بين أخصب الخطابات وأكثرها استعمالا للاستعارة.

تترك النظرة الأولى لاستعارات الرواية انطباعا ببساطة أسلوبها ووضوحه، حيث تتميز جملها بالقصر وسهولة قراءتها وفهمها، لكن النظرة المتفحصة التي تتطلبها الرواية قد لا تسمح للقارئ غير المتخصص بادراك أعماقها، نظرا لاستعصاء الإحاطة بسماتها الدلالية والتصورية.ومن هنا يمكن القول بأن هذه الرواية تؤسس لتجربة في الترجمة لعمل إبداعي غير مألوف في الجزائر.

نظرا لما سبق، فإن أي تساؤل عن دور الاستعارة في تثمين هذه الأسباب وتفعيلها، سيثير حوله سلسلة من الأسئلة الخاصة ب" الفهم" و"التأويل" و"النقل" و"المعنى" و"التوصيل"، إلى غير ذلك من الأسئلة التي تؤكد الطابع المركب لخطاب الاستعارة، وسياقاتها المتنوعة ، وطرق تداولها.

بهذا المعنى، تكون إعادة صياغة التعابير الاستعارية المتداولة في النصوص الأدبية وليدة ما هو وليد تشاكلات دلالية (Isotopies sémantiques [5]) ثاوية خلف الكلمات في لغة المصدر، يستدعي فهمها وتأويلها وترجمتها سُلمية من الكفاءات تنتمي إلى:

-الدور الذي لعبته المترجمة من زاوية فهمها لاستعارات الرواية وتأويلها.

-استيعاب معاني الاستعارة المصطلحية.

-الدور الذي لعبته سمات الاستعارة الدلالية والتصورية وإيحاءاتها وجذورها التي تؤسس وظيفتها في ثقافة لغة المصدر.

-استيعاب الملامح المميزة للاستعارة في الرواية وأنماطها وسياقاتها المختلفة.

إن اصطفاف المعجمي، الدلالي، التصوري، لا يتعلق باختيار لفظي، بقدر ما يشف عن طبيعة العلاقة بين مجالين وفضاءين، فيما تبرز التفرقة بين المعنى الحرفي (الذي غالبا ما يكون خاطئا) والمعنى المجازي (يمكن أن يكون صحيحا أو خاطئا، ولكنه في أغلب الأحيان يكون صحيحا) ومن ثمة إدراك الوحدة المفهومية المُسند إليها تمتين الصلة التي تقيمها الاستعارة من خلال:

- الفائدة التي تقدمها الاستعارة ذاتها لعلم الترجمة. فهي سبيل التحكم في التمفصلات الواقعة بين الصريح والضمني، وبين المحسوس والمعقول، وأيضا بين المعنى الحرفي والمعنى المجازي، وبين الشكل والمعنى.
- أماكن عدم الثبات داخل الخطاب، ونظام العلاقات بين المجالات والفضاءات وطرائق العبور من المعنى التقريري/ المباشر والمعنى المجازي.
- فعل التواصل والتفاعل بين لغة المصدر ولغة الهدف.

ليست " هذه الصلة " سوى هذه الإضافة الإجرائية القادرة، بعفوية، على رسم الحدود الفاصلة بين مختلف المجالات والفضاءات، وبالإمكان التشديد على أهمية هذه الصلة، ولكن شريطة إسهامها في حركية خطاب الرواية، وأن تكون قاعدة الحدس بآفاقه المنتظرة أو المغايرة[6]. *

يستدعي الكشف عن السمات الدلالية والسمات التصورية الحفر في نسق كليات تاريخية دينية حيث توجد الأشياء الدينية والثقافية والاجتماعية في كل مكان داخل

الرواية، ولهذه الأشياء أسماء. ومثال ذلك: تأخذ مرجعية أسماء أوغسطين Augustinوجوليا Julia باتريبوس Patricius وأنطونان Antonin وليبيانوس Libanusوميمون Maimon، على عاتقها الدلالة بالإحالة على الفكرة التي تولدها سمات تصورية ترتبط بمقاصد مألوفة في مرجعيات تؤسس لفهم على شكل موسوعة، لا يتمكن منها إلا العارفون بخبايا الحقل وأصوله إنجازا ودقة ووضوحا[7]. ويتعلق الأمر بشخصيات تاريخية مقترنة بأمكنة تاريخية مثل: ثاغست، قرطاج، بونة، نوميديا، روما، القدس، نهر التيبر وغيرها.

تسمح لنا طبيعة العلاقة- حرفية/ مبتذلة كانت أو إيحائية- التي تربط هذه الأسماء بالاستعارة أن تضع موضع السؤال العديد من الافتراضات الخاصة بالعلاقة القائمة بين هذه الأسماء والثقافة المنتمية إليها كالنوميدية والرومانية والوثنية والمسيحية واليهودية.

ويمكن إثارة هذه العلاقة في صيغة سؤالين متداخلين: يتصل أولهما بطبيعة الاختلاف بين الثقافتين والروابط القائمة بين شروط إنتاج الاستعارة وشروط ترجمتها ؟ وما هو دور الفهم والتأويل في تمثل هذه الشروط ؟

سوف يكون الجواب عن هذين السؤالين، بالنسبة إلينا، مرتبطا بموضع العلاقة المتعدية الاستعارة / الثقافة، وموضع القابلية على ترجمتهما هو تأسسها على الوضعية العقدية للتقاليد المسيحية في القرن الرابع الميلادي, وهكذا، فإن هذه الجمل التالية :

Je voulais vous prévenir. Mais ne craignez rien. Car c'est l'Eglise que je sens. C'est le christ. C'est pour lui que je porte ce voile sur le visage. Pou lui que j'ai traversé la ville en courant comme un jeune homme. je me sens comme renaitre. Doté de forces nouvelles. Capable de courir jusqu'à Carthage. D'une traite. Sans reprendre mon souffle. [8],

لقد أردت أن أحذرك. لكن لا تخشى شيئا، فأنا أخدم الكنيسة، والمسيح ومن أجله أنا أحمل هذا الغطاء على وجهي، ولأجله عبرت المدينة جريا مثل رجل شاب، أحس أنني ولدت من جديد ,ان قواي تجدد، وأنه بإمكاني أن أذهب جريا إلى قرطاج، بلا انقطاع دون أن أسترد أنفاسي[9].

تقدم هذه الجمل نفسَها بكونها فضاء بنية أولية للدلالة تضعنا أمام إمكانية توظيف وحدات دلالية مؤولة لسمات تصورية مرتبطة بقضاء ديني مسيحي يمكن البحث عن تأويلاتها المحتملة من خلال الانسجام الذي تحققه الفضاءات التركيبية للاستعارة. ويمكننا العودة إلى السارد لندلي بملاحظتين أساسيتين:

أولاهما تبيّنها رؤية المترجمة للعالم حيث تراه مظهرا من المظاهر الدالة على طريقة في الارتواء من مبادئ الديانة المسيحية، وتبعا لذلك فهي تبدو جملا استعارية لا تخلو من بساطة في الفهم والتأويل والنقل, فمقام عيسى المسيح " عليه السلام " في النصرانية يستدعي إعادة صياغة الاستعارة في اللغة الهدف بما يفيد طبيعة العلاقة القائمة بين المخدوم والخادم، وأن يحبه، ويحترمه.

ثانيهما، يعد إجراء كلمة مقابل كلمة أخرى مغاليا في التبسيط، ذلك أنه من المؤكد أنه عندما لا يوجد مقابل مناسب في اللغة الهدف، يستدعي البحث تحديد ما إذا كان الأمر يتعلق بالسياق الثقافي لمتوالية من الجمل بوساطة مداخل معجمية تنتمي إلى ذات المعجم الذي ينتمي إلى محتوى الاستعارة، ويتعلق الأمر هنا بالتأويل الثقافي لدلالة الانتقال من روما إلى قرطاج ، وأنه يعني قبل كل شيء مظهرا من مظاهر التواصل مع صورة للمسيح تتوزعها رحلة إلى روما القوة العسكرية والسياسية المهيمنة، ومنها إلى قرطاج منارة العلم.

وبأي حال ، فإن الترجمة ستكون فاعلة عند نقطة تقاطع الخبرة بالقضايا المتحكمة في اختيار مختلف أنماط القصد من جهة، والقدر الذي تسمح بها سمات دلالية وتصورية تعد سبيل تمفصل أنماط هذا القصد, ومن ها هنا لا تكون الترجمة بين لغتين وثقافتين، فحسب، ولكنها تكون على نحو ملائم بين استعارات لها، بالتأكيد، قدرة رسم العلاقة القائمة بين لغة المصدر ولغة الهدف. [10] ويمكن تضمين هذه القدرة دلالات أخرى من قبيل :

- الحقيقة التاريخية الموجودة، وتطويعها جماليا.
- خطوات سانت أوغستين بين روما وقرطاج، في علاقتها بحديث عن نسق عقدي يريد السارد أن يقنعنا أنه قائم على الصحة واليقين، ويهدف إلى الدفع بالقارئ لتصور أن كل ما يرويه إنما يمثل حقائق تاريخية قد وقعت بالفعل.

إن هذا التأويل الذي وجد في الاستعارة مركز ثقله، يمكن أن يكون غير ذلك في الواقع وفي أشكال التحقق.

لقد بحث Jean-Claude Chevalier عن الأهمية التي تكتسبها " أشكال التحقق "Orthonymie " في فعل الترجمة، فأشار إلى أهمية أن يعي المترجم دوره كمستقبل للنص في لغة المصدر، وأن الفهم يستمد مشروعيته من طبيعة التأويل الذي يقترحه. وعلى الرغم من الهوة التي يمكن أن تكون بين الثقافات، فإننا لا نتوانى في التأكيد على أن يكون الفهم واحدا للملفوظ في اللغتين، لننظر إلى الشواهد التالية:

Je prierai pour vous à Bethléem, dans l’eglise de la nativité .
Je prierai Pour vous à Jérusalem.
Je prierai Pour vous tous.
Pour thagaste.

Pour l'Afrique.
Pour Rome.
Pour ce monde qui s'effrite selon la volonté du ciel. (P 79)

سأصلي من أجلك في بيت لحم في كنيسة القيامة.
وسأدعو لك في بيت المقدس.
سأدعو لكم جميعا.
لثاغست.
لأفريقيا.
ولروما
سأدعو لهذا العالم الذي يسير وفق مشيئة السماء. (ص 83)

تكون الأفعال المحسوسة والشخصية التي تنجزها الاستعارة قابلة للفهم بالعودة إلى الوقائع ذاتها، ولا يمكن اختيار أي سمة من سماتها (الفضاء، الكنيسة ، العقيدة)، إلا من خلال علاقاتها ب: الجماعات العرقية (الرومان، النومديون- اليهود- الأفارقة)، والمؤسسة الدينية، والإيمان المسيحي، وملكوت السماوات, وينشأ اختيار سمات، من بين سمات أخرى، عن ملاحظة أن فهم نموذج الواقع الأدبي ـ وقراءة النص جزء منه ـ يتوقف على نوعية العلاقة التي أقامتها المترجمة بين طريقة تفاعلها مع هذا الواقع وطرق إدراكها التجارب المشابهة، وابتكار نموذج بديل لعالم هذا الواقع من صنع الذاكرة, ويشكل السياق المعرفي عنصرا مركزيا في إتمام عملية فهم الكيفية التي يتم بها تداول الوقائع ذاتها وبدائلها[11].

لا تستدعي العلاقات بين الوقائع في الشواهد السابقة تأويل الاستعارات بشكل أساس، إلا أن المترجمة تكون قد وضعت الأهمية التي تستدعيها أشكال التحقق الموقع الذي يفترضه البعد التداولي والمرجعي للوظيفة الخاصة بالصلاة و طقس الدعاء "Je prierai " في لغة المصدر، و" سأصلي" و" وسأدعو" في لغة الهدف، حيث تم تعيين دلالة الكلمة من المترجمة استنادا إلى مظاهر السياق السوسيو- ديني في أبعاده الثقافية والعقدية، أي بمراقبة أمكنة الثبات التي يستدعيها التقابل بين السمات الدلالية والتصورية لكلمة" s'effrite" و السمات الدلالية والتصوّرية لكلمة **"يسير"**. إن إعادة بناء المعنى، كما هو الأمر بالنسبة إلى أية صياغة نموذجية، لهي فهم تأويلي يعتبر ضغط النقل الذي تفرضه الأبعاد التداولية للاستعارة في لغة الهدف، استعادة لدلالتها و إحياء لها.

تبعا لذلك، فإن دلالة الاستعارة " هذا العالم الذي يسير وفق مشيئة السماء " يستهلكها قصد يحيل على دلالات تتوقعها المترجمة بالعودة إلى سياقها التاريخي والثقافي، ذلك أن أي فهم هو فهم سياقي تابع لمعايير مرتبطة بالسياق الذي تتحكم فيها سلّمّيات الإيمان المسيحى، وهي في سلّمّيات تتسلسل داخل مسار تصويري، وتفضي إلى معان منسجمة:

الصلاة من أجلنا ومن أجل الآخرين ← مقوم: **مشيئة الله أرادتهم هكذا حتى تختبر مقاومتهم لطيبات هذا العالم، وبأنهم في مدينة الله سيكونون من أسعد السعداء (ص91)**

من البديهي أن تُطرح المشاكل المرتبطة بالبحث عن تكافؤ دلالي نموذجي للاستعارة، ومن هنا تصبح حاجتها إلى درجة عالية من الدقة في الفهم مسألة أساسية عند البحث عن مركزية الاستعارة في إنتاج سمات تتمتع بمشروعية الدفاع عن الواقع الحقيقي أو المتخيل للرواية[12]. هكذا، حسب,J.-C. Chevalier، توجد « درجة الصفر في تنظيم موضوعاًت العالم، ودرجة الصفر في وجود تسمية عادية خاصة بها »[13]. هذه الموضوعات التي تمت تسميتها « orthonymes، وحسب Bernard Pottier فإن دور الاستعارة في تنظيمها، وفك عقال نقلها وترجمتها يحتاجان إلى تقدير شكل من التحقق له خبرة بالمعاني « الأكثر حيادية في خلق ملاءمة ، بعيدا عن كل إشارة تلميحية بشكل خاص، عند تعيين دال هو نفسه مرجعها[14]». وإذا سايرنا طريقة استدلال Chevalier وPottier ، فإن أشكال التحقق تتولد من شعور باحترام سلسلة من الأحكام والتصنيفات الدينية والاجتماعية التي تلبي متطلبات الدرجة الصفر للحقيقة، وهي نفسها « تمثيل ذهني مستبطن ومثبَّت، يشكِّل- عند مضاهاته بحصيلة الإدراك- أساس السيرورة المعرفية»[15]. ومن هنا أمكن للمترجمة أن تسدّ الهوة الثقافية بين لغة المصدر(الفرنسية) ولغة الهدف (العربية) وأمكنها فهمها وتأويلها بكيفيتين متفاعلتين ومتداخلتين وذلك من خلال:

-استنفاد الدلالات التي ضمنها كاتب الرواية، والتحكم في مختلف أنماط القصد الممكنة للاستعارة سواء أكان قصدا دينيا أم تاريخيا أم سياسيا.

- منح امتياز فهم على حساب فهم آخر عند المقابلة بين مظهر من المظاهر المكونة للفضاء رقم 1، و مظهر من المظاهر المكونة للفضاء رقم 2.

يظهر أثر هذا التفاعل والتداخل جليا، حين نعود إلى الدور الذي تلعبه كلمة "السماء" التي تتكرر في الرواية: ما معناها ؟ وما هي؟ وأين تكون ؟ وماذا يتوقع المسيحي المؤمن أن يجد عندما يصل هناك ؟ في الشواهد التالية:

ولكنني توسلت إلى السماء، (ص 69)

مدينة الصمت والحجارة هذه المستسلمة لضوء السماء, (ص 73)

وأخبرهم أن عقيبا سلفك، حفظه الله، يراقبك من أعلى سمائه .(ص 75)

أحيانا عندما أرى الرومان من السماء , (ص 75)

أقفز قفزة واحدة تختصر المسافة التي تفصل بين السماء والأرض, (ص 75 – 76)

هذه الليلة كنت هائما في شوارع المدينة، وكنت أقول في نفسي، إنها ليست مدينة نائمة، ما هكذا تنام المدن، وعندها سألت الله، دعوت السماء أن ترحم هذه المدينة القلقة، وأن ترحم الناس الذين ينامون، والخوفُ يسكنهم. (ص 83)

لنثق في السماء , (ص 91)

في استعارات السماء السابقة نجد ثلاثة استخدامات لها:

في أولاها نقرأ أن الله سبحانه خلق السماوات والأرض، ويعني بذلك الطبقات العليا من الجو فوق رؤوسنا حيث نعيش ونتنفس لنحيا .

وفي ثانيها تشير إلى الكون والفلك بالكامل، كل الكون المخلوق من مجرّات تسبح في الفضاء . وهذا الكون يخبرنا بمجد الله وجلاله.

أما الاستخدام الثالث، فالمقصود به السماء الثالثة، وهي كيان روحي أبعد من تصوراتنا الحسية. هذه السماوات هي مسكن الله حيث مجد الله وهناك جمال صفات الله معلنة في روعة منقطعة النظير .

ثبت لحد الآن أن الاستناد إلى فهم يعد البعد التاريخي والثقافي بهدف ترجمة الاستعارة ألزم المترجمة باعتماد مستويات أشكال التحقق،، تلك فرضية معرفية يخطط لها المترجم ليتمكن من فهم قصد الكاتب، وفق إرغام لغة المصدر. ومع ذلك، فإن استعارات أخرى تتطلب بلورة واقتراح تأويلات تخلق أفق انتظار يفعل فعله عند التعامل الثقافي مع الرواية، ويمكن التمثيل على ذلك بالشاهد التالي:

Combien de nuits ai-je dormi en regardant le Ciel, priant Dieu , dans la tourmente, qu'il ait en sa sainte garde mon petit Amulius ? (P 66)

وكم من ليال بت أرعى النجوم فيها، وأدعو الله في هذه الدوامة أن يحفظ برعايته صغير " أمينوس " ؟ (ص 69)

إن الأشياء والأسماء، هاهنا، بارزة : في الشاهد السابق، تحتكم المترجمة إلى الصياغة التركيبية الأدبية للنص لتبرهن مركزية النظر إليها بكونها جملا يتطلب نقلها تعديلا وتغييرا تتحول بوساطته مقصدا تعكسه العلاقة بين المجالين داخل الاستعارة إلى تناسب يفرضه « الإسقاط المفهومي بين المجالات في الفكر، فهي قوالب قارة من التناسب الأنطلوجي»[16] : فكلمتا " أرعى " و " أدعو" تدلان على التوالي" الحفظ والترقب والانتظار" و" إمالة الشَّيءَ إليك بصوتٍ وكلامٍ يكون منك "[17]. وتوضح إمكانية إسناد صفات متخيلة مرة وحقيقية أخرى إلى مثل هذه القوالب القارة أن الراعي والداعي متميزان من الحافظ والسامع، وأن الذي يترقب وينتظر ويصدر صوتا لا يمكن أن يكون هو الذي يتولى رعاية رعية المسيح.

يقود الحديث عن العلاقة بين الكفاءة الثقافيّة والكفاءة اللغويّة، إلى القول إن مساحة النقل قد امتدت على مساحة الشاهد، وأن اختيار المترجمة لسمات تكرر نفسها، مع درجة بسيطة من التغيير والتحويل، يهدف إلى تأكيد أهمية مداخل معجمية تتضمن ممارسة ثقافية تنطلق من داخل الاستعارة ذاتها، فدلالة "Ciel " تكافئ دلالة " النجوم" لإحالتها على العلاقات التي ينسجها المعنى مع المعاني المتعلقة بعبارة " يحفظ برعايته صغيري " أمينوس "، فهي سمات تتطابق مع شكل من أشكال التحقق، واقعيا كان و متخيلا، ما جعلها تأخذ، في اللغة الهدف مستويين اثنين:

في المستوى الأول لا يوجد ما يوحي بالفرق بين الكتابة في القضايا اللاهوتية والعقيدة المسيحية، وبين الصياغة السردية للرواية، ومن هنا تصبح العلاقة بين الاستعارة والرواية نوعا من الحدس بصور ومشاهد وشخصيات مفعمة برموز ودلالات بعضها يتصل بالعالم العقدي المسيحي، وبعضها الآخر يتصل بالعوالم التاريخية والاجتماعية والثقافية للمملكة النوميدية واختلاط الأجناس والديانات.

وفي المستوى الثاني ، على الرغم من إخضاع الإسقاط الاستعاري لمبدأ الثبات، فقد حاولت المترجمة تجاوز المستوى البسيط للتسنين ، ما يجعل من قياس وضبط دور الاستعارة في الترجمة، مسألة أساسية في تجنب الخلط بين الأسلوب الروائي والأسلوب الديني. ولكي نُفعّل مركزية هذا الاختلاف في الفهم والتأويل يجب أن نعثر على معايير نوعية تساعد في تأويل الأساليب، الحاملة لعوالم أخلاقية وترميزية، وبصفة عامة العوالم الكونية، التي هي محاكاة لمتخيل عوالم مثالية سماوية.

تضعنا بعض استعارات الرواية في مجال دلالي يسمح للمترجمة باقتفاء أثر الوفاء للنص، والعمل على إنجاز ترجمة أمينة وحيادية. والحال أن النقل من لغة إلى أخرى باختلاف أهدافه، بمجرد الانتهاء منه، يسمح بتصوره كعملية نقل من مكان إلى آخر, إن هذا النوع من الترجمة لا يضع موضع السؤال، مجالات تتوسط بينهما، ولا أطوار فهم وليد رحم الترجمة الساكن في قلبها. وبطبيعة الحال فإن التعارض بين المعنى الحرفي والمعنى المجازي، يضع، على الدوام، الإحالة على الاستفهام المتعلق بالعلاقة بين ترجمة الاستعارة وتأويلها أساسا، لاشتغال فعل النقل وفاعليته[18].

ومن هنا حق ل Henri Suhamy الاعتقاد في إمكانية الدفاع عن الترجمة الحرفية، شرط احتفاظها بمبدأ الإحاطة بأبعاد التشوش البلاغي والدلالات المستبعدة والمختزلة للاستعارة في اللغة المصدر. ومن هنا أصبح لزاما على المترجمة، أن تعتمد فكرة تأويل ونقل فكر الآخر، طالما أن كلماتها ليست نتاج علاقة مع المصطلح[19].

والاستعارات التالية توضح هذه الإحاطة بإبعادها على الرغم من حرفيتها :

J'ai cru à sa mine que c'était un Romain . Le sang se mit a battre si violemment dans mes tempes. Je voulais lui claquer la porte au nez et vous supplier de fuir. Je croyais que mon cœur allait rompre. (P 95)

لقد أعادت المترجمة بناء سماتها الدلالية والتصورية بالاحتفاظ بكل الملامح التركيبية والشكلية التي تتطلبها ترجمتها الحرفية، وعمدت على شحنها في اللغة الهدف بمعانٍ تنسجم كلية مع معانيها في اللغة المصدر، والترجمة هي:

"اعتقدت من هيئته أنه روماني، أخذ الدم يتدفق بشدة إلى صدغي، أردت أن أصفق الباب على أنفه، وأترجاك لتهرب، ظننت أن قلبي سيتوقف. (ص 95)

تحتكم المترجمة في الجمل السابقة إلى طبيعة العلاقة القائمة بين المعاني النحوية ومداخل وحداتها المعجمية, لا يمكن لأي مترجم محترف أن يرتبك أمام طبيعة العلاقة بين "cru a sa mine " و " اعتقدت من هيئته " على الرغم الانحراف التأويلي الذي تسببه عناصر المعنى ذاته، وأيضا، العلاقة بين "claquer la porte au nez " و" أصفق الباب على أنفه" بمعنى "أوصد الباب في وجهه"، حيث أنه لا يمكننا أن نلاحظ بسهولة ظلال المعنى الفارقة بين **"أصفق" و "أوصد" و بين "أنفه" و"وجهه"**. ذلك أنه في مستوى آخر من الفهم المختلف جزئيا، يمكن ملاحظة أنه في سياق من هذا النوع فإن " أوصد" و"جهه " لا تنسجمان تماما مع "claquer " و"nez ". يمكن، في حال مثل هذه الترجمة، أن يلعب السهو دورا مركزيا في دفع المترجمة إلى اعتماد مبدأ الحيطة، الأمر الذي جعلها تفضل مبدأ الترجمة " كلمة بكلمة"

تبين شواهد من هذا القبيل أنها تستطيع، في الوضع الذي هي عليه عملية النقل من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية، أن عملية النقل، ضمن سياق استعارات الشواهد السابقة، ليست غريبة عن نوع التحيين، الذي تستدعيه التفاعلات الحاصلة في العوالم الممكنة للرواية. فهي تستدعي درجة عالية من الدقة والأمانة، بما أنها، في المحصلة النهائية، حاملة التأثير نفسه الذي تكون قد مارسته في اللغة المصدر. وفي العمق، فإن هذه السلسلة من الصور ليست استعارات وُظفت لتعيين نوعية الترجمة، وحسب، وإنما أيضا، في جانبها التطبيقي، تزيل كل الالتباسات الخاصة بكفايتها في نقل التجربة ووصفها كما هي عليه في اللغة المصدر.

قد يبدو هذا النوع من النقل، وهو أمر يمكن الموافقة عليه، مبتذلا[20] إلا أن أغلب المنظرين لترجمة الاستعارة يتمسكون به، ذلك أن الجدل الدائر حول درجة المحافظة على المعاني الأصلية للإستعارة، وطرائق فهمها وتأويلها وطبيعتها، وإجمالا سياقها، ينهض على

الاختيار الإيجابي للمترجمة. ومثل هذا الاختيار تدعمه طرائق أخرى تنطلق أساسا من مقاصد الاستعارة، يتعلق الأمر بسلسلة من الاستعارات في النص التالي:

Mais jamais Personne ne racontera aux enfants des numides que leurs ancêtres en ont décousu avec les Romains. Plus personne ne leur dira que Scipion l'africain en a vu de toutes les couleurs et que, n'en déplaise a Tacite, Jugurtha l'envoyer mordre la poussière.
Flavius est mort .
Est-ce vrai que flavieus, le maréchal-ferrant, ferre leurs sabots aux chevaux dans le ciel? Demande les enfants qui passent devant sa forge closes. Est-ce vrai qu'il ira un jour a la recherche de Scipion l'africain, la haut dans le ciel, Et qu'il en feras de la pâtée pour chien? En leur en fera voir a ces romains quand flavius nous ramènera cette peau de bique. En le prendra par sa moustache.
C'était un étranger maintenant ?
Cinq année d'absence en fait de lui un autre homme.
N'était-il pas déjà vêtu à la romaine ? (P 9)

ولكن، لا أحد، أبدا، سيحكي لأطفال نوميديا عن أبائهم الذين تقطعت أواصرهم بالرومان، ولا أحد سيقول لهم بأن " سيبيون الإفريقي " رأى كل ألوان العذاب، و إنه لم يكن مرغوبا فيه عند " تاسيت " وأن " يوغرطة " طرده شر طردة.

لقد مات " فلافيوس".

يتساءل الأطفال، وهم يمرون أمام أبواب كورة الحديد الموصدة، هل صحيح أن فلافيوس الحداد كان يُنعل الخيول في السماء؟وهل، حقيقة، سيذهب في يوم ما للبحث عن سيبيون الأفريقي في أعلي السماء، ويصنع منه خبيصة للكلاب .سنُري الرومان عندما يأتي فلافيوس بذلك التيس، سنعلقه من شاربه.

الآن يشعر أنه كان غريبا.

خمس سنوات من الغياب كانت كافية لتجعله رجلا مغايرا، ألم يكن قد تزيّ بالزي الروماني؟ (ص 7)

لنحاول البحث عن حلول المترجمة التي مكنتها من فهم الاستعارة وتأويلها ثم ترجمتها. إن هذه الجمل ليست غريبة عن الثقافة التي أسهمت في إنتاج الرواية، كما أنها جمل تستند إلى استعارات يكمل بعضها بعضا. وهي في نظرنا سبيل تصور مسارات دلالية تخص بناء استعارات النص وأشكال تلقيه من قبل المترجمة. ومن نافلة القول أن استعارات الجمل السابقة متنوعة باختلاف أنواعها. وعلى هذا الأساس، فإن الكشف عن هذا التنوع منوط بشروط محددة وأصول معروفة في نظريات ترجمة الاستعارة[21].

إن صيغة تقديم خطابات استعارات الجمل السابقة، تشير إلى العناصر الدلالية التي تسهم في التواصل على مستوى خطاب الرواية.

في:

ont décousu avec les Romains.

الذين تقطعت أواصرهم بالرومان،

يعد حضور محمولات فعل **"تقطع"** باستعمال وحدات معجمية، بصفتها عنصرا من عناصر خطاب الاستعارة، سبيل تميز:

انقطاع حِبال المودة؛

التفرق في ألأَمر؛

انقطاع أَلأسباب والوصل[22].

حيث ينحصر دور المترجمة في تعيين مستويات التقابل النحوي والمعجمي ، هذا النوع من الترجمة يتكرر ويتوارد في المضامين الممكنة للرموز المعتمدة في التمييز بين:

-الوحدات العرفية: إطلاق لفظ" الأواصر" على ما اعتاد الناس عليه من قرابة في العرق واللغة والدم والدين.

-الوحدات الثقافية: أو كل ما له علاقة بمقوّمات العقيدة والقيم واللغة والمبادئ، والسلوك والمقدّسات والقوانين والتجارب للأمة النوميدية في مقابل المقومات ذاتها الخاصة بالأمة الرومانية.

وقد تتجاوز المترجمة مستويات التقابل النحوي والمعجمي، فتستند إلى درجة متوسطة من الإطناب الذي عادة ما يسهم في توضيح دلالة التعبير الاستعاري، وبطريقة مختلفة[23] عما هي عليه في لغة المصدر، وفي هذا تثمين لعناصر المعنى في سياق التداول و هنا تبدأ الحاجة إلى فهم يسهم في تحيين الأعراف والقيم الاجتماعية والثقافية التي يسميها **إيزر** بالسياق السوسيو-ثقافي العام[24] الذي تنبثق منه الاستعارة ففي:

a vu de toutes les couleurs

رأى كل ألوان العذاب.

يتعلق الأمر في الشاهد السابق بصياغة تصورات، تمكن من فهم الاستعارة انطلاقا من:

1- عدم قابلية الاستعارة للترجمة اللغوية.

2- عدم قابليتها للترجمة الثقافية.

يعود عدم قابليتها للترجمة اللغوية إلى الاختلافات، التي تقوم بين اللغة المصدر واللغة الهدف على مستوى المداخل المعجمية لكلمة "couleurs " وسماتها الدلالية والتصورية، وعلى الرغم من أن هذه المداخل بسماتها تنتمي إلى الثقافة، التي أُنتج الخطاب في إطارها، فإن المترجمة تكون قد اقترحت إيجاد مكافئ دلالي في إطار الانزياح الذي يستدعيه الترابط والتوافق بين المكافئ الشكلي والمكافئ النصي للاستعارة.

قاد مستوى هذا الاختلاف المترجمة، إلى معالجة الانزياح الواقع بين اللغتين، عن طريق التحكم في التشعب الواقع بين التكافؤ الشكلي، والتشعب القائم بين التكافؤ النصي. ومن هنا أمكننا ملاحظة مستويين من الانزياح الاستعاري: انزياح من نوع شكلي، أسهم في تحقيقه على مستوى التركيب اختلاف في عدد العناصر المعجمية بين اللغة الهدف وتلك المُسندة إليها العبارة الاستعارية في اللغة المصدر. وانزياح نصي، يتمثل في المستويات الدلالية، التي أسهمت في إنتاجها الوحدات الدلالية الصغرى، والتي أمكن استثمارها في عملية الترجمة على مستوى البنية والقيمة والوحدة الدلالية الصغرى ومرتبتها. ففي اللغة الهدف تحمل الاستعارة بعضا من قيمتها التداولية من حضور كلمة " العذاب " فهي تستقطب ألم الذات النوميدية بما يجسد معاناتها وأحلامها وشعورها بالقهر والإذلال. وهي القيمة ذاتها التي أمكن من تحقيقها دون الاستعانة بما يقابل تلك المادة اللغوية في اللغة المصدر.

ويمكن أيضا أن نرد استعارة "mordre la poussière" إلى خانة الاستعارة الميتة أو المبتذلة، مثل تلك التي تعود، حسب امبرتو إيكو، حالات تظهر فيها العبارة الاستعارية مقبولة حرفيا[25].

استعمل "**كبير عمي**" جملة قد تفهم حرفيا، على اعتبار أنها استعارة قديمة جدا، وأنها ومحيّنة ومتداولة في اللغة المصدر، فقد كان المصارعون يتنافسون عادة فوق أرضية رملية أو مغبرة، وكان المنهزم عادة ما يرغم على ملء فمه بالرمل أو الغبار. وقد جاءت ترجمتها " طرده شر طردة "محملة بدلالة قد تفهم حرفيا في ثقافة اللغة الهدف.

والحال أن فهم الاستعارة وتأويلها وترجمتها أمور تكشف الحد الفاصل بين الواقع المتخيل. فهو حد لا يمكن اختزاله إلى المعنى الذي رامه كاتب الرواية، وإنما ينبغي له أعمق من ذلك أن تتضمن الترجمة سمات ومقومات اتخذت من السياق التاريخي والثقافي في العقيدة المسيحية من الاستعارة مرتكزا للوجود[26]. وعليه فمفهوم التحقق يشتغل من حيث آلية من آليات قراءة ظاهرة الرحلة إلى السماء ، في مثل:

" ferre leurs sabots aux chevaux dans le ciel?"

" كان يُنعل الخيول في السماء"

بما أنها مؤلفة من سمات دلالية وتصورية يُسند _بعضها بعضا ، يظهر أثر ذلك واضحا في التأويلات الممكنة للمفهوم المسيحي المتعلق بظاهرة الصعود إلى السماء "في مركبة من نار وخيل من نار", ولن يكون هذا التعلق مشروعا و مألوفا، إلا إذا تم بناؤه كما يلي:

1- يمكن أن نصادف شكلا من التحقق يجمع بين الواقع والخيال، وفيه أن الخيول كانت تُستخدم في الماضي كثيرا في خوض الحروب. وأن هناك راكبين على خيل من السماء ليُظهر أن الله سيخوض حربا ضد البشر لتدمير شر على الأرض.

2- يقود الحديث عن خيل في السماء إلى القول إنها تتوجه إلى الذين يعرفون الكتاب المقدس. وتمدنا هذه المعرفة بسمات خاصة، مثل سمات " اسم الله"[27]، والسمات المعبرة عن "وحدانية الله وسلطانه المطلق"[28]، وأيضا، السمات الروحية, وهي مسكن الله الخاص, ولذلك يقال إن الله في السماء وإنه إله السماء[29].

يمكن ملاحظة ذلك بيسر من خلال تأمل العبارة التالية"" صعد إلى السماء" يعني من بين ما يعنيه، "الصعود إلى الأب" [30] وهو يرسم سماتها التصورية استنادا إلى طريقة في تقفي الإنسان أثر علاقة مثالية مع السماء. ومن هنا يصبح رمز " المسار نحو السماء " واحدا من الرموز النمطية المثالية، التي توجه الإنسان وترشده في أثناء عبوره من العالم الأرضي إلى ملكوت السماوات.

يبدو أن المترجمة قد تعمدت اقتفاء أثر بياض وفراغ موجودين على مستوى هذا النوع من الاستعارات، وأخرى في مثل :

Mais tu a préféré te jeter dans les bras de l’ennemi. Devenir un romain. Te vêtir à la romaine. (P 20)

- لكنك فضلت أن ترتمي في أحضان العدو، وتصبح رومانيا، وتتزيّى بالزّي الروماني, (ص 19)

لقد سمح هذا للمترجمة بالتحكم في البعد التداولي الذي يستدعيه تعبير استعاري متعلق بجسدنة ثقافة الانتماء إلى منطقة بعينها، فاللباس سمة لاصقة بوضوح بالمنطقة على أساس أن نوعه وألوانه وطريقة خياطته ودرجته من البساطة أو الفخامة، سمات تفترض أن هذا النوع من الصياغة المجازية، حسب Joan Bertrand، يكون قد وظف لخلق محيط يرتبط بواقع محدد، ومفصول عن واقع آخر، حيث يكون الوصف غير منسجم مع نمط آخر من الأوصاف شائع بدوره. إن السمات الدلالية والتصورية ل " تزيى بالزي" ، وعلى الرغم أنها مهجرة، ليست مقنعة وحسب، بل إنها مؤثرة في القارئ. وهكذا أسهم السياق التاريخي والسوسيو-ثقافي في فعل الفرز والتصنيف عند البحث عن سمات ومقومات كلمة "vêtu ".

يتبين من نسق السمات والمقومات أن مدلولات الإيحاء المرتبطة بالمعنى خففت من غلواء ما أسماه Maryvonne Boisseau ب " الصمت/ السكون الاستعاري" " métaphorique silence "، وجنب الاستعارة حيادية تفقدها بعدها الخيالي[31] وتدخلنا في البؤرة المركزية التي تدور حولها الرواية وهي وطنية القديس أوغسطين والشك في انتمائه الذي يجسده تبرؤ والده باتريسيوس منه حيا وميتا، ما يسنح بفتح المجال أمام تأويلات شتى خاض فيها المؤرخون تتعلق بانتماء أوغسطين ونوميديته، ووثنية أبيه والصراع الذي دار بين الدوناتيين والكنيسة الرومانية التي تولى أوغسطين ترسيخ مبادئها في المملكة النوميدية، لذلك تنتهي الرواية بما بدأت به بقول باتريسيوس الأب لأوغوسطين كما تخيله في عتاب يقول فيه:

سأنسى بأن لي إبنا في سنك، يشبهك في ملامحك... من فضلك لا تخبر أحدا بأني أنا باتريسيوس النوميدي، والد هذا المتشرد ذي الأقدام الحافية الذي يرتدي الصوف. الوداع يا أوغسطين، وداعا يا ولدي.

إن هذا الحوار المتخيل يتشابه مع الحوار الذي كان في بداية الرواية ويلخص النسق الاستعاري الذي تنبني عليه والذي تعرضنا إلى جانب منه في هذا المقال.

المراجع والمصادر.

- كبير م عمي، ثاغست، القديس أغسطين في الجزائر، منشورات ألفا، قصر المعارض، الصنوبر البحري، الجزائر 2008,

Kebir M. Ammi,Thagaste Saint Augustin en Algérie,édition de l'aube,1999 et 2002 pour l'édition de poche,

- الأزهر زناد، نظريات لسانية عرفنية، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الإختلاف الطبعة الأولى: 1431 هـ، .2010م

- امبرتو إيكو، تأويل الاستعارة، ترجمة وتقديم: لحسن بوتكلاي- http://www.fobyaa.com/?p=5108 -

- قاموس الكتاب المقدس.

- عادل عبد الله: التفكيكية إرادة الاختلاف وسلطة العقل، دار الخطاب والتوزيع ط1، 2000 -

- محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري (إستراتيجية التناص)،المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الثالثة 1992 .

- ابن منظور، لسان العرب، طبعة دار المعارف, نسخة الكترونية.

- هريبرت بيشت وجنيفر دراسكاو، مقدمة في المصطلحية، تأليف: ، ترجمة: الدكتور محمد محمد حلمي هليل، مجلس النشر العلمي، الكويت، 2000،

- Antoine Berman, L'Âge de la traduction. "La tâche du traducteur" de Walter Benjamin, un commentaire.*Textes* rassemblés par Isabelle Berman avec la collaboration de Valentina Sommella. *Presses Universitaires de* Vincennes, coll. Intempestives, décembre 2008.

- Black ,W.J. 1988 .Les systèmes intelligents basés sur la connaissance , Traduit de l'anglais par H..de Feraudy. Paris. Edition Masson.

- Bernd Stefanink ,Bref aperçu des théories contemporaines de la traduction1 ; Monde, n° 310 (Mai-juin 2000).
- Catherine Gottesman ,Quelques Réflexion sur la traduction littéraire, Klincksieck | Ela. Études de linguistique appliquée. 2006/1 - no 141,
- GroupeM, Rhétorique générale, Seuil .
- HURTADO ALBIR, Amparo (1990) :La notion de fidélité en traduction , Paris, Didier Érudition.
- Jean-Claude Chevalier, Marie-France Delport, Problèmes linguistiques de la traduction. L'horlogerie de Saint Jérôme.
- Jean-Claude Margot ,Traduire sans trahir: la théorie de la traduction et son application aux Textes biblique. Préface de Georges Mounin , Copyright, 1979 BY éditions L'âge d'homme.
- Jean Darbelnet ;Traduction littérale ou traduction libre ?; Meta : journal des traducteurs / Meta: Translators' Journal, vol. 15, n° 2, 1970.
-- Jean-Pierre, Français-créole. créole- Français . éthique. Pratiques , Problèmes, enjeux. L'Harmattan, 2004.
- Lederer, Marianne (1994): La traduction aujourd'hui, Paris: Hachette.
-- Maryvonne Boisseau , présentation, Palimpsestes 17,
- Myriam Suchet, Outils pour une traduction postcoloniale: littératures hétérolingues, Copyright, 2009, éditions des archives contemporaines.
- Palimpsestes 17: Traduire la figure de style, Paris, Presses de la Sorbonne Nouvelle, 2005.
-Salah Mejri ; raduire La Langue, Traduire La Culture - Rencontres Linguistiques Méditerranéennes.
- W . Iser : L'acte de lecture , Mardaga , 1985 ,

الإحـــــالات :

[1] -Salah Mejri , Traduire La Langue, Traduire La Culture - Rencontres Linguistiques Méditerranéennes, P 22.

[2] -Salah Mejri , Ibid., P 22.

[3]- Antoine Bermane, L'Âge de la traduction. "La tâche du traducteur" de Walter Benjamin, un commentaire , presses universitaire de vincennes , coll. Intempestives, décembre 2008. P 123. ,

[4] - HURTADO ALBIR, Amparo (1990) :La notion de fidélité en traduction , Paris, Didier Érudition, P 607.

[5]- محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري (إستراتيجية التناص)،المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الثالثة 1992 . ص 19 – 30.

[6] Voir par exemple, Palimpsestes 17: Traduire la figure de style, Paris, Presses de la Sorbonne Nouvelle, 2005..

[7]– هربيرت بيشت وجنيفر دراسكاو ، مقدمة في المصطلحية، ترجمة: الدكتور محمد محمد حلمي هليل، مجلس النشر العلمي، الكويت، 2000، ص 15.

[8] - Kebir M. Ammi,Thagaste Saint Augustin en Algérie,édition de l'aube,1999 et 2002 pour l'édition de poche, P 77.

سأكتفي في الصفحات القادمة، عند توثيق النصوص المنقولة من الرواية، بذكر رقم الصفحة في متن البحث,

[9]– كبير م عمي، ثاغست، القديس أغسطين في الجزائر، ترجمة آمنة بلعلى، منشورات ألفا، قصر المعارض، الصنوبر البحري، الجزائر 2008, ص 81,

سأكتفي في الصفحات القادمة، عند توثيق النصوص المنقولة من الرواية، بذكر رقم الصفحة في متن البحث,

[10] - HURTADO ALBIR, Amparo (1990) :La notion de fidélité en traduction , Paris, Didier Érudition, P 607.

[11] - Lederer, Marianne (1994): La traduction aujourd'hui, Paris: Hachette, P 37 .

[12]-Jean-Claude Chevalier, Marie-France Delport, Problèmes linguistiques de la traduction. L'horlogerie de Saint Jérôme. P 724.
[13] - Jean-Claude Chevalier, Marie-France Delport, Ibid. P 724.
[14] - Groupe M, Rhétorique générale, Seuil, 1982, P 24.
[15] - Groupe M, op. cit., p. 24.

[16]- الأزهر زناد، نظريات لسانية عرفانية، الدر العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف الطبعة الأولى: 1431 هـ، 2010م ، ص145.

[17]-ينظر، ابن منظور، لسان العرب، طبعة دار المعارف، مادة رعي ودعا

[18] -Catherine Gottesman ,Quelques Réflexion sur la traduction littéraire, Klincksieck | Ela. Études de linguistique appliquée. 2006/1 - no 141, P 98 .
[19] - Jean Darbelnet ;Traduction littérale ou traduction libre ?; Meta : journal des traducteurs / Meta: Translators' Journal, vol. 15, n° 2, 1970, p 90.
[20] - Voir par exemple, Jean-Pierre, Français-créole. créole- Français .
éthique. Pratiques , Problèmes, enjeux. L'Harmattan, 2004.
[21] Voir par exemple,
-Jean-Claude Margot ,Traduire sans trahir: la théorie de la traduction et son application aux Textes biblique. Préface de Georges Mounin , Copyright, 1979 BY éditions L'âge d'homme.
-Bernd Stefanink ,Bref aperçu des théories contemporaines de la traduction21 ; *Monde*, n° 310 (Mai-juin 2000), pp. 23-27
-Myriam Suchet, Outils pour une traduction postcoloniale: littératures hétérolingues, Copyright, 2009, éditions des archives contemporaines.

[22]- لسان العرب مادة قطع.

[23] - Voir par exemple, Black ,W.J. 1988 .Les systèmes intelligents basés sur la connaissance , Traduit de l'anglais par H..de Feraudy. Paris. Edition Masson
[24] - W . Iser : L'acte de lecture , Mardaga , 1985- 128

[25]- ينظر، امبرتو إيكو، تأويل الاستعارة، ترجمة وتقديم: لحسن بوتكلاي .
http://www.fobyaa.com/?p=5108

[26]- عادل عبدالله: التفكيكية إرادة الاختلاف وسلطة العقل، دار الخطاب والتوزيع ط1، 2000 ص76 وما بعدها.

[27]- ينظر، قاموس الكتاب المقدس مادة سماء، لو 15: 18 .

[28]- ينظر، قاموس الكتاب المقدس مادة سماء مت 6: 33، 12: 28، 19: 24، 21: 31 و 43 ، 19 23 :و 24

[29]- ينظر، قاموس الكتاب المقدس مادة سماء متى 45 :5و 1 كورنثوس 15: 47.

[30]- ينظر، قاموس الكتاب المقدس عب 1: 3

[31] - Maryvonne Boisseau , présentation, Palimpsestes 17 , P 11.

التراث الروحي في منطقة القبائل
"قصائد الأذكار بين الموت والانبعاث "
"مقارنة أسلوبية"

أ. نادية طهار

(ج. مستغانم)

الملخص

نتناول في هذا المقال التراث الروحي الجزائري الناطق بالأمازيغية، وتتحدد رقعته الجغرافية بمنطقة القبائل. سنتوقف عند جانب حيوي من هذا الإرث الروحي الديني يتمثل في "**قصيدة الأذكار**" التي تحوم حولها عوامل مختلفة ومتناقضة بعضها يشكل سببا في فنائها، وبعضها الآخر يسهم في إحيائها واستمرارها. وفي هذه الدراسة سنتتبع مفهومها وصيرورتها، ونستعرض عوامل اندثارها ووسائل بعثها، محاولين إبراز الوظيفة الروحية والجمالية لقصيدة الأذكار. ولا نغفل الإشارة إلى إشكالية الكتابة الصوتية التي تمثل عائقا يعاني منه كل باحث يطمح إلى تدوين التراث الناطق بالامازيغية عموما، وسنبين الدافع الموضوعي لاختيار الأصوات العربية رموزا لمدونتنا. كما ستسمح لنا دراسة نموذج من قصيدة الأذكار بالكشف عن الجوانب الفنية والأسلوبية لهذا النوع من الفن.

الكلمات المفتاحية:

الأذكار، الذكر، الطرقية، لخوان، الشيخ، الكتابة الصوتية، الظواهر الأسلوبية.

مقدمة:

يحتوي التراث الروحي الجزائري الناطق بالأمازيغية على مادة وفيرة وخصبة ما تزال تنتظر اهتمام الباحثين بها، جمعا وترجمة ودراسة. وتعد الأعمال المقدمة باللغة العربية في مجال هذا التراث الشفوي عموما، ضئيلة جدا مقارنة بنظيرتها الفرنسية. وفي هذا السياق تجدر الإشارة إلى غياب هذا الإرث الروحي في الدراسات والأبحاث التي اشتغلت حول التراث الجزائري الناطق بالأمازيغية، إذ لم يتوسله الباحثون مدونة لدراساتهم اللسانية، ولم يكن له حضور في المؤلفات التي جمع فيها أصحابها النصوص الشفوية بمختلف أجناسها الأدبية، شعر ، حكاية، أمثال وحكم، و من أبرز الأعمال في مجال اللغة الأمازيغية وتدوينها ما قدمه مولود معمري والذين سبقوه من الباحثين الفرنسيين أمثال باسي Basset و Picard بيكار.[1]

وتعد ندرة الدراسات في التراث الروحي الناطق بالأمازيغية دافعا أساسيا للبحث في جانب منه.فوقع اختيارنا على شعر الأذكار كفن قولي، سعيا إلى التعريف به وبأساليبه الفنية. وحرصا على إخراجه من العزلة والمحلية. وهنا نطرح عدة تساؤلات تتلخص في مفهوم الأذكار؟ ومن هم حملة هذا التراث؟ ماهي العوامل التي تهدد بقاءه والتي تبعث على صموده؟ ما الذي يعيق تدوينه؟ ثم ما هي خصوصياته الفنية والأسلوبية؟

وللإجابة على هذه التساؤلات يتوقف بحثنا عند النقاط الآتية:

1- مفهوم الأذكار "التْذَاكِير"

تعتبر كلمة "التذاكير" من الدخيل اللغوي في اللسان الأمازيغي، فهي ترجع في أصلها إلى اللغة العربية من كلمة ذكر. وترد كلمة ذكر في لسان العرب بمعنى الحِفْظُ للشيء تَذْكُرُه. والذِّكْرُ أَيضاً: الشيء يجري على لسانك. والذكر ما أذكرته بلسانك وأظهرته.[2] والمصدر الذكر وجمعها الأذكار وهي الكلمة التي تنحدر منها كلمة التذاكير في اللغة الأمازيغية أو القبائلية تحديدا، - لأن الرقعة الجغرافية التي يمسها بحثنا تنحصر في منطقة القبائل (الزواوة)- وقد حافظت هذه الكلمة على دلالتها الأصلية اللغوية والاصطلاحية كما هو موجود في اللسان الأصل "العربية".

تتداول كلمة (**التْذَاكِيرْ أو أَذَكّرْ**) بمعنى الأذكار في المجتمع الناطق بالأمازيغية على بدل **المدائح**،- كما نعرفه في الثقافة الشفوية الناطقة بالعربية- ولعل ذلك راجع إلى البعد الوظيفي لهذا النوع من القصائد التي تردد في مجالس الذكر، حيث يجتمع أشخاص تآلفوا وأصبحوا فرقة معترفا بها، تنتمي إلى أحد أولياء الله الصالحين الذين أسسوا في أغلبهم زوايا لحفظ القرآن وتدارس علوم اللغة العربية لذكر الله والتذكير به وبكل ما يتعلق بمصير الإنسان الأخروي. تسبقه أعمال في الحياة الدنيا يكون الإنسان فيها إما شاكرا وإما كفورا، إضافة إلى ذلك تتخذ هذه النصوص إيقاعات مختلفة للإنشاد أو الابتهال تردد أغلبها لفظ الجلالة الله الله وشهادة أن لا إله إلا الله محمد رسول الله. لذلك نرى أن "**التْذَاكِيرْ**" هو المصطلح الأكثر دقة من "**المدائح**" لأن الذكر هي الوظيفة الأساسية والفعلية لهذه النصوص.

يعد الذكر ركنا أساسيا عند المتصوفة، وهذا القاشاني يعتبر "الذكر أعظم أركان الرياضة التي يعرفها المتصوف وأكبر قربة يتقرب بها العبد من ربه"[3]، وهو ما تزكيه الآية الكريمة " اذكروني أذكركم".[4] وتكمن وظيفة الذكر وغايته في طرد الغفلة من النفوس، وهو ما يحصل بالتهليل والتسبيح وقراءة القرآن وبتنبيه القلوب بالتذكير بالله وأسمائه وصفاته وانتشار إحسانه، كذكر الراجين على وعده وذكر الخائفين على وعيده وذكر المتوكلين على ما كشف لهم من النعماء.[5] والمتصوفة يتفقون جميعا على أن الذكر ركن قوي في طريق الحق سبحانه وتعالى، بل هو العمدة في هذا الطريق، ولا يصل أحد إلى الله إلا بدوام الذكر.[6] وفي هذا المناخ الروحي الرباني انبثقت قصيدة الأذكار ووسعت أرجاء منطقة القبائل إلى وقت قريب جدا، ولا تزال تقاوم النسيان. ومن أشهر الأعلام المعاصرين في الأذكار نجد الشيخ **الحاج محمد السعيد** من قرية "**ألما قشثوم**" بمنطقة عزازقة (بني غبرين) والشيخ **مقران أقاوة** بمنطقة **الأربعاء ناث ييراثن** National Ford والشيخ **الحنفي** من قرية **عروس** بجرجرة.

يحمل هذا التراثَ الشفويَ أشخاصٌ يدعون "**لخوان**" وفي الاصطلاح الصوفي فإن "الإخوان هي الجماعة التي تنزه أفرادها عن مقتضيات الكدر البشري، وتحلَّوا بأوصاف الكمالات الروحية.[7] تضم هذه الجماعة إذن، المريدين والسالكين طريقهم إلى الله، وللطرقية انتشار واسع في هذه المنطقة يواكب انتشار الزوايا فيها.وتعد الطريقة الرحمانية الطريقة الأكثر شهرة في منطقة القبائل. وفي التراث الروحي فإن **للشيخ** مقامه وهيبته لأنه السالك طريق الحق و"هو دليل المريدين في طريقهم إلى الله "يرشدهم ويقرر الدين والشريعة في قلوبهم، ويحببهم إلى الله ويحبب الله إليهم"[8]. يصفه القاشاني بأنه الإنسان البالغ في العلوم الثلاثة الشريعة والطريقة والحقيقة[9] ، وفي هذا السياق نذكر على سبيل المثال الشيخ الحداد"الغوث الرباني"

صاحب ثورة 1871، الشيخ محند، الشيخ مقران، الشيخ سحنون الملقب بصرح النور الشيخ الشريف تمليلين. ولهؤلاء المشايخ وغيرهم فضل كبير في نشر الإسلام فكرا وسلوكا، فحاربوا الظلم وأصلحوا بين الناس وقاوموا الاستعمار الفرنسي وتصدوا للتبشيرية المسيحية في هذه المنطقة وغيرها من المناطق في الجزائر، ذلك أن هذه الفئة الربانية تتميز بالسياحة والسفر ولا يقر لها قرار.

يبين النص الآتي العلة والغاية من الذّكر:

الله الله لا إله إلا الله الله الله ذكْرَنْكْ لَقْلُوبْ يَنُّوغْنَانْ

الله الله

أوفانْكْ ذَالصَّابُونْ إوُولْ الله الله لَخْوَانْ يَتْعَزّيرَنْ أوظَانْ

الله الله

أذْلِينْ إضَاقْ الرُّوحْ الله الله مِي ذكْرَنْ الله اتْحَيَانْ

الله الله لا إله إلا الله الله الله محمد رسول الله

يبدأ النص بلفظ الجلالة **"الله"** مقترنا بشهادة لا إله إلا الله وهي العبارة التي تقوم عليها قصيدة الأذكار، وتأتي لفظة "الله" في أسلوب النداء وهو ويعبر عن ضعف المنادي وتواجده. يقول (ياالله إن القلوب الحزينة تذكرك). وفي الشطر الثاني من البيت الثاني يبن علة هذا الذكر ويتمثل في صفاء القلوب، ولكن هذه القلوب الصافية الخالصة ملك لفئة خاصة تدعى "**لخوان**" وفي العرف الروحي لمنطقة القبائل فإن **لخوان** هم أهل الذِّكر الذين يقومون الليل للعبادة والتهجد، وتظهر عليهم علامات الاستقامة والورع والزهد في الحياة.

أما البيت الثالث فإنه يكشف عن الوظيفة المثلى للذكر (إذا ضاقت قلوبهم ذكروا الله ثم انتعشوا) والانتعاش يحمل دلالة السعادة والنشوة التي يبلغها الذاكرون لله، وتختم المقطوعة بحقيقة لا إله إلا الله محمد رسول الله.

والنص التالي كذلك يحدد مفهوم الذكر من خلا ل غايته:

الصّلاة افْنْبي سْوَالَفْ ... مُحَمَّد النَّبي المُخْتَــــــــار
وِينْ ثِذْكْـــرَن إوُولَفْ ... أُلِيـــــــسْ سَلْحُبّ أذّيَـتشّار
أذّيَفْهَمْ وَيَـذّيثْعَـــرَّفْ ... أذْفــلَّاسْ ظَهْرَنْ لَنْـــــوَارْ
ألَـخْوَانْ حَاذَ رْ أنتلف ... لَوْصَايَـةْ نَالشِّيخْ أمْغَـــارْ
ذمّثْ إثْزَلِّيـــثْ نَصَّفْ ... غُرْوَثْ أتسَـجَّمْ لَـذّكَــارْ

يرتبط الذكر في هذه الأبيات بشخص الرسول عليه الصلاة والسلام وثمرة الذكر هنا امتلاء القلب بالحب والمعرفة التي توصل صاحبها إلى الإشراق النوراني. وفي البيت الثالث تحذير من تضييع وصايا الشيخ الذي يعتبر نبراسا للسالكين. ويقدم لنا البيت الرابع وصيتين من وصايا الشيخ، الأولى في دوام صلاة الجماعة والثانية في لزوم الذكر.

2- المخاطر التي تهدد قصيدة الأذكار

يعاني هذا التراث الذي لا يزال شفويا وتحديدا "الأذكار" أو "التّذاكير" من عوامل عدة تهدد بقاءه؛ لعل أهمّها ينبع من تلك التحولات الاجتماعية والفكرية

والثقافية وحتى الدينية الطارئة على المجتمع الجزائري، يمكن إجمالها في العنصرين الآتيين:

أ- تراجع الطرقية التي كانت عاملا بارزا وفعالا في انتشار هذه "**الأذكار**".

ب- ظهور جماعات تحارب هذا الإرث الديني الروحي باسم الدين نفسه دون ما نظر و إحاطة بدوافع وأهداف هذه الممارسات الروحية التي أنتجت لنا شعرا غزيرا تتوفر فيه كل الأساليب الفنية والجمالية، إضافة إلى قيامها بوظيفة مركزية تنبع من صلب هذا الدين تتمثل في نشر وترسيخ قيّم ومبادئ العقيدة الإسلامية وبعث المشاعر الروحية و إيقاظ النفوس من غفلتها، ذلك أنّ موضوعات هذه النصوص تنحصر في ذكر الله والتأمل في الوجود ومدح الرسول صلى الله عليه وسلم وسرد قصص الأنبياء. ولعل قاعدته الدينية الصلبة هي التي تحول دون اندثار هذه القصائد وتلك الممارسات الروحية.

ج- قلة التدوين حيث لا تزال أغلب النصوص شفوية تؤخذ من أفواه حفظتها.

3- **العوامل التي تساهم في بعث قصيدة الأذكار:** من أهم العوامل التي تساهم في صمود قصائد الأذكار ما يلي:

أ- تنظيم حلقات الذكر في المناسبات الدينية (عاشوراء، المولد النبوي) وأحيانا دون مناسبة محددة يتم تنظيمها من قبل من نسميهم "**لخوان**" في إحدى المعاقل الدينية كالعباد بعزازقة (بني غبرين) وإبحريين سيدي احمد بن يوسف بأزفون ومناطق أخرى كثيرة.

ب- إقامة هذه الحلقات بمناسبة الوفاة، فبعد إتمام قراءة القرآن يجتمع الناس لإنشاد قصائد الأذكار وهناك أشخاص مختصين بذلك يحفظون ويملكون أصواتا متمرسة قادرة على الإنشاد.وهذه الممارسات لا تنحصر في الرجال فقط بل هناك فرق نسوية كذلك.

ج- نشر هذا النوع من الأناشيد أو الابتهالات على شكل أقراص مضغوطة CD وتقوم به دور النشر مثل cinekabyle و IZEM production وهذه الوسائل السمعية أعطت دفعا جديدا وحيويا لهذا الإرث العريق في منطقة القبائل وإيصاله إلى جمهور أوسع.

د- قد يكون تدوين هذه النصوص والاهتمام بها من قبل الباحثين عاملا مهما وفعالا في الحفاظ عليها من جهة، واعتمادها مدونة في الدراسات الأنتربولوجية والثقافية للمنطقة من جهة ثانية. وبذكر التدوين نطرح إشكالية كتابة النصوص التي لا تزال تقاوم النسيان.

4- إشكالية التدوين:

إن إشكالية الكتابة الصوتية للغة الأمازيغية ما تزال مطروحة. وسواء استعملنا الكتابة الصوتية العالمية، تمثلها الحروف اللاتينية أو الحروف العربية والتي استعملها بعض الباحثين، وقبلهم الناس العاديين للتراسل فيما بينهم؛ إلا أن هذه البدائل الرمزية التي نلجأ إليها لم تحل إعاقة تدوينها خاصة على الآلة الراقنة، وإذ نطرح هذه الإشكالية هنا فلأننا بصدد مواجهة صعوبة كتابة مدونة مقالنا؛ الأمر الذي يعاني منه كل باحث يطمح إلى جمع وتدوين التراث الناطق بالأمازيغية وهو ما يؤكده الباحث الجزائري "يوسف نسيب" الذي اشتغل لسنوات عدة في هذا المجال

يقول "لقد واجه الباحثون الذين سعوا إلى تدوين نصوص باللغة الأمازيغية مشكلة الأبجدية"[10]. فحاول الباحث أن يضع عشرين رمزا تشكيليا مستعينا بباحثين سابقين مثل (أ. أرو وبيلات تيك A. Orau C. Pellat tyk) ولكن دون إدراج هذه الرموز في كل مكان من مدونته، كما يشير إلى محدودية الآلات الراقنة في الرموز وهو ما يحول دون تقديم عمل مثالي ودقيق يعبر عن كل الأصوات الموجودة في اللغة الأمازيغية. يقول الباحث:" إن الموارد الكتابية المحدودة جعلتنا نضطر إلى استعمال كتابة بسيطة تهدف إلى الإبانة على الظواهر العامة بدل الخصوصيات العرضية العابرة".[11]

نقر هنا أنه لحد الآن لا يوجد نظام مُوحد مُتبنى من قبل المختصين في تدوين النصوص الناطقة باللسان الأمازيغي، وبما أن الأمر كذلك فإنه ليس هناك قاعدة علمية أو منطقية تلزمنا باستعمال رموز بعينها، وهو ما دفعنا إلى اختيار الحروف العربية لكتابة مدونة بحثنا وذلك للأسباب الآتية:

أ- التقارب الصوتي والنطقي بين اللغتين في الصوائت الرفع والخفض والفتح.

ب- التماثل بين عدد كبير من الصوامت مثل (خ، ر، غ، ع، ق، ك، ث، ز، ظ، ت، ح، ذ) وكل هذه الأصوات توفرها العربية وبالتالي تسهل علينا عملية التدوين.

ج- احتواء اللغة الأمازيغية على عدد كبير من الكلمات ترجع في أصلها إلى اللغة العربية.

د - التداول البارز للكلمات المقترضة من اللغة العربية في قصائد الأذكار.

4--البنية الفنية لقصيدة "الأذكار"

تخضع قصيدة الأذكار إلى مجموعة من المعايير تميزها عن فنون القول الأخرى نلخصها فيما يلي:

1- الشكل:

- أ/ ترديد لفظ الجلالة " الله " والشهادتان" لاإله إلا الله محمد رسول الله" ويتم ترديده بطريقة يضبط بها الذاكر أو المنشد إيقاعا معينا للقصيدة.

ب/ الصلاة على النبي.

ج/ الدخول في الموضوع

د/ التضرع والدعاء بالمغفرة والفوز بالجنة.

ويبقى الإنشاد عنصرا ضروريا لقصائد الأذكار وتتنوع الإيقاعات بتنوع المضامين.

2- المضمون

تنحصر قصيدة الأذكار في الموضوعات الآتية:

الوعظ والإرشاد والتأمل في خلق الله والتذكير بالموت وبالحساب والعقاب والجنة والنار، ويمثل موضوع قصص الأنبياء قسطا وافرا في هذا الفن. كما تطغى على هذه النصوص ألفاظ تدور في حقل المحبة والذكر والزهد والاستغفار والرجاء والصبر والأنس والقبض والبسط.

وهذا نموذج للدراسة والتحليل لقصيدة بعنوان "المؤمنون" وقد استهوتنا ترجمة النص شعرا وذلك إيمانا منا بضرورة العنصر الجمالي في الخطاب الشعري بل الشعر لا يقوم إلا عليه، لكن الأمر يبدو أنه يحتاج إلى شاعر و ربما إلى وقت طويل جدا، لذلك اكتفينا بتقديم معاني القصيدة للقارئ أولا ولتحليل مضامينها والكشف عن خصائصها الأسلوبية والجمالية ثانيا.

يقول النص:

آهْ يالمُومْنِينْ ذْكْرَثْ　　رَبِّــي الْعَــالَمِــيــنْ

آهْ يَا الْمُومْنِينْ لَخَرْثْ　　إيلاَقـاسْ وَعْـوِيــنْ

الصّلاَةْ أَفْنْبِي الْمَدَنِي　　مُحَمَّدْ سِيدْ الـرِّجَــالْ

الـهَاشِمِي الْــعَدْنَانِي　　النُّورِيسْ يَغْلَبْ لَـهْلاَلْ

إِحُبِّيثْ رَبِّي العَالِي　　إِشَرْفِثْ قَبْــلَ ادِيلاَلْ

إِحُبِّيثْ رَبِّي الْغَنِي　　إِفَطْنِثْ قَبْـلَ ادِيلَالْ

رَبِّي غُورَكْ نَتّعَنِّي　　الشّفَاعَكْ أَنْبِي أَغْثْنَّالْ

عَيْنَاعْ أَفْرِيدْ أَسُنِّي　　مَنْعاَعْ مِنْ أَهْلَ الشِّمَالْ

مَايْحُبِّكْ خَاسْ كُنْ هَانِي　　سِلْعِلْمِيسْ أَرْذْكَيْنَّالْ

أَوْنَحْكُوعْ أَلَخْــوَانِي　　دُنِّــيثَاقِــي أَمْلَخْيَـــالْ

بَزَّافْ انْحُبْ الفَانِــــي　　نَفْرَيَاسْ الرَّاسْ الْمَالْ

مِ يفُوثْ الْحَالْ أَسْنِنِي　　أَنَخْذَمْ الْخِيرْ مَانُوغَالْ

ثْكْفَا الْهَدْرَ أُولاَ يْنِنِي	الْخِيرْ مَسْكِينْ ذْرَجْذَالْ
الزّمَان إِلَحُّو أمْنَكْنِي	غَـرْذْقِّيــرْ إِيقَتُّوغَالْ
إِلْــــهَوَا إِنَثْمَنِــــي	سِلْمِيزَانْ نَّـغْ أَدّيَكْثَّالْ
أكْرَا يَغْرَانْ لَمْعَانِي	غُورْوَثْ أَسَدَّاتْ أَثْمَالْ
إِيَّاوْ أَنْثُوبْ أَنْعَنِّي	أَنَثْـــرُو مَــا دْنَنَقْبَــالْ
لَخْلاَصْ ثُرَا ذَقِنِي	إِيفُوكْ فُرُّو سَلْمِيجَـالْ
أَالرَّحْمَانْ الرَّحِيمِ	دَعَّاغْكْ سَاثْ اهْلَ الْكَمَالْ
ظَلْبَــثْ إِرَبَّانِــي	إِيمَـزْوُرَا ذُوِيدْ مَــازَالْ
ثْعْفُوظْ إِلُمَّة نَنْبِي	حِينْ فَلاَّغْ مَالَكْ سْوَالْ

معاني القصيدة

يبدأ النص بتنبيه المؤمنين إلى ذكر الله وتحمل عبارة "آه يا المومنين" المكررة مرتين معنى الإصرار على الذكر وذلك لكونه زادا للآخرة. ثم ينتقل الشاعر إلى الصلاة على النبي ليسرد مناقب الرسول صلى الله عليه وسلم، فهو المدني سيد الرجال ، الهاشمي، العدناني، ونوره أقوى من نور الهلال وكلمة النور الواردة هنا تتعدى الدلالة الأولية إلى دلالة الجمال الذي تطمئن إليه القلوب وتسكن. أحبه الله العالي، شرفه قبل ولادته، وأحبه الله الغني فطنه قبل ولادته. وفي البيت السابع دعاء إلى الله ورجاء منه للنيل من شفاعة النبي واتباع سنته، وأن يجنبهم من خالفه (من أهل الشمال) ويقصد بهم كل من ترك سنة رسول الله وابتدع. ويلتفت الشاعر في البيت التاسع إلى المخاطَب قائلا(إذا أحبك الله فكن هنيئا ومن علمه سيمنحك). ويلتفت النص مرة

أخرى إلى جمع المخاطَبين وهم "لخوان" ليخبرهم وينبههم إلى أن الحياة الدنيا مثل الخيال ويقصد بذلك عدم الوثوق بها. ومن البيت الحادي عشر إلى البيت الخامس عشر يسرد النص مجموعة أعمال بأسلوب خبري يخرج إلى غرض النصح والإرشاد، فحين تنسب بعض الأفعال إلى الإخوان والشاعر واحد منهم فلكي يذكّر بالابتعاد عنها والتحلي بنقيضها يقول مثلا (نحب كثيرا ما يفنى وتخلينا عما هو أنفع وأصح وأسماه "راس المال") وهي كناية عن الآخرة. ويأتي الخير في صورة رجل (مسكين أعرج) كناية عن عدم تمكنه بين الناس أما الزمان أو الوقت فإنه (يمشي إلى الوراء مثلنا) ويكتسب الوقت في النص سمة سلبية مغايرة لطبيعته تتمثل في المضي إلى الوراء وهو ما يعبر عن فساد أمور الناس. وتبقى الأمنيات وهمية وهو الفوز في الآخرة لأننا سنحاسب على كل دقيقة من أعمالنا، وهو ما يعكس مشاعر الخوف والرهبة عند الشاعر. وبعد ذلك يتوسل إلى (السادات) وهم أولياء الله الصالحين أن يحرصوا على أن تميل حياة المؤمنين لئلا يفقدوا توازنهم ويصيروا إلى هلاك وتعتبر فئة السادات الفئة التي تحافظ على صلاح الأمة بما تتميز به من علم وورع وعرفان. ويتلو هذا التوسل نداء إلى التوبة والرجاء والبكاء طمعا في الاستجابة من الله تعالى. ويبرر الإلحاح على الاستغفار، لأن الإنسان يحاسب في الدنيا قبل الآخرة وهو ما يبين هول الذنوب والكبائر في نظر الشاعر. وينتهي النص بالدعاء باسمين من أسماء الله الحسنى (الرحمان الرحيم) يتوسل فيه الداعي إلى الله بأهل الكمال. وفي مقام الدعاء يطلب من الله أن يغفر للأولين والآخرين وأن يعفو على أمة النبي وأن يحن عليهم ملك السؤال.

الظواهر الأسلوبية:

تتميز قصيدة "**المومنين**" بظاهرتين أسلوبيتين بارزتين:

أ- التراكم الصوتي: تسيطر ظاهرة التراكم الصوتي على البنية الأسلوبية للقصيدة وتبدو العناية بالغة بالهندسة الصوتية لها حيث تتكرر أصوات العين واللام والراء على مسافة زمنية متقاربة تولد عن توظيف النص للتجنيس ، خاصة في المطالع والمقاطع (ذكرث/ لاخرث، الرجال/ لهلال) وتعتبر هذه الأصوات بمثابة أوتار للقصيدة يعزف عليها الشاعر لتمثل عالما من الجمال والمتعة والذوق، يشد بها انتباه المتلقي ويجعله يشعر بمعاني النص قبل أن ينفذ إليها. وللجرجاني مقولة عن أثر التجنيس في المعنى، يقول:" إن ما يعطي التجنيس من الفضيلة أمر لم يتم إلا بنصرة المعنى". وهو تنبيه إلى تفاعل الصوت والدلالة في الخطاب الشعري.

يصوغ النص معانيه في نسيج لغوي شعري مبني التجانس والتكرار والتضاد والمقابلة، فاكتسب بذلك إيقاعا حركيا و إيحاء دلاليا.

ب- الالتفات

تعد ظاهرة الالتفات في الضمائر من أبرز الظواهر الأسلوبية التي تتحكم في هذه القصيدة. يبدأ النص بضمير المخاطب (الجمع) وهم المؤمنون ليلتفت إلى المفرد الغائب مستحضرا بذلك شخص الرسول للصلاة عليه ومدحه وتبيان محبته عند الله ليلتفت مرة أخرى إلى مخاطبين متتاليين ولكنهما مختلفين المخاطب الأول هو "الله" للدعاء والتضرع والثاني هو "الإنسان" للنصح والإرشاد ليعود ثانية إلى المخاطب (الجمع) في وقفة متأنية للتأمل فيما يكتسبه العبد في الحياة الدنيا تجعله من الخاسرين في الآخرة لذلك يلتفت إلى المخاطب المفرد للدعاء بالمغفرة.

تكمن القيمة البلاغية للالتفات في أنه يأتي بغير المتوقع لدى المتلقي فيؤدي إلى حالة من التيقظ الذهني والنشاط العقلي.[12] وتظهر وظيفته الأسلوبية في هذا الخطاب في إضفاء حركية و دينامية عليه، حيث يقدم معان عديدة ومختلفة ولكنها متكاملة ومترابطة. لقد كان الالتفات في الضمائر في هذه القصيدة بمثابة منبه فني يشد انتباه المتلقي إلى تتبع معانيها وإدراكها، وفي هذا النص تتوزع مهام الضمائر فيرتبط "مخاطَب الجمع" بالمؤمنين، والإخوان والعارفين، والمخاطب المفرد يأتي في سياق الدعاء والرجاء من الله، بينما تنسب إلى ضمير المتكلمين تلك الأفعال التي تتعلق بالمتاع والغرور وحب الدنيا و إذ يستحضرها النص فمن أجل نبذها وتركها.

الخلاصة

تمثل قصيدة الأذكار جانبا مهما وحيويا في التراث الروحي الناطق بالأمازيغية، وهي تعبر عن تلك الحياة الدينية والحضارية المشرقة في تاريخ منطقة القبائل. أما في الوقت الراهن فإنها تصارع من أجل البقاء في إطار مجتمع يتحول فكريا واجتماعيا، وثقافيا وحتى دينيا. فظهرت عوامل عدة تهدد وجودها، وأخرى تساهم في بعثها واستمرارها، كالنشر على الأقراص المضغوطة، و تدوينها من قبل بعض الباحثين وبعض من الأشخاص الذين يحفظونها، وهم في أغلبهم شباب. وتبقى مسألة التدوين ذلك العامل الجوهري الذي يحفظ هذا التراث من الزوال.

إن المضامين الروحية والإرشادية التي تقوم عليها قصيدة الأذكار لم تجعلها تفرط في العناصر الفنية التي ينبني عليها كل خطاب شعري. وقد وجدنا اهتماما بالغا بالإيقاع، بل إن قصيدة الأذكار أول ما تتميز به هو اعتمادها على الإيقاعات البسيطة

والمختلفة يكون فيها لفظ الجلالة "**الله**" وشهادة **أن لا إله إلا الله محمد رسول الله** لازمة إيقاعية يرددها المنشد أو الذاكر - بتعبير أدق- وتردده الجماعة معه.

الإحالات :

1- ينظر يوسف نسيب، مختارات من الشعر القبائلي، ترجمة: سيفر لخضر، دار الأمل للدراسات والتوزيع، 2007، الجزائر ص11.

2 ابن منظور، لسان العرب، بيروت، دار صادر، ط1، ص 36.

3- القاشاني : لطائف الأعلام في إشارات أهل الإلهام، ص 215.

4- سورة العنكبوت: الأية 152.

5 - ينظر عبد المنعم الحفني، المعجم الصوفي، القاهرة، دار الرشاد،1998، ط1، ص99.

6 - القشيري، الرسالة القشيرية، بيروت، دار الكتب العلمية، 1998، ط1، ص 255.

7 - ينظر عبد المنعم الحفني، المرجع السابق، ص17.

8 - المرجع نفسه، ص138.

9 - القاشاني، المرجع السابق، ص 224.

10- يوسف نسيب، مختارات من الشعر القبائلي، ص 9.

11- المرجع السابق، ص6.

12- ينظر يوسف نسيب، مختارات من الشعر القبائلي، ترجمة : سيفر لخضر، دار الأمل للدراسات والتوزيع، 2007، الجزائر ص : 11.

12 - فتح الله سليمان، الأسلوبية، مدخل نظري ودراسة تطبيقية، مكتبة الآداب، 2004، ص 244.

الترجمة الآلية

أ. بسو صديق
(ج. فرحات عباس / سطيف)

1. مقدمة:

تعتبر الترجمة الآلية خيارا استراتيجيا، ذا أهمية بالغة على المستوى السياسي، الاقتصادي، العلمي، الفلسفي و الحضاري.

لكن لابد في البدء من الاتفاق على بعض المفاهيم، أولا: أن الترجمة الآلية عملية ممكنة و ليست من الخيال العلمي. ثانيا: هي مهمة صعبة جدا لأنها تتعامل مع المستويات المختلفة للغة بدءا بالصرف و النحو ووصولا إلى الدلالة. ثالثا: ليس من مهام الترجمة الآلية ترجمة النصوص الأدبية، هذه الأخيرة تتطلب تحاليل عميقة للغة وكفاءات راقية. أخيرا: فان الترجمة الآلية لا تشكل خطرا البتة على المترجمين، فالإنسان لوحده لا يستطيع القيام بكل المهام بل لابد من مساعدة من الآلة و التي تمتاز بالسرعة و القدرة على التخزين. و رغم النتائج المتواضعة لنظم الترجمة الآلية إلا أنها تظل ذات فائدة و ذات استعمالات واسعة.

أما عن تعريفها، فهي تطلق على النظم الحاسوبية المسؤولة عن إنتاج ترجمات النصوص من إحدى اللغات الطبيعية إلى لغات أخرى سواء أكان ذلك بمساعدة الإنسان أم بدونها.

2. أفكار خاطئة حول الترجمة الآلية:

يعتقد الكثير من الناس أن الترجمة الآلية هي مجرد تعويض للكلمات كلمة بكلمة من النص في اللغة المنطلق إلى النص في اللغة الهدف، الأمر البعيد كل البعد عن الحقيقة، بل الترجمة الآلية هي تحليل لغوي للنص في اللغة المنطلق و إعادة كتابته بطريقة أخرى في اللغة الهدف. فجودة الترجمة تتطلب تقنيات مثلها مثل الكتابة، فمجرد معرفة الشخص للغتين لا يعني أبدا مقدرته على الترجمة بطريقة مهنية، الأمر نفسه للذي يتقن لغة واحدة، هذا أيضا لا يعني أبدا أنه يحسن الكتابة و التأليف في هذه اللغة.

الاعتقاد الثاني هو أن الترجمة الآلية تهدد عمل المترجمين، إذ ستقضي على عملهم، الأمر البعيد عن الحقيقة هو الثاني، لأن الترجمة الآلية تعمل في ميادين لا يمكن للإنسان أن يشغلها و تتطلب الكثير من الوقت و الجهد أكثر من قيمة العمل في حد ذاته، فنظرا لصعوبة استيعاب أعمال الترجمة بل استحالتها بالاكتفاء فقط بالعمل البشري اليدوي، التفتت الأنظار مباشرة إلى طلب العون و المساعدة من الحاسوب ذي الكفاءة العالية و الأداء و السرعة المتميزين و الذاكرة القوية، و هذا مالا يختلف فيه اثنان في عصرنا هذا.

فكرة أخرى خاطئة هي أن الترجمة الآلية غير فعالة فهي لا يمكن أن تترجم الأعمال الأدبية و القصائد كأشعار المتنبي مثلا، و الرد على هذا الإشكال من وجوه، أولا: من قال أن مهمة الترجمة الآلية ترجمة الأعمال الأدبية، فأمامها الكثير من النصوص العادية و التقنية ذات الاستعمال اليومي لتترجمه و التي تشكل الكم الأكبر من المعطيات النصية الموجودة، ثانيا: مهمة ترجمة الأعمال الأدبية هي مهمة صعبة

و غير متاحة حتى للكثير من المترجمين البشر، إذ تتطلب الكثير من المهارات والملكات في اللغتين معا، لكن هذا لا يعني أبدا أن الآلة غير قادرة على ترجمة النصوص التقنية.

ومن الأفكار السائدة أيضا أن جودة الترجمة الآلية رديئة جدا و غير قابلة للاستغلال. صحيح أن النظم الحالية للترجمة الآلية لم تصل إلى مرتبة عالية من النوعية، لكن هذا لا يعني أبدا أن نظم الترجمة الآلية غير مفيدة، فتخيل نفسك أمام جريدة صينية و أنت تعلم أنها تحوي معلومات تهمك أو تهم عمل مؤسستك، ماذا سيكون انطباعك عن نتائج الترجمة الآلية و التي تعطيك الفكرة العامة للنص و لو بأسلوب ضعيف، وتكون قد استفدت من نتائج الترجمة الآلية. وهذا ما يحدث في الترجمة البشرية، إذ يترجم المترجم النص ترجمة أولية يحاول المحافظة على المعنى الأصلي ثم يلي ذلك مرحلة ثانية لإعادة الكتابة و المراجعة و التنقيح. وفي الواقع فان المطلوب من الحاسوب هو انجاز المرحلة الأولى، أي الترجمة دون مراعاة نوعية و جودة الترجمة.

3. دواعي الترجمة الآلية:

إن التزايد المتسارع و الهائل للمعلومات الرقمية عموما ، و النصية منها خصوصا، يجعل من الصعوبة بمكان بل من المستحيل استغلال هذه المعلومات بالطريقة التقليدية. فإذا تحدثنا عن الترجمة مثلا، فمن غير الممكن لمجموعة بشرية مهما كانت كبيرة أن تقوم بترجمة كاملة لكل ما يصدر يوميا من معلومات نصية على اختلاف أشكالها(جرائد، تقارير إخبارية، مواقع، إعلانات، وثائق علمية و تقنية، معاملات تجارية،أدلة استخدام المنتجات التكنولوجية،...). و حتى من الناحية الزمنية، فكم يستغرق المترجم من وقت حتى يترجم جريدة كاملة، و حتى و إن أتمها

فما قيمة هذه الترجمة بعد أن مرت عليها أيام، وان تعاون أكثر من مترجم على جريدة واحدة، فكم من مترجم نحتاج لترجمة العديد من الجرائد، و ما هي مردودية هذا العمل؟ ثم ماذا سيكون شعور هذا المترجم بعد أن يرى أن جهده قد ضاع بعد ساعات قليلة من إنهاء العمل، لتنتهي قيمة هذا الانجاز.

هذه الأمور كلها تلح على ضرورة اللجوء إلى الآلة لما تمتاز به من السرعة و قدرة التخزين الكبيرة، وعدم الملل، و مع هذا كله لعدم مقدرة الإنسان على الحاجات الملحة و المتزايدة للترجمة في هذا العصر، و إنما تستغل طاقات الإنسان في الترجمة في ميادين أخرى.

كما أن قطاعات حساسة كالأمن و الاقتصاد و غيرها تستدعي سرعة معالجة المعلومة و ترجمة آنية لاتخاذ القرارات المناسبة في الوقت المناسب، فإذا انتظرنا الترجمة التقليدية يكون قد فات الأوان بكثير و ضاعت ربما الكثير من ملايين الدولارات و الكثير من المصالح.

كما للترجمة الآلية ضرورة ملحة في مجال البحث المعلوماتي على مستوى الشبكة العنكبوتية، فبفضلها يتم توسيع مجالات البحث بالاطلاع على مواضيع ذات صلة صدرت بلغات أخرى ، و بالتالي مواكبة التطور الحاصل بلسان آخر، فالباحث العربي مثلا و الذي لا يحسن الانجليزية يكون قد حرم نفسه من أكثر من خمسين بالمائة من الرصيد العلمي و التكنولوجي فضلا عن النسبة المتبقية و الموزعة على باقي اللغات !

و من فوائد العمل على الترجمة الآلية أيضا المساهمة في تطوير البحث العلمي عموما و علوم الحاسوب خصوصا، بدءا بنظرية المعلومة إلى المعالجة الآلية للغات الطبيعية و وصولا إلى الذكاء الاصطناعي و تكنولوجيات الإعلام و الاتصال.

لهذه الفوائد كلها، اختارت كل من الولايات المتحدة الأمريكية، كندا، اليابان و الاتحاد الأوروبي الترجمة الآلية كخيار استراتيجي. و الشأن نفسه بالنسبة للهيئات الأمنية و وزارات الدفاع التي تعمل على تطوير البحث في الترجمة الآلية فيما بين اللغات الأوروبية و الانجليزية و الروسية و غيرها.

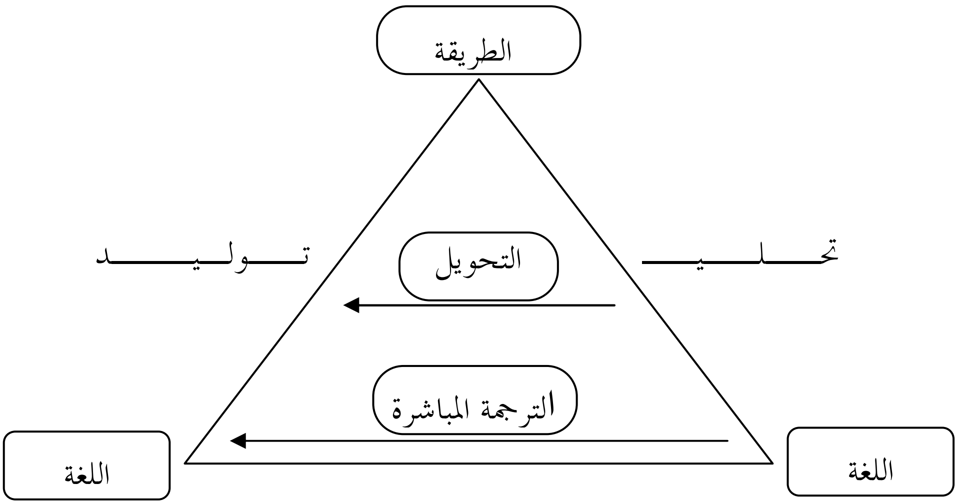
كما تحتل الترجمة الآلية مكانة مرموقة لدى المؤسسات الاقتصادية اليابانية و ذلك بهدف توسيع نطاق عملها و توزيع أشمل لمنتجاتها عبر العالم و فتح أسواق جديدة سواء لترجمة أدلة استخدام الأجهزة أم لدراسة سلوكيات المستهلكين بترجمة ردود أفعالهم و تصرفاتهم عبر الشبكة العنكبوتية.

كما تسعى دول أخرى في المقابل على تطوير الترجمة الآلية و ذلك حفاظا على لغاتها من الضياع.

4. المقاربات الحالية في الترجمة الآلية:

لابد أن الأخصائي في مجال الترجمة سيجد الأمر جد مختلف عما يعلمه عن طرق الترجمة العادية، فالطرق التي تنتهجها الترجمة الآلية تختلف عن الطرق التي يعتمدها الإنسان. فالعقل البشري ينفذ العديد من العمليات الذهنية بسرعة و بطريقة ضمنية، تجعلها صعبة الإدراك حتى على الإنسان نفسه.

يمكن تقسيم طرق الترجمة الآلية إلى اثنين: مباشرة و غير مباشرة، و الطرق غير المباشرة بدورها تنقسم إلى قسمين: طرق تعتمد على التحويل و أخرى على التمثيل الموحد للغات.



المخطط الهرمي لطرق الترجمة

1- **الطريقة المباشرة:** تتمثل في الترجمة الحرفية للنص من اللغة المنطلق إلى اللغة الهدف. اعتمدت هذه الطريقة في أول بحوث الترجمة الآلية في خمسينيات القرن الماضي، لكنها لم تحقق نتائج مرضية و ذلك لما تفتقر إليه من الدقة و أيضا لاستغنائها عن الخصائص اللغوية للخطاب وعدم اهتمامها بمختلف مستويات التحليل اللساني في مثل هذه المعالجات.

2- **الطريقة التحويلية:** تعتمد هذه الطريقة على تحليل النص في اللغة المنطلق إلى تمثيل مجرد يحافظ على الخصائص الصرفية و النحوية و الدلالية، يقوم البرنامج المكلف بالتحويل بتحويل هذا التمثيل المجرد إلى تمثيل مجرد أخر خاص باللغة الهدف يناسب خصائصها اللغوية ، ثم انطلاقا من هذا التمثيل يقوم برنامج آخر بتوليد الكلمات و الجمل حسب الخصائص المخزنة في هذا التمثيل. تترجم هذه الطريقة من الإنجليزية إلى العربية مثلا، و إذا أردنا إضافة لغة أخرى إلى النظام فلابد من إضافة محلل للغة المضافة يسمح بإعطاء التمثيل المجرد لهذه اللغة و أيضا مولد ينتج الكلمات انطلاقا من التمثيلات المجردة ، فضلا عن برنامج يحدد قواعد التحويل من اللغة المنطلق إلى اللغة الهدف. وبسبب هذه العقبات عند إضافة لغة جديدة إلى النظام ظهرت الطريقة الثالثة.

3- **الطريقة الوسيطية:** تعتمد هذه الطريقة على تمثيل كل اللغات باستعمال نفس التمثيل المجرد، فإذا حللنا النص إلى هذا التمثيل المجرد، يمكن ترجمة هذا الأخير إلى أي لغة أخرى لأنه يحافظ على المعنى الأساسي و الفكرة الموجودة في الجملة. ولإضافة لغة أخرى للنظام نكتفي فقط بإضافة محلل و مولد لهذه اللغة. لكن تظل هذه الطريقة هي الأبعد عن الواقع و عن التحقيق، لأنه من الصعب إيجاد تمثيل موحد لجميع اللغات يحافظ على المعنى دون ضياع، وهذا نظرا لاختلاف اللغات فيما بينها أولا و لعدم تطور طرق تمثيل المعنى ثانيا.

5. نماذج من الترجمة الآلية:

يمكن تقسيم طرق الترجمة الآلية حسب الوسائل المستعملة إلى قسمين:

1- الترجمة باستعمال القواعد

2- الترجمة باستعمال المدونات، هذه الأخيرة تنقسم بدورها إلى قسمين :

- الترجمة بالاعتماد على الإحصائيات
- الترجمة بالاعتماد على الأمثلة.

1- **الترجمة باستعمال القواعد:** تعتمد هذه الطريقة على القواعد اللغوية في تحليل الخطاب و توليده، و من ثم قواعد أخرى في تحويل الجمل من اللغة المنطلق إلى اللغة الهدف. تتطلب هذه الطريقة استعمال القواميس و تغطية قواعد النحو للغات المعالجة.

2- **الترجمة باستعمال المدونات:** تعتمد هذه الطريقة على استنتاج روابط بين نصوص و ترجماتها، إذ يتم تخزين عدد هائل من النصوص مع ترجماتها، و محاولة استنتاج قواعد في الترجمة، لماذا ترجمت هذه الجملة إلى هذه الجملة؟ لماذا استعملت هذه العبارة؟ كيف تم تعويض عبارة بأخرى؟... كما تستعمل أيضا في الترجمة مباشرة إذا كانت الجملة المدخلة موجودة أصلا في قاعدة النصوص المخزنة.

2-1- الترجمة الإحصائية: تعتمد هذه الطريقة على تصميم نماذج رياضية إحصائية تقارن بين الجمل المخزنة في اللغة المنطلق و الجمل المكافئة لها في اللغة الهدف باستعمال دوال احتمالات تحسب احتمال ترجمة جملة ما بجملة أخرى.

2-2- الترجمة باستعمال الأمثلة: تتبنى هذه الطريقة النظرية القائلة أن الإنسان لا يترجم جملة ما بتحليلها تحليلا لغويا معمقا، بل يقوم بترجمة أجزاء الجملة والتي قد مرت عليه سابقا ، أو تشبه أمثلة سابقة. إذا وبعد تخزين العديد من الأمثلة مع ترجماتها، و كنا بصدد ترجمة جملة ما، نقوم بتقسيم هذه الجملة و البحث عن الأجزاء المشابهة في قاعدة الأمثلة المخزنة، نغير المثال حسب أجزاء الجملة ومن ثم نولد الجملة الهدف.

مثال : تحوي قاعدة الأمثلة على الأمثلة التالية :

- (اشترى) سيارة He bought a car
- قرأت (كتابا حول الترجمة) I read a book about translation

فإذا أردنا ترجمة الجملة التالية: He bought a book about translation

فما علينا إلا تقسيم الجملة إلى أجزاء تشبه الأمثلة المخزنة في قاعدة الأمثلة، و ترجمتها بمكافئاتها، فنحصل على : (اشترى كتابا حول الترجمة)

3. الطرق الهجينة: تمزج هذه الطريقة بين الطرق السابقة و ذلك لفعالية أكبر في النتائج، كمزج طرق المدونات مثلا مع مقاربة التحويل التي تعتمد على القواعد، و ذلك باستغلال نقاط القوة في كل طريقة.

6. تصنيفات أخرى:

يمكن تصنيف الترجمة إلى أصناف أخرى و ذلك بحسب الغاية المرجوة من الترجمة: فيمكن أن نجد ترجمة آلية كاملة ، أي أن الحاسوب يقوم بكل العمليات و يعرض النتائج، أو ترجمة جزئية تحتاج إلى تدخل الإنسان ،أي أن الحاسوب كلما وقع في إشكال أو غموض أو عدم مقدرة على أخذ قرار في كلمة ما أو جملة ما فانه يلجأ للإنسان ليقرر مكانه ثم يواصل عمله ، فلابد في هذه الحالة من تفاعل بين المستعمل و الحاسوب. كما نجد أيضا ترجمة الغرض منها الفهم العام للنص، هذه الطريقة لا تهتم بالأسلوب و لا بالترجمة الكلية و التامة للنص. في المقابل نجد ترجمة تهتم بجانب الأسلوب و جودة النص، فالنوع الأول يهتم بالمعنى العام و يحتاج إلى مراجعة من طرف الإنسان، أما الثاني فيعمل مباشرة دون مراجعة ، و عادة ما يكون في ميادين ضيقة، أين يكون مجال الخطأ محدودا.

عادة ما يكون المترجم الآلي أداة خطيرة في يد الذين لا يحسنون اللغة و المشكلة أن هذه الأداة موجهة عادة لهؤلاء !

7- تقييم نظم الترجمة الآلية:

قبل تسويق نظام ترجمة آلية أو عرضه، لابد من معرفة ما إذا كان هذا النظام يلبي ما طلب منه أم لا. ولمعرفة هذا وجدت طرق تقييم تختلف حسب الأهداف المرجوة من هذا الترجمة، هل المطلوب معرفة الخصائص العامة للنظام فقط أم التأكد من العمل الصحيح للمكونات الداخلية، أو تقييم الجانب اللساني و التقني للنظام. لذا يمكن تقسيم طرق التقييم إلى ثلاث طرق:

- تقييم النظام بمقارنته مع النظم الحالية، و ما أتى به من إضافات.
- تقييم الخصائص اللغوية و الخصائص الحاسوبية للنظام، و ما مدى تمكن النظام منها.
- تقييم النظام حسب نوع الأشخاص الموجه إليهم (زبائن، مستعملون عاديون، باحثون، مطورون،...)

و يمكن تلخيص هذه الطرق كما يلي:

1- **العلبة السوداء:** نقوم بإدخال نص لترجمته ثم نقارن نتائج الترجمة مع النتائج المرجوة، هذه النتائج تكون محضرة من طرف المترجم المختص. يقدم هذا النوع من التقييم النقائص العامة للنظام. تسمى هذه الطريقة بالعلبة السوداء، لأننا لا نطلع على الطريقة المنتهجة في الترجمة، بل الذي يهمنا فقط هو المدخلات و المخرجات، أي هل يترجم النظام بطريقة صحيحة أم لا.

2- **العلبة الزجاجية:** على العكس من الطريقة الأولى، هذه المرة نقوم بتقييم العمل الداخلي لمكونات النظام، و كيفية تصميمها و انجازها من الجانبين اللساني و الحاسوبي. فقد يترجم النظام بطريقة صحيحة لكن مبدأ العمل خاطئ مما يولد أخطاء في المستقبل.

3- **متطلبات الزبون:** ترد هذه الطريقة على طلبات الزبون، و تتأكد مما إذا كانت نتائج النظام تجيب على طلباته أم لا.

8- خاتمة:

ظلت الترجمة البشرية عبر القرون وسيلة ناجعة لاكتشاف الآخر و الإطلاع على ما وصل إليه من تطور و رقي، و بالتالي اللحاق بالركب و المضي قدما نحو تطور أكبر. و في عصرنا الحالي تدعو الحاجة إلى الترجمة الآلية لما توفره من خدمات يعجز أمامها الإنسان، و تذهل المستعمل لما يرى من حقيقة باهرة تجعل المعارف مهما اختلفت ألسنها و تعددت مواردها في متناوله بمجرد الضغط على أزرار.

المراجع:

[1] Bessou Sadik, Morphological Analysis and Generation for Machine Translation From and to Arabic, Colloque International sur la Traductologie et le TAL, Université d'Oran/ Algérie, 2010.
[2] Christian BOITET, Traduction automatique : ça marche ou non ? Laboratoire LIG, GETALP – Université Joseph Fourier, Interstices, v3, 2008.
[3] Christian BOITET, Les architectures linguistiques et computationnelles en traduction automatique sont indépendantes, TALN 2008, Avignon, 9-13 juin 2008.
[4] Douglas Arnold, Lorna Balkan, Siety Meijer, R. Lee Humphreys, Louisa Sadler, MACHINE TRANSLATION An Introductory Guide, NCC Blackwell, ISBN: 1855542-17x, London, 1994.
[5] Rasha Samih AlDam, Building a Transfer Module from Restricted Domain English-to-Arabic Bilingual Corpus, Master Thesis, College of Arts & Sciences University of Sharjah Sharjah, United Arab Emirates, 2008.
[6] Zantout R., and Guessoum A., Arabic Machine Translation: A Strategic Choice for the Arab World, journal of King Saud University, Volume 12, pp. 299-335, 2000.

[7] مقدمة في الترجمة الآلية، عبد الله بن حمد الحميدان، مكتبة العبيكان، الرياض، 2001.

إعلان عن جائزة اللغة العربية 2014

يعلن المجلس الأعلى للغة العربية عن تنظيم "جائزة المجلس للغة العربية لسنة 2014، التي تهدف إلى تشجيع الباحثين من داخل الوطن، وتثمين منجزاتهم العلمية والمعرفية، ذات المردود النوعي الهادف إلى إثراء اللغة العربية، والإسهام في نشرها وترقيتها، سواء أكانت هذه الأعمال مؤلفة باللغة العربية، أم مترجمة إليها،

1 ـ شروط الترشح للجائزة:

- أن يقدم العمل باللغة العربية؛
- أن يتوفر العمل على قواعد المنهجية العلمية؛
- أن يكون البحث موثقا وأصيلا، ولم يسبق نشره، وفي مجال الترجمة ترفق نسخة للنص بلغته الأصلية؛
- أن لا يكون البحث قد نال به صاحبه جائزة أو شهادة علمية؛
- أن يندرج البحث في أحد المجالات المذكورة أدناه.
- قرارات لجنة التحكيم غير قابلة للطعن؛
- لا ترد الأعمال إلى أصحابها سواء فازت أم لم تفز.

2 مبلغ الجائزة: حدد مبلغ الجائزة بـ 2.000.000 دج، يوزع بمقدار500.000 دج لكل مجال من المجالات الأربعة التالية:

2 - 1 - **جائزة المجلس في اللسانيات وفقه اللغة.**

2- 2 - **جائزة المجلس في الترجمة إلى العربية في العلوم والآداب.**

2 - 3- **جائزة المجلس في التكنولوجيا والمحتوى الرقمي.**

2 - 4 - **جائزة المجلس في تحقيق التراث (العلمي واللغوي).**

يوزع المبلغ المالي في كل مجال من مجالات جائزة المجلس للغة العربية على النحو التالي:

- 50% للفائز الأول أي 250.000 دج؛

- 30% للفائز الثاني أي 150.000 دج ؛

- 20% للفائز بالجائزة التشجيعية أي 100.000 دج التي يمكن أن توصي بها لجنة التحكيم إذا ما توفرت في البحث الشروط العلمية المشار إليها أعلاه.

- **يمكن** أن يتكفل المجلس بنشر الأعمال الفائزة **باستثناء الجائزة التشجيعية التي تحال على هيئتي تحرير مجلتي: اللغة العربية ومعالم للتداول بشأن إمكانية نشرها في عدد من أعدادهما.**

- تصبح الأعمال الفائزة بجائزة المجلس **ملكا له**، إلا أنه **يمكن لمؤلفها استعادة حقوقه بعد موافقة المجلس**، وبعد انقضاء مدة ثلاث سنوات - على الأقل- من نشر العمل في طبعته الأولى؛

- تعرض الأعمال المرشحة على لجنة تحكيم مكونة من ذوي الاختصاص الذين لا يسمح لهم بالمشاركة في الجائزة؛

3 ـ طلب الترشح:

يتكون طلب الترشح للجائزة من الوثائق الآتية :

- طلب خطي؛

- نسخة من وثيقة الهوية (بطاقة التعريف أو رخصة السياقة)؛

- السيرة العلمية للمشارك؛

- نسختين من البحث المقدم لنيل الجائزة :

- النسخة الأولى مسجلة على قرص والنسخة الثانية توجه عن طريق البريد المسجل، ويكون تاريخ الختم البريدي شاهدا على ذلك.

4 ـ يفتح باب الترشح للجائزة ابتداء من نشر هذا الإعلان في وسائل الإعلام إلى غاية 31 ديسمبر 2013.

للاستفسار الاتصال بالروابط : الهاتف: 09 07 23 021

البريد الإلكتروني: sg.hcla@gmail.com

5 ـ يوجه ملف الترشح إلى العنوان الأتي :

السيد رئيس المجلس الأعلى للغة العربية

شارع فرانكلين روزفلت ، الجزائر

أو

ص.ب : 575 شارع ديدوش مراد الجزائر العاصمة

" جائزة المجلس للغة العربية 2014"

طبع هذا الكتاب بـ:

دار الخلدونية للطباعة والنشر والتوزيع

05، شارع محمد مسعودي القبة القديمة ـ الجزائر

الهاتف: 021.68.86.49 الفاكس:021.68.86.48

البريد الإلكتروني : khaldou99_ed@yahoo.fr

في هذا العدد

المجلس الأعلى للغة العربية

شارع فرنكلين روزفلت الجزائر

الهاتف : 25/ 213 021.23.07.24 الفاكس: 213 021.23.07.07

ص.ب : 575 الجزائر - ديدوش مراد

www.csla.dz